

المغرب والأندلس في عصر المرابطين

المجتمع - الذهنيات - الأولياء

د. إبراهيم القاري بوتشيش

شعبة التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي اسماعيل - مكناس

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الغلاف الأمامي: قبة مرابطية بمدينة مراکش، ودينار ذهبي لعملي بن يوسف مضروب بسجلماسة.
الغلاف الخلفي: مخيم للأبدو الرخمل بمراكش، رسم جول نويل.

المغرب والأندلس في عصر المرابطين

المجتمع - الذهنيات - الأولياء

د. إبراهيم القادري بوشيش

شعبة التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي اسماعيل - مكناس

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

جميع الحقوق محفوظة
لدار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت - لبنان
ص.ب: ١١١٨١٣
تلفون: ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى
نيسان (ابريل) ١٩٩٣

مقدمة

لم يحظ تاريخ المجتمعات والذهنيات بما يليق به من مكانة في الدراسات التاريخية الخاصة بالمغرب والأندلس، رغم الخانة التي أصبح يحتلها في خريطة المناهج المعاصرة. ولا غرو فإن الموضوع عد من اختصاص السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين أكثر من المؤرخين، بينما هو في واقع الأمر، عطاء صادق وانعكاس «جيد» لارضية تاريخية تجعل منه حقلاً خصباً للبحث التاريخي، وموضوعاً في أمس الحاجة إلى الاستقصاء والبحث من وجهة نظر المؤرخ.

ومن نافلة القول، أن معظم الدراسات الغربية حول المغرب والأندلس في العصر الوسيط، فتنت «بسحره التاريخ السياسي وأحداثه المدوية، «مقتلته» بحثاً. كما لم يبخل أصحابها - رغم شموخ أعمالهم - بالانتراء على هذا التاريخ وتكوينه بخلفيات سياسية وإيديولوجية. وركز على هذا الاتجاه، انصب اهتمام المدرسة العربية على مقارنة التخريجات الأجنبية، ودحض أباطيلها ومزاعمها المحيكة، لتطهيره مما شابه من تحريفات تنطق بالحق والتعصب، ولكنها انجرفت - دون أن تعي - في تيار التاريخ السياسي.

والحاصل أن البحث في تاريخ الذهنيات الأندلسية، بما تحويه من حقول بكر كظاهرة الزواج والمهر والاعتقاد في بركة الأولياء والموت والسحر والكهانة وغيرها من أشكال العقلية الأسطورية (الميثولوجية)، قد أسدل عليه ستار من الصمت والتمهيش في الدراسات الحديثة، عربية كانت أو أجنبية.

قد يعزى هذا الأمر إلى شحة المادة التاريخية، إذ أن المؤرخين القدامى ضربوا صفحاً عن الموضوع، ولم يلمحوا إليه إلا عبر إشارات مقتضبة ومتفرقة، وردت بكيفية عرضية في بعض مصنفاتهم.

لكن يمكن تدارك هذا النقص في الحوليات التاريخية، بالرجوع إلى كتب المناقب والتصوف والنوازل الفقهية والنصوص الزجلية والأمثال الشعبية وكتب التراجم، عن طريق لمّ شتات نصوصها المبعثرة، ووضعها في سياقها العام.

انطلاقاً من هذا الهاجس، يحاول هذا الكتاب ترميم إحدى الثغرات في الدراسات المغربية - الأندلسية، متوخياً من ذلك تقديم مساهمة متواضعة لفهم عقلية مجتمع المغرب والأندلس في عصر المرابطين. وسيتم التركيز على ثلاثة جوانب تتمثل في الحياة العائلية التي نسعى من دراستها إلى تتبع كيفية تكوين الأسرة، وما اعترضها من مشاكل ونزاعات طالحت الحياة الزوجية، ودور المرأة فيها، والطرق التربوية السائدة.

اما العادات والتقاليد، فسيتم تناولها عن طريق دراسة الأطعمة والأزياء المتداولة خلال الحقبة موضوع الدراسة، إلى جانب المواسم والاحتفالات ووسائل الترفيه، محاولين تجاوز الإطار الوصفي المحض عن طريق ربطها بالمناخ العام، والعوامل الفاعلة داخل المجتمع، وتباين البيئات الحضرية والبدوية.

وبالمنظور نفسه سيتم معالجة مجموعة من المعتقدات والظواهر الخرافية كالسحر والشعوذة والكهانة والتنجيم، وكلها ظواهر جاءت بمثابة انعكاس أمين لبنية ثقافية تفتقر للعقلانية.

وفي السياق نفسه، سيتم دراسة ظاهرة الولياء والصلحاء والمتصوفة، وهي ظاهرة نشأت مع استفحال الفوارق الاجتماعية، وازدياد الرفاه المادي لطبقة تمثل الأقلية من المجتمع، وسخط قطاع عريض منه على الوضع السائد. ومن ثم سنطرح مسألة «الكرامات» و«البركة»، والاعتقاد في ظاهرة الولاية ضمن الطروحات التي نسعى إلى تفسيرها.

والجدير بالذكر أن المواضيع التي يهتم الكتاب بمعالجتها هي أصلاً جزء من أطروحة جامعية تقدمت بها لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، لذلك سيلاحظ القارئ أن ثمة ربطاً واضحاً بينها وبين الأجزاء التي سبقتها، والتي لم تنشر بعد.

والأمل معقود على مواصلة الحوار والنقاش الجاد بين المتخصصين «لفحص» هذه الآراء وتثريتها. فبالحوار وحده يسير القطار على السكة، وتتخذ الكتابة التاريخية مسارها الصحيح. والله أسأل أن يوفقنا لما فيه مصلحة التاريخ العربي عموماً وتاريخ المغرب والاندلس على وجه الخصوص.

مكناسة الزيتون المحروسة،

١٩٩٢/١١/١

إبراهيم القادري بوتشيش

فصل تمهيدي

لمحة تاريخية عن

دولة المرابطين من التشكل إلى الانهيار

يتوخى هذا المبحث الوقوف عند أهم المحطات الأساسية في مسار تاريخ المرابطين، تمهيداً لربط ما سيرد في هذه الدراسة من فصول حول المجتمع والذهنيات السائدة بالمناخ السياسي العام.

① المرابطون: إشكالية التسمية والاصل:

تضاربت الروايات التاريخية حول اسم المرابطين وأصلهم، إذ عزا بعض المؤرخين^(١) سبب هذه التسمية إلى اعتصامهم بالرباط الذي أنشأه عبد الله بن ياسين في أعالي حوض نهر السنغال عند بداية حركته الإصلاحية. بينما أرجع البعض ظهور هذا الاسم إلى المرحلة التي أعقبت خروج أنصاره من الرباط لقتال القبائل المعارضة لدعوته وكسر شوكتها في إحدى المعارك، حيث تم إطلاق اسم «المرابطين» عليهم تكريماً واعتزازاً بصيرهم وجهادهم^(٢) في حين يستشف من رواية أخرى أن هذا الاسم لم يطلق على جيش عبد الله بن ياسين إلا بعد النصر المؤزر الذي حققه على حساب دولة برغواطة سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م^(٣).

والراجع أن الاسم حمل تغييراً في دلالاته تبعاً لتطور الحركة المرابطية ذاتها. فقبل انتقال المرابطين إلى مرحلة الدعوة، أطلق هذا الاسم على مجموعة من الرواد المالكين الذين كانوا يقصدون مدرسة وجاج بن زلو اللمطي المعروفة «بدار المرابطين»^(٤). ومعلوم أن عبد الله بن ياسين مؤسس الدولة المرابطية تخرج من هذه المدرسة. وبعد أن تمكن المرابطون من الأندلس، وغزتهم أضواء مدينتها وحضارتها، أصبح الاسم يرمز إلى الملك والجاه^(٥). كما كان يُطلق أيضاً على كل من اخلص للدولة أو حقق لها انتصارات مظفرة في معارك الجهاد، فصار مصطلح «مرابط» بمثابة «وسام شرف

(١) ابن خلدون: كُتُب العبر، بيروت ١٩٨١. تحقيق خليل شحادة، ج ٦، ص ٢٤٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت ١٩٨٠. تحقيق برونسفال وكولان، ج ٤، ص ١٢.

(٣) ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، الرباط ١٩٧٢. تحقيق بن منصور، ص ٢٨.

(٤) عياض: ترتيب المدارك، الحمدة ١٩٨٢. تحقيق سعيد أعراب، ج ٨، ص ٨١.

(٥) الراكني: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، البيضاء ١٩٧٨ (ط ٧). تحقيق محمد العريان ومحمد العربي العلمي، ص ٥٢. ويقول ما يفيد هذا المعنى وهو بصدد الحديث عن علي بن يوسف: «وقام بأمره من بعده ابنه علي بن يوسف بن تاشفين وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين وسمى أصحاب المرابطين».

عسكريي، يمتنع لكل من خدم الدولة^(١).

ويُعرف المرابطون أيضاً بالملثمين، نسبة إلى اللثام الذي يضعونه على وجوههم. وقد تعددت وجهات نظر المؤرخين حول هذا اللثام وأسباب اتخاذه عادة من طرف المرابطين، وهو ما سنتناوله بتفصيل في الفصل الثاني من هذه الدراسة عند معالجة عادات الأزياء.

أما عن أصلهم، فقد تباينت روايات المؤرخين أيضاً بين قائل بأصلهم العربي الحميري وهو رأي الأغلبية^(٢)، ومن يرجح أصلهم البربري دون إعطاء حجج قوية^(٣).

ومهما يكن من أمر، فقد أجمع المؤرخون على أنهم مجموعة قبائل نزحت من بلاد اليمن في تاريخ غير مضبوط، واتجهت نحو أفريقية، حيث توقف بها قسم فاستوطنتها، بينما استمر القسم الآخر بالنزوح إلى أن انتهى به المقام في الصحراء المغربية الجاورة للمحيط الأطلسي^(٤). ويذكر من بين القبائل المهاجرة لمتونة وجدالة ولطة وتاركة وعطا، وغيرها من القبائل الصنهاجية التي اتاخث في هذه القفار الممتدة من غدامس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال درن شمالاً حتى تخوم السودان جنوباً.

في هذه المناطق الشاسعة، عاشوا حياة تعتمد على الرعي والترحال، ولا يعرفون حراثاً ولا زرعاً ولا خبزاً، وإنما أموالهم الانعام^(٥)، ويمتنقون من ماء إلى ماء كالعرب^(٦)، باحثين عن أماكن الخصب لانعامهم.

ويخبرنا ابن خلدون^(٧) أنهم عرفوا الديانة الجوسية وعبادة الأوثان، كما اعتنقوا حسب مؤرخ آخر^(٨) الديانة النصرانية، إلى أن بدأ الإسلام يتسرب إلى ربوعهم في مطلع الفتوحات الإسلامية.

بدأ نجم المرابطين في الظهور عندها كؤنوا أول حلف صنهاجي ضم أهم قبائل صنهاجة الجنوب بزعامة أمير لحوتني يدعى يتلوتان بن تلاككين الذي بلغت سلطته شامواً عظيماً، وحسبنا أن أزيد من عشرين مملكة من ممالك السودان أصبحت خاضعة لنفوذه تؤدي له الجزية بانتظام كما تؤكد ذلك النصوص^(٩). وبقي على رأس الحلف إلى أن توفي سنة ٣٢٢ هـ / ٨٣٦ م، فتوارث عقبه

(١) العبادي: «الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين». مجلة كلية الآداب - الإسكندرية، عدد ٢٦ سنة ١٩٦٧. ص ٥٣.

(٢) ابن حجر التميمي: منتهى الأعلام بوفاته الصحابة وملوك الإسلام (مخ) ص ٤٦٣ - المسكري: الخبر المغربي (مخ) ص ١٧٤ - القرمانلي: أخبار الدول المنقطعة (مخ) ص ٢٥ - ابن القاضي: الدرر الحلوك المشرق (مخ) ورقة ١٦٩.

(٣) الزياتي: الترجعلمان المغربي (مخ) ص ٢٧٣.

(٤) السعدي: تاريخ السودان. باريس ١٨٩٨. نشر هوداس وينواست. ص ٢٥ - ٢٦.

(٥) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب. باريس ١٩١١. نشره بيريس. ص ١٦٤.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان. تحقيق إحسان عباس، بيروت (دت) ج ٧، ص ١٢٨.

(٧) العيوني: ص ٦، ص ١٤٢.

(٨) مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. البيضاء ١٩٧٩. تحقيق سهيل زكار وزعامة. ص ١٧.

(٩) ابن الخطيب: أعمال الأعلام. البيضاء ١٩٦٤. تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني. ج ٣، ص ٢٢٥.

الحكم إلى سنة ٢٠٦ هـ / ٩١٣ م. عندئذ تصدع الحلف الصنهاجي بسبب خلافات داخلية، وبقي كذلك مائة وعشرين سنة إلى أن أعيد تشكيل حلف ثان برزامة محمد بن تيفات اللمطي^(١)، وهي محاولة ثانية لاسترجاع القبائل الصنهاجية دور الوساطة التجارية الذي أفقدت من يدها. غير أن الزعيم الجديد لم يلق حظه في إحدى المعارك مع مملكة غانة، فولي الأمر بعده صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي جمع القبائل الصنهاجية تحت سلطته، ثم عزم على القيام بأداء فريضة الحج حوالي سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م.

الدولة المرابطية في مرحلة الدعوة:

وخلال رحلت إلى الديار المقدسة، التقى في القيروان بعالم مغربي يدعى أبو عمران الفاسي. وخلال هذا اللقاء تم وضع مخطط بين الطرفين يهدف إلى تقويض الدويلات الزناتية المتناحرة، وإقامة دولة سنية مالكية تسعى إلى إصلاح المجتمع المغربي وتطهيره من الحركات البدعية^(٢).

وفي هذا اللقاء أيضاً، تم اختيار وجاج بن زلو الذي كان شيخاً يدرس في إحدى الرباطات الموجودة في نفيس أو ملكوس بمنطقة السوس^(٣). ولم يكن هذا الاختيار اعتباطياً، كما أنه لم يأت نتيجة امتناع طلبة أبي عمران الفاسي عن مرافقة الزعيم الصنهاجي نحو الديار الصحراوية كما تزعم المصادر، لأن ذلك لا يتناسب مع المكانة والاحترام الذي يكنه هؤلاء لشيخهم، ولا يتلاءم مع ما عرف عن فقهاء المالكية من روح التضحية التي وصلت إلى درجة الاستشهاد^(٤).

المسألة في نظرنا ترجع إلى تفكير الرجل في أن إنجاح الدعوة رهين بإيجاد الرجل المناسب مثل وجاج بن زلو الذي كان على دراية واسعة بأحوال السياسة بالمغرب، ومتشبعاً بالفكر المالكي، وصاحب مدرسة سنية مالكية هي «دار المرابطين»، ناهيك عن كونه من كبار علماء البربر^(٥). على كل حال، وضع يحيى بن إبراهيم وأبو عمران الفاسي اللبنة الأولى لتأسيس الدولة المرابطية. وكان اختيار وجاج بن زلو صائباً. وانتدب هذا الأخير أحد تلامذته للقيام بهذه المهمة في الصحراء، وهو عبد الله بن ياسين الذي كان على علم بأوضاع الأندلس والمغرب، فاستجاب بحمس كبير لهذه المهمة، واتجه مع يحيى بن إبراهيم إلى القبائل الصنهاجية بالصحراء، حاملاً معه مشروع إصلاح ديني وسياسي.

وقبل مواصلة ذكر مهمة عبد الله بن ياسين في ديار الملمتين، لا بد من الإشارة إلى بعض العوامل التي ساعدته في إنجاح دعوته، ويمكن تلخيصها فيما يلي^(٦):

١ - تحول الطرق التجارية نحو ديار صنهاجة الجنوب، وهو ما مكّن الملمتين من جني أرباح كبيرة

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، الرباط ١٩٧٢. تحقيق بن منصور، ص ٢٢١.

(٢) ابن الأحمر: م.س. ص ٢٧ - ٢٨.

(٣) يجعله البكري في ملكوس. انظر: م.س. ص ١٦٥، بينما يجعله ابن أبي زرع في نفيس. انظر: م.س. ص ١٢٢.

(٤) محمود إسماعيل: مغربييات. فاس ١٩٧٧. ص ٧٧. الفصل الخاص بمحنة المالكية.

(٥) مؤلف مجهول: ملفخر البربر. الرباط ١٩٢٤، نشر بروفنسال، ص ٦٩.

(٦) أثرنا هذه العوامل بتفصيل في أطروحتنا المعدة لدكتوراه الدولة تحت عنوان: الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين. (موقوتة) ج ١. ص ٧٨ وما بعدها.

- ١ - ساعدتهم على إنجاح مشروعهم السياسي.
- ٢ - توجه انظار العالم الإسلامي إلى القوى البدوية المتواجدة في اطرافه كقوى منقذة، وتتمثل في السلاجقة شرقاً والمثمنين غرباً.
- ٣ - اشتداد الحركة الصليبية، وهو ما استدعى ظهور قوة منقذة.
- ٤ - اكتساح المد السني للمجتمعات الإسلامية.

— وعلى أي حال، فبمجرد وصول الداعية المرابطي إلى الصحراء، أصبح المرشد الديني والمناضل الأول لإقامة دولة المرابطين. وكانت أول قبيلة عرج عليها هي قبيلة لمتونة حسيما يذكره ابن الأثير^(١)، فبدأ بيت تعاليم دعوتهم في أوساطها. ورغم مظاهر الترحاب الذي هوبل به في البداية، فإن الداعية لقي معارضة قوية من قبل أعيان القبيلة على الخصوص. ويفسر هذا الموقف بتعارض دعوة ابن ياسين مع أعراف تلك القبائل. كما أن بعض تعاليمه الصارمة لم تكن لتلائم طبيعة مجتمع بدوي اعتاد على عدم الانصياع لشرائع تلجئهم^(٢). يضاف إلى ذلك أن الأرستقراطية اللمتونية رأت في الدعوة المرابطية إنقاصاً من شأنها ومحاولة لتسويتها مع المستضعفين^(٣).

وانتهت المعارضة بانقلاب تزعمه الأعيان كاد أن يؤدي بحياة عبد الله بن ياسين^(٤)، فتم طرده من ديار لمتونة، وأصبحت الحركة الإصلاحية بانتكاسة خطيرة لولا فكرة إنشاء الرباط التي جاءت لتفذي الدعوة المرابطية بدماء جديدة. ويمكن تقسيم هذه المرحلة الجديدة من الدعوة إلى فترتين:

١ - فترة التكوين المذهبي والعسكري في الرباط: بدأت هذه الفترة عندما تم بناء رباط في جزيرة منعزلة بموضع لم تحدده النصوص بدقة^(٥). ولا يعرف على وجه التدقيق المدة التي بقي فيها المثلثون برباطهم؛ ويمكن أن تكون قد تراوحت ما بين سبعة إلى اثني عشر عاماً^(٦)، وهي مدة كانت كافية لتكوين ما يربو عن ثلاثة آلاف مرابط تكويناً مذهبياً وعسكرياً^(٧).

٢ - مرحلة تطيق تعاليم عبد الله بن ياسين: بدأت هذه الفترة الثانية بخروج المثلثين من رباطهم بعد أن أصيبوا بآلة حرب. على حد تعبير أحد الدارسين^(٨)، فتغير أسلوبها من الاعتماد على الحجة والإقناع إلى استعمال القوة والعنف. وبهذه الوسيلة تمكن ابن ياسين من استئصال شافة كل المخالفين عليه من لمتونة ومسوفة وجدالة وسائر القبائل الصنهاجية، وحصل منهم على الأموال اللازمة لمواصلة مسيرته^(٩). كما تم الاستيلاء في هذه الفترة على أودغشت مفتاح طرق تجارة

(١) الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٨، ج ٨، ص ٧٤.

(٢) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(٣) ابن الوردي: تلخيص ابن الوردي، طبعة ١٢٨٥ هـ (د.م.) - المطبعة الوهبية ج ١، ص ٣٥٦ - حسن محمود: قيام دولة المرابطين، القاهرة ١٩٥٧، ص ١٣١.

(٤) ابن عذاري: م.س. ص ٨ - ٩.

(٥) ابن أبي زرع: م.س. ص ١٢٤ - ١٢٥.

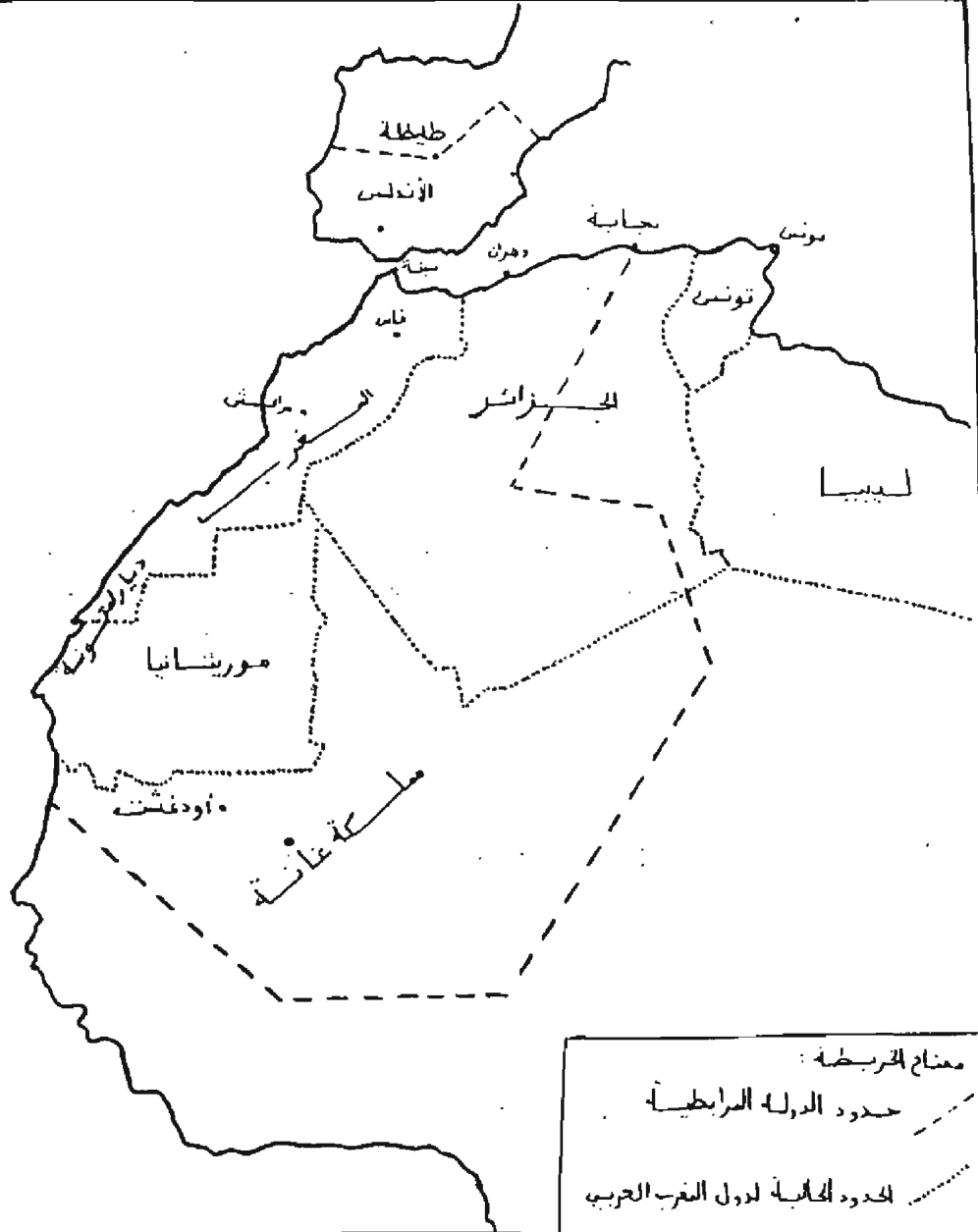
(٦) شميرة المرابطون: تاريخهم السيلسي، القاهرة ١٩٦٩ (ط ١)، ص ٤٦.

(٧) ابوالفدا المختصر في أخبار البشر، طبعة مصر، المطبعة للحسنية، (د.ت.)، ط ١، ص ١٧٥.

(٨) Marçais: La Berberie Musulmane et l'Orient au moyen âge. Paris 1946, p. 40.

(٩) ابن أبي دينار: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، طبعة تونس ١٢٨٦ هـ، ط ١، ص ١٠٣.

حدود الدولة الراشدة في أقصى توسعها



القوافل، وإخضاع أهم ممالك السودان. وبذلك أصبحت راية الدعوة المرابطية ترفرف فوق ربوع الصحراء وبلاد السودان. وبعد توفر الشروط المادية والدينية، فضلاً عن شرط العصبية - وهي شروط ضرورية لتأسيس الدلول كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون - بدأت أنظار المرابطين تتجه نحو المغرب • الأقصى لإقامة دولة كبرى.

الدولة المرابطية في مرحلة التكوين والاكتمال

فتح المغرب الأقصى:

كانت الفوضى السياسية التي استشرت في طول بلاد المغرب وعرضها، والصراعات التي استعرت بين أمراء الدويلات القزمية التي تقاسمت حكم المغرب، والمجاعات والأوبئة والسياسة الضرائبية المجحفة التي نهجها هؤلاء الأمراء، عوامل داخلية ساعدت على توجيه همة المرابطين نحو فتح المغرب. ويبدو جلياً من خلال خط سير العمليات العسكرية التي اتبعتها المرابطون أنها خضعت لخطة مدروسة ومحكمة، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة محاور كبرى:

١ - محور سجلماسة - أغمات الذي كان يهدف إلى السيطرة على منافذ تجارة الجنوب، والحق أن هذه المرحلة كانت حاسمة في توطيد نفوذ المرابطين بالمغرب. لكن للأسف فإن المصادر لا تورد بخصوصها سوى أخبار شحيحة تتميز باختلاف حول السنوات التي وقعت فيها المعارك.

انطلقت الحملات العسكرية بقيادة يحيى بن عمر الذي خلف يحيى بن إبراهيم، وتحت زعامة روحية مثلها عبد الله بن ياسين. وقد شملت فتح درعة وسجلماسة^(١) ثم غادت أدرابها نحو السودان قبل العودة لسجلماسة من جديد لإخماد ثورة اندلعت هناك. وبعد ذلك والت الجيوش المرابطية زحفها نحو السوس بقيادة أبي بكر بن عمر الذي خلف يحيى بن عمر سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م، فتم الاستيلاء على تارودانت وجبل درن وبلاد كدمية.

ب - محور الوسط، وهو الذي هدف المرابطون من خلاله إلى السيطرة على الطريقين التجاريين الساحلي والواوسط. وقد تميزت هذه المرحلة بالصعوبة وضراوة المعارك. وتركزت جهود المرابطين فيها على إخضاع أخطر تجمع سياسي آنذاك وهي دولة برغواطة، إلى درجة أن عبد الله بن ياسين لقي حتفه وهو يصارعها^(٢). غير أن استشهاده لم يزل من عزيمة المرابطين الذين استأنسوا في قتال من اعتبروهم خارجين عن السنة، فجالوا فيهم بسنابك خيولهم ومزقوهم شرمزق حتى أسلموا إسلاماً جديداً^(٣).

في هذا الوقت، لاحت شخصية جديدة في فضاء التاريخ المغربي، وهي شخصية يوسف بن تاشفين الذي تمكن بفضل ذكاء وبراعة زوجته زينب النفزاوية من سلب السلطة من أيدي أبي بكر بن عمر^(٤). وتواصلت المعارك تحت قيادته في اتجاه بلاد فازان حيث تم الاستيلاء على لوانة

(١) ابن خلدون: م.س. ص ٢٤٤.

(٢) البكري: م.س. ص ١٦٨.

(٣) ابن الخطيب: م.س. ص ١٨٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٢٢.

ومدائن مكناسة وفاس. وتوجت هذه المرحلة بتأسيس مدينة مراكش سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٣ م^(١). ويعتبر تأسيس هذه المدينة التي أصبحت عاصمة الدولة الفتية طورياً متقدماً في تنامي الحركة المرابطية.

ج - محور الشمال والشمال الشرقي: في هذه المرحلة سعى المرابطون إلى إخضاع المغرب نهائياً. فما إن تمت السيطرة على فاس، حتى ران يوسف بن تاشفين بصره نحو مدن الشمال، فقام بجولات موفقة في مناطق غمارة والريف والنكور ليصل إلى طنجة^(٢). وأتاح له استنجد المعتمد بن عباد به فرصة للحصول على أسطول بحري تمكن بواسطته من اقتحام مدينة سبتة، وإطفاء جمرة حاكمها سكوت البرغواطي^(٣). وبعد ذلك قام بجولات عسكرية في النواحي الشرقية حتى وصل إلى تلمسان سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م، ثم توغل في المغرب الأوسط حتى بلغ وهران وجبال ونشريس^(٤). وعقب ذلك استسلمت القبائل الأخرى صفواً دون أن يخوض في ذلك غمرة أو يتجشم فيه مشقة، فخلال له الجول للتفكير في فتح الأندلس.

معركة الزلاقة وضم الأندلس:

في الوقت الذي أوشك المرابطون على الانتهاء من تمهيد المغرب الأقصى، بدأت أيادي ملوك الطوائف تمتد نحو يوسف بن تاشفين لوضع حد للتحركات النصرانية، وبدأ صدى الاستغاثة يصل إلى المغرب، بل إن المعتمد بن عباد هرع بنفسه إلى يوسف بن تاشفين يلتمس النجدة، وانتهى الأمر باستجابة المرابطين لدعوة الإنقاذ^(٥).

في هذه اللحظة التاريخية، كانت الأندلس تشهد ~~أحلك شؤنة~~ في تاريخها، ولا غرو فقد أصبحت نهياً لكل مغامر أشس من نفسه القوة، لذلك لا غرابة أن ينقسمها بعض الطامعين الحالمين بالنفوذ والسلطان، حتى صارت مجزأة إلى ٢٢ دويلة^(٦).

ولم تتوفر هذه الدويلات الطائفية على أبسط مقومات الدولة، إذ اتسمت بأسسها الهشة، وافترقت إلى قاعدة تضمن لها كياناً سياسياً صلباً له وجود اجتماعي مستقل. وفضلاً عن ذلك، فقد أغرقت نفسها في صراعات دموية، زادت من هشاشتها، وهو ما عبر عنه أحد المؤرخين بقوله: «وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التجاسد والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات»^(٧).

(١) وقع اختلاف بين المؤرخين حول المؤسس الحقيقي لمراكش هل هو يوسف بن تاشفين أم أبو بكر بن عمر، والراجح أن الأخير هو المؤسس. كما وقع اختلاف حول سنة التأسيس.

(٢) ابن الخطيب: م.س. ص ١٧٩.

(٣) ابن بسلام: الذخيرة في مجلس أهل الجزيرة. ليبيا - تونس ١٩٨١. تحقيق إحسان عيسى ج ٢، م ٢، ص ٦٧٥.

(٤) انظر التفاسيل عند ابن أبي زرع: م.س. ص ١٤٢ وما بعدها.

(٥) ابن دحية: المطرب من اشعار أهل المغرب. طبعة ١٩٥٥ (د.م). تحقيق إبراهيم الأبياري، ص ١١٩.

(٦) عن أمراء الطوائف والأسرات التي حكمت مختلف المدن الأندلسية انظر: زامبارو: معجم الأنسب والاسرات

الحكمة في التاريخ الإسلامي. جامعة فزاد الأول ١٩٥١، ج ١، ص ٨٦ وما بعدها.

(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام. القسم الأندلسي. بيروت ١٩٥٦. تحقيق برونفيسال، ص ٢٤١.

وإذا أضفنا إلى ذلك السياسة الجبائية المحققة التي انقلوا بها كاهل رعاياهم^(١)، مقابل ترفهم وتبذيرهم الأموال في سبيل المذات^(٢)، أدركنا كيف أصبحوا لقمة سائغة أمام القوى المسيحية المتكاثرة، وبالتالي أمكن الوقوف على حوافز إجماعهم على استدعاء يوسف بن تاشفين لوضع حد لها. لم يكن أمام القائد المرابطي سوى تلبية داعي الجهاد. وبعد ترتيبات أمنية وعسكرية وتخطيطات تكتيكية، وقعت معركة الزلاقة المعروفة في المصادر الإسبانية باسم Sagrajas في يوم الجمعة ١٢ رجب من سنة ٤٧٩ هـ الموافق لـ ٢٣ تشرين الأول / أكتوبر من سنة ١٠٨٦ م وهو التاريخ الأرجح^(٣)، وذلك فوق سهل الزلاقة. ولن ندخل في تفاصيل هذه المعركة التي تمكن فيها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين من حصد زهرة القوات النصرانية تحت زعامة ألفونسو السادس، بل سنقتصر على ذكر نتائجها.

لقد أدى هذا الانتصار إلى تعزيز مكانة يوسف بن تاشفين لدى رعية الأندلس، وأبرزه كقائد محنك قادر على توحيد الأندلس تحت لوائه. كما أسفر عن رفع معنويات الأندلسيين بعد الإحباطات التي تعرضوا لها من قبل الممالك المسيحية، ولم يعد ملوك الطوائف مجبرين على دفع الجزية لألفونسو. كما أن المعركة وضعت حداً لأحلام هذا الأخير في مخططه لاحتلال الأندلس، وهو ما عبر عنه أمير غرناطة ابن بلكين في مذكراته بقوله أنه «أشرب الروم من تلك الوقيعة خوفاً وانكماشاً»^(٤). ومن ناحية أخرى، فإن المعركة كشفت النقاب عن الانقسامات التي كانت سائدة بين ملوك الطوائف. وتؤكد يوسف بن تاشفين من هذا الانقسام إبان جوازه الثاني للأندلس سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م لحصار حصن لبيط Aledo^(٥). وقد فشل الحصار بسبب الانشقاقات التي ظهرت بين صفوفهم، مما جعل فكرة القضاء على ملوك الطوائف تدخل حيز التطبيق^(٦)، إذ قرر يوسف أن يحسن دأهم خلال جوازه الثالث نحو الأندلس.

ولإعطاء فكرته مشروعيتها الدينية، استصدر فتوى من فقهاء المغرب والمشرق، فافتوا بإعفاء أمراء الطوائف لأن «الإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلى واجب الجهاد»^(٧). ويعتبر الجواز الثالث ليوسف بن تاشفين نحو الأندلس سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م حدثاً تاريخياً حاسماً تقرر فيها مصيرها، وحسبنا أنها أصبحت منذئذ ولاية مغربية.

(١) عن الضرائب المفروضة على الرعايا في عصر الطوائف انظر: ابن حزم، رسالة التلخيص، طبعة ١٩٦٠ (دم). تحقيق إحسان عباس، ص ١٧٦ - ابن بلكين: كتاب التبيين، القاهرة ١٩٥٥. نشره بروفنسال، ص ١٠٩ - ابن الخطيب: م.س. ص ٢٤٤.

(٢) ابن بسلام: م.س. ج ٢، م ١، ص ٢٨٨.

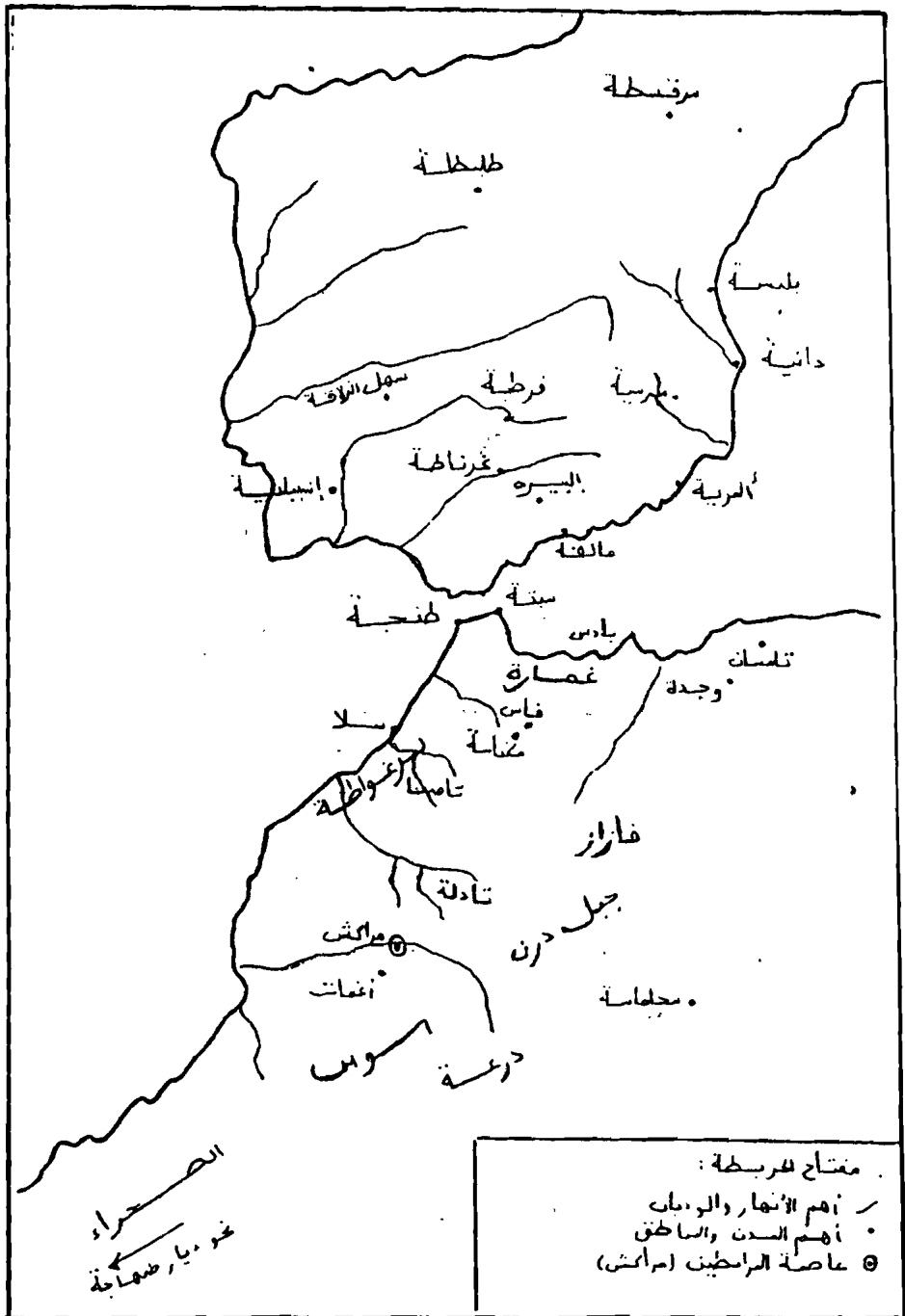
(٣) يلاحظ أن الرواية المسيحية تؤكد هذا التاريخ. لكن في المصادر العربية نجد بعض الاختلافات في تحديد سنة وقوعها.

(٤) ابن بلكين: م.س. ص ١٠٨.

(٥) يقع هذا الحصن في منتصف الطريق ما بين مرسية ولورقة.

(٦) من الراجح أن فكرة ضم الأندلس كانت واردة في مخطط المرابطين منذ انطلاقاتهم من الصحراء. انظر نصوباً "تدل على ذلك عند ابن الأثير: م.س. ج ٨، ص ٧٥.

(٧) ابن بلكين: م.س. ص ١٦٨ - ابن خلدون: م.س. ص ٢٤٩.



كانت البداية من إمارة غرناطة وأميرها آنذاك عبد الله بن بلكين الذي استسلم صاعراً. ثم زحف المرابطون نحو تميم بن بلكين صاحب مالقة، ليقترحوها بعد ذلك لإشبيلية ويعزلوا صاحبها المعتد بن عباد، ثم ابنه المأمون بقرطبة، وتوغلت خيول المثلثين في المدن الأخرى، وتمكنت من تنفيذ مهماتها العسكرية بنجاح رغم ضراوة المقاومة التي أبدتها الأندلسيون، فتهاوت إماراتهم الواحدة تلو الأخرى إلى أن صارت الأندلس برمتها تحت قبضة يوسف بن تاشفين، فأصبحت منذئذ تبعاً لمراكش من بلاد العدو^(١). وبذلك انتهى عهد الإمارات القبلية والطائفية، وتحققت الوحدة المركزية لأول مرة في تاريخ المغرب بقيادة قوى أمازيغية.

الدولة المرابطية من ذروة المجد إلى مرحلة التراجع والافول:

ترسخت أركان الدولة المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين، وشب عودها، وأصبحت مهابة الجانب، وبلغت أوج اتساعها من أقصى نقطة في شمال الأندلس حتى تخوم السودان جنوباً ومدينة الجزائر شرقاً. وقد شهد عهده ازدهاراً مهماً عبر عنه أحد المؤرخين^(٢) بقوله: «أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة في رفاهية عيش وعلى أحسن حال، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله». وفي الآن ذاته، تمكنت دولته الفتية من السيطرة على تجارة البحر الأبيض المتوسط وتجارة القوافل الصحراوية، ونشر الإسلام في ربوع السودان، ناهيك عن المعارك المظفرة التي تجت في ردع التطلعات الصليبية شمال الأندلس.

وتمكن يوسف بن تاشفين بعد تحقيق وحدة الدولة من تأسيس نظام سياسي يمكن رصد ملامحه كما يلي:

في قمة الهرم السياسي كان يوجد أمير المسلمين^(٣)، وتتجلى اختصاصاته في الإشراف على معارك الجهاد، وتولية العمال على أقاليم الدولة، ومراقبة الجهاز الإداري إما بالطواف على أقاليم الدولة لمعرفة شؤون الرعية^(٤)، أو استدعاء العمال ومحاسبتهم، والإشراف أحياناً على إقامة الحدود. وكان يجمع إلى جانب السلطة الزمنية السلطة الروحية، ولو أنها ظلت في معظم الحالات بيد الفقهاء. وأحاط الأمير نفسه بمجموعة من طبقة الكتاب الذين احتلوا مكانة مرموقة في الدولة^(٥).

وكان تعيين ولي العهد يجري وفقاً لرسم فخم، فيعقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والفقهاء، ثم يصرح المجتمعون بأنهم يقبلون ولي العهد المختار أميرهم، ويبايعونه بالطاعة تحت شروط يحددها الأمير^(٦).

كما وطد يوسف بن تاشفين دعائم حكمه بإحداث منصب نائب أمير المسلمين، وأعطاه سلطة

(١) المراكشي: م.س. ص ٨٠.

(٢) مؤلف مجهول: الحلل الموشية. م.س. ص ٨٢.

(٣) يتقصد أمير المسلمين إمارته رسمياً من أمير المزمين الخليفة العباسي (راجع الملحق رقم (١) في آخر هذا الكتاب).

(٤) ابن أبي ذرع. م.س. ص ١٢٧.

(٥) المراكشي: م.س. ص ٢٥٥ وما بعدها.

(٦) انظر وثيقة تعيين ولي العهد عند ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. القاهرة ١٩٧٤. تحقيق محمد عبد الله عنان: ج ٢، ص ٥١٩ - ٥٢٠.

منطلقة باعتباره مثلاً له، ومن ثم كان له حق تنصيب ولاية الاقاليم أو عزلهم.

ولم يرحل يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م إلا بعد أن رسخ دعائم دولته، وافشل حركة الاسترداد المسيحية، تاركاً دولة فتيحة مرهوبة الجانب.

وخلفه ابنه علي بن يوسف في السنة نفسها. ورغم طموحه في مواصلة تنسياسة أبيه الحازمة، وتقليم أظافر الخطر النصراني وردعه في موقعة اقلش سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م، والقلعة سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م، وإفراغة سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٥ م، فإن ضعف شخصيته واستسلامه لاهواء الفقهاء، وتدخل النساء في شؤون السياسة، كل ذلك جعل زمام الأمور يفلت من يده، الشيء الذي أفضى إلى ظهور ثورات في المغرب والاندلس، وهو ما جعل الدولة المرابطية تدخل في مرحلة التراجع. فلماذا وقع هذا التراجع في وقت كانت الدولة المرابطية لا تزال في زهرة شبابها؟

يعزى ذلك - فيما نرى - إلى نقط الضعف التي صاحبت بناء الدولة. فالدولة المرابطية قامت على أساس عسكري يعتمد على الموارد الحربية لتدعيم كيائها، وهو ما نتج عنه اقتصاد «مزدهر» سطحياً فقط، يمكن التعبير عنه «باقتصاد المغازي» الذي يكون قوياً عندما تكون الفتوحات في أوجها، لكنه اقتصاد غير قابل للاستثمار والتنمية، إذ بمجرد ما تنقطع الغزوات وعمليات الجهاد، تنقطع موارده (غنائم، صفايا، مصادرات، خراج الخ...) وبذلك يتراجع هذا الاقتصاد، فتنهار معه الدولة. كما أن سلطة الفقهاء لعبت دوراً في هذا التطور السلبي. فالمصادر تجمع على ما حظوا به من سلطات واسعة حتى أن يوسف بن تاشفين كان لا يميضي رأياً دون الرجوع إليهم^(١). وبالمثل فإن ابنه علياً، «اشتد إثارة لاهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء»^(٢)، مما جعل هؤلاء يشكلون «ديكتاتورية دينية» على حد تعبير أحد الباحثين^(٣)، لذلك فإن تسلط الفقهاء يعتبر من أكبر الثغرات التي نجم عنها خلل كبير في جهاز دولة المرابطين.

ومن المساوئ الأخرى التي أدت إلى تراجع دولتهم، بقاء الموروثات القبلية ماثلة داخل أجهزة الحكم، مما نشأ عنه احتكار المناصب السياسية من طرف قبيلة لمتونة دون غيرها^(٤). فالدولة المرابطية لم تنجح في تجاوز الإطار القبلي داخل منظومة الدولة المركزية الكبرى، الشيء الذي أدى إلى امتعاض القبائل الأخرى التي بدأت تتربص الدوائر بالمرابطين، وتقتنص الفرص للإطاحة بهم.

كما أن التنظيمات الإدارية ظلت تعاني من الخلل، إذ لم تسير الإدارة الإيقاع السريع الذي تمثلته الدولة المرابطية والمجال الإداري المتحضر الذي اقتحمته عندما ضمت الاندلس، لذلك عجز المرابطون عن خلق بنية إدارية متماسكة تسيطر على التناقض القائم بين الطبيعة البدوية وعناصر التطور^(٥)، ناهيك عن عدم تحمل الولاة مسؤولياتهم العسكرية والإدارية كاملة، مما خلق نوعاً من التناقض بين الحكم المركزي ومختلف الاتحادات القبلية.

(١) ابن عذاري: م.س. ج ٤، ص ٤٦ - ابن أبي ذرع: م.س. ص ١٢٧.

(٢) المراكشي: م.س. ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٣) عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس. القاهرة ١٩٦٤، ق ١، ص ٤١١.

(٤) ابن خلدون: م.س. ج ٦، ص ٢٤٧.

(٥) Cornevin: Histoire de l'Afrique des origines au 16^e siècle. T1. Paris, 1967, p.322.

يضاف إلى ذلك ترفع الجيل الثاني من الامراء المرابطين عن بداوتهم وميلهم إلى حياة الدعة والترف، وبسط أياديهم لحاشيتهم وجندهم المرتزق، وإنفاقهم الاموال الباهظة على بلاطاتهم، مما أدى إلى نقص خطير في بيت المال.

ومما زاد الوضعية المالية سوءاً، اشتداد شوكه نصارى الاندلس، الشيء الذي أجبر علي بن يوسف على مضاعفة النفقات العسكرية^(١). كما أن الخطر الموحي زاد الطين بلة، إذ اشتدت الحاجة إلى بناء الحصون والاسوار، وهي مشاريع مكلفة مادياً، وحسبنا أن علي بن تاشفين بنى سور مراكش لدرء خطر المهدي بن تومرت بنفقة بلغت سبعين ألفاً من الذهب^(٢). يضاف إلى ذلك الخسائر الجسيمة التي نجمت عن تدهور الزراعات بسبب الاعتداءات المتكررة للقوى النصرانية.

ولواجهة إفلاس بيت المال، اشتط علي بن يوسف في فرض مغارم غير شرعية، واستقدم الجبابة من إسبانيا لاستنزاف الرعايا، مما أدى إلى توقفهم عن الإنتاج^(٣).

كل هذه القرائن تبين كيف أن القاعدة المادية التي قامت عليها الدولة المرابطية قد انعدمت، وبالتالي تفسر التراجع الذي بدأ ينخرها.

وعلى كل حال، فإن الثورة الموحدية استغلت هذه الوضعية، فزادت من متاعب المرابطين. وعندما توفي علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م، كانت الدولة المرابطية تمر بطرفية عصبية. ولم يكن تاشفين بن علي الذي خلفه في مستوى الرجل الذي يعيد هبة الدولة، إذ تولى الحكم بعد أن كانت هذه الأخيرة قد آلت إلى الانهيار. وفي الوقت نفسه، كان الفونسو السابع يواجه ضرباته القاصمة للحاميات المرابطية في الاندلس. وقد حاول هذا الأمير سدئ التصدي للموحدين حيث لاحقهم في تلمسان، وهناك التحق به ابنه إبراهيم فجدد له العهد، ثم بعثه إلى مراكش للدفاع عنها. بيد أن قوات الموحدين بقيادة أبي حفص تمكنت من إلحاق هزيمة ماحقة بالجيش المرابطي، ففر الأمير تاشفين نلجأ بنفسه في جنح الليل نحو الاسطول المرابطي، غير أنه سقط من حافة عميقة لم يتنبه إليها وهو على ظهر فرسه، وقد أرداه هذا الحدث قتيلاً^(٤).

وبعد وفاة تاشفين بن علي سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م، بويغ ابنه إبراهيم وكان شاباً صغيراً، وبقي مدة ثم نقض بيعته عمه إسحاق بن علي، ونشب الصراع بينهما، ثم اندلعت الثورات في جل المدن الاندلسية. وفي تلك الاثناء، زحفت جحافل الموحدين على تلمسان وفاس ومكناس لتصل إلى مراكش سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وتضرب عليها حصاراً مريعاً انتهى باقتحام المدينة بسبب خيانة أحد قادة الجيش المسيحي الموالي للمرابطين، فدخلها الموحدون غلاباً، وقبضوا على أميرها أبي

(١) محمود علي مكي: «وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين»، ص ١٦٩. صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية. م ٧ - ٨ سنة ١٩٥٩ - ١٩٦٠.

(٢) ابن القطان: نظم الجملان، تطوان (د. ت) مطبعة المهدية. تحقيق محمود مكي ص ١٠٧ - مؤلف مجهول: الحلل، م.س. ص ٩٠.

(٣) النويري: نهلية الأرب في فنون الأدب. القاهرة ١٩٨٢. تحقيق حسين نصار، ج ٢٤، ص ٢٨٢.

(٤) ابن أبي ذؤعد: م.س. ص ١٨٨ - ١٩٠.

إسحاق إبراهيم بن تاشفين، وفتكوا به ويمن معه من اعيان دولته^(١)، وبذلك دق آخر مسمار في نعش الدولة المرابطية.

تلك هي الخطوط العريضة للتاريخ السياسي للدولة المرابطية، فما هي التجليات المجتمعية والذهنيات السائدة داخل نسيج هذه الدولة؟ ذلك ما نطمح إلى دراسته من خلال الفصول التالية.

(١) مؤلف مجهول: الحلل م.س. ص ١٢٩.

1. 2. 3. 4. 5. 6. 7. 8. 9. 10. 11. 12. 13. 14. 15. 16. 17. 18. 19. 20. 21. 22. 23. 24. 25. 26. 27. 28. 29. 30. 31. 32. 33. 34. 35. 36. 37. 38. 39. 40. 41. 42. 43. 44. 45. 46. 47. 48. 49. 50. 51. 52. 53. 54. 55. 56. 57. 58. 59. 60. 61. 62. 63. 64. 65. 66. 67. 68. 69. 70. 71. 72. 73. 74. 75. 76. 77. 78. 79. 80. 81. 82. 83. 84. 85. 86. 87. 88. 89. 90. 91. 92. 93. 94. 95. 96. 97. 98. 99. 100.

الفصل الأول

الحياة العائلية

لا زلنا نفتقر إلى دراسة عن الحياة العائلية في العصر المرابطي، مع أن المادة ضافية ومتناثرة في المصنفات الفقهية والتوازل، وكتب الجغرافيا والطبقات. ويكفي لم شتاتها لرسم المعالم الأساسية للموضوع.

ومن المسلمات البديهية، أن العائلة تعد صورة مصغرة للمجتمع، لذلك قامت - كجمل المؤسسات الأخرى - على نظام هرمي أساسه السلطة والنفوذ الذي يمثله رب الأسرة، باستثناء بعض القبائل الصنهاجية التي احتكرت فيها الزوجة السلطة المطلقة، بفضل مركزها الاقتصادي.

ومن نافلة القول كذلك، أن الحياة العائلية في العصر المرابطي لم تكن سوى إفراز للنظم السياسية والثقافية والاجتماعية المنبثقة من اقتصاد المغازي. فالقيم التي سادتها من سلطة وتبعية وعدم تكافؤ بين المرأة والرجل، وما ترتب عن ذلك من علاقات استغلالية، لم تكن إلا انعكاساً لمجتمع قام على مبدأ التفاوت في الثروات والنفوذ والجاه، وثقافة متزمتة كرسها الفقهاء المستفيدون من الوضع القائم. فإلى أي حد تصدق هذه الأحكام؟ وما هي بنية الأسرة في العصر المرابطي؟ وكيف كانت طبيعة الحياة الزوجية ووضع المرأة داخلها؟ وما هي الطرق التربوية المتبعة لتنشئة الطفل، والمشاكل التي عرفتتها الحياة العائلية عموماً؟

أولاً: تكوين الأسرة: الزواج، المهر، بيت الزوجية

يشكل الزواج أول لبنة لبناء الأسرة. ويفهم من أمثال العامة أن تكاليفه كانت باهظة^(١) حتى أنها أدت أحياناً إلى الإملاق، بسبب إسراف النساء في مطالبهن^(٢). عبّر عن ذلك ابن قزمان^(٣)، ووصف ما لقيه من متاعب جعلته يعاهد نفسه ألا يتزوج ثانية. ولعل هذا ما يفسر ظاهرة العزوف عن الزواج. فتراجم الحقبة المرابطية تكشف عن عدد من الرجال الذين فضلوا حياة العزوبة، لكن علة

(١) قالوا: «زوجوه، حوَّجوه». انظر: الزجالي، ري الأوام، ج ٢، ص ٢٤٢. مثل رقم ١٠٣٥.

(٢) من كثرة مطالب النساء يقول مظهر: «مطيني والاخليني» (مثل رقم ٨١٦) وقالوا كذلك على لسان المرأة: «مع كسك وغبل كذاك» (مثل رقم ٥٨٩)، ويقال في مطالب النساء وعدم رفقهن بالأزواج وقلة مراعاتهن لأحوالهم. انظر المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(٣) انظر ديوانه، ص ١٨، قص ١٨.

ذلك لم ترتبط دائماً بثقل النفقات^(١)، فثمة من أحجموا عن الزواج رغم يسارهم وثروتهم^(٢). وهناك من عزف عنه بسبب تفرغه لطلب العلم والدراسة^(٣)، أو زهداً وخشية من عدم معاشرة الزوجة بالمعروف^(٤)، أو تملصاً مما يفرضه الزواج من واجبات ومسؤوليات. ويقدم ابن قزمان^(٥) نموذجاً حياً لهذه الحالة الأخيرة، إذ ذكر في أحد أزجاله أنه تزوج للمرة الأولى، لكنه ضاق ذرعاً بالمرأة والمسؤوليات الزوجية.

ومع ذلك اعتبر الزواج أمراً لا مفر منه^(٦)، وبوسيلة لإنجاب الأبناء وتعزيز الروابط بين أفراد الأسرة والحفاظ على إرثها. ونظر المجتمع إلى كل من تخلى عنه نظرة الارتياح والشك في سلوكه الاجتماعي^(٧). ولذلك نجد في النوازل أن بعض الرجال تزوجوا أربع نسوة^(٨). بل إن داعية المرابطين عبد الله بن ياسين كان متكاحاً للنساء، يتزوج في الشهر عدداً منهن ثم يطلقهن^(٩). وانعكست هذه الظاهرة في كتب الفقه حيث خصص أحد فقهاء المرابطين^(١٠) باباً بأكمله لذكر أحكام تعدد الزوجات.

لكن ذلك لم يحل دون استفحال أزمة الزواج داخل المجتمع. ويخيل إلينا أن النساء كن أكثر عدداً من الرجال بسبب الحروب المستمرة التي خاضتها الدولة المرابطية مخلفة عدداً من الأرمامل^(١١). كما أن تجارة الجواري أسفرت عن اكتظاظ الأسواق بهن، فعز الأزواج وكثرت العوانس^(١٢). وفي هذا الصدد ذكر الطليبي^(١٣) أن عدداً من نساء جنوب المغرب اللاتي بلغن سن

(١) انظر: عياض: المدارك ج ٨ ص ١٩٥ - ابن الأبار: التكملة ج ١ ص ١٤٣، ١٥٧ ثم ج ٢ ص ٥٢٠، ٦٨٧، ٩٣٦ - ابن عبد الملك: النبل والتكملة ج ٥ ق ٢ ص ٦٤٩ - ابن الزيات: التشوف ص: ١٠٩، ١٣٦، ١٦١، ٢٢٢، ٢٥٥، ٣٠٣، ٣٤٢. وانظر كذلك ابن قزمان: ديوان ابن قزمان، طبعة مدريد ١٩٨٠. تحقيق كورنيطي.

(٢) ابن قزمان: ديوان ابن قزمان، طبعة مدريد ١٩٨٠. تحقيق كورنيطي. ص ٢١ ق ٢١.

(٣) ابن الأبار: م ج ٢ ص ٩٣٦ [ترجمة عبد الله بن عيشون الماغري (ت ٥٧٣ هـ)].

(٤) مؤلف مجهول: مغلط الحبر ص ٧٠ [ترجمة أبو موسى عيسى بن سلمان الأفرقي].

(٥) ابن الزيات: م ج ١ ص ١٦١ [ترجمة أبو الطيب ومحمد].

(٦) انظر ديوانه ص ٢١ ق ٢١ التي يقول فيها:

صرت عازب وكان لعمري صواب
أنا تائب يا لس تقول بزواج
إس تزوج حتى يشيب الغراب
ولا حلو ولا عروس يحتاج

انظر كذلك: الأمازيغي: الزجل في الأندلس، ص ٧٦.

(٧) قالت أمثال العامة: «الزواج والموت هم لا يفوت، انظر: زمارة، الأمثال المغربية»، مجلة البنية ع ٦، ١٩٦٢ ص ١١٣، ١١٤.

(٨) قالت العامة: «عازب ومتفق، ثلثي قديم يفتي فيه، انظر الزجالي: م ج ١ ص ٢٤٣.

(٩) ابن رشد (الفقيه): نوازل ابن رشد، ص ٧٥.

(١٠) ابن عذاري: البيان ج ٤ ص ١٦ - ابن أبي زرع: الأنييس المطرب ص ١٢٢ - البكري: المغرب في ذكر بلاد الريفية والمغرب ص ١٦٦ - الناصري: الاستقصاء ج ٢ ص ١٩.

(١١) ابن زكوي: اعتماد الحكام في مسائل الأحكام (مخطوط) ص ٥٧.

(١٢) مما يؤكد ذلك قول ابن قزمان وهو يصف منزلاً يطل على ريف:

والريفي لا شيوخ ولا حجاج
وأرامل ملاح بلا أزواج

انظر: م ج ص ٥٦٢، ق ٨٧.

(١٣) السيوطي: نزهة الجلساء من اشعار النساء ص ٨٧ ترجمة ٣٠ وكذلك ص ١٠٤ ترجمة ولادة بنت المستكفي.

(١٤) كتاب خريدة العجائب (مخطوط) ورقة ١١٦.

الأربعين دون أن يجدن بعلًا، كن يقدمن أنفسهن لمن شاعهن من الرجال عن طواعية ورغبة. وقد يحالف الحظ بعضهن في كسب زوج بعد تقدمهن في الغمر. وحسبنا أن أم المهدي بن تومرت لم تتزوج إلا بعد أن «اعنست»^(١). وفي السياق نفسه تذكر إحدى الروايات أن امرأة تقدمت إلى الشيخ الصالح أبي العباس السبتي ملتزمة منه الدعاء لتزويج بناتها الأربع، شاكية له «أن الناس لا يتزوجون إلا من له مال»^(٢). لذلك نصحت الأمثال الشعبية الآباء بقبول كل من يتقدم لخطبة بناتهم دون تردد^(٣).

وتزخر كتب النوازل وغيرها بمادة طيبة عن الزواج منذ مراحلها الأولى التي تبدأ عادة بالخطبة، حيث تتولى إحدى الخاطبات الاتصال بين الرجل والمرأة، مبينة صفات كل منهما، وأحياناً يقوم أحد الأصدقاء بهذا الدور^(٤). واعتبرت الجمعة يوماً مفضلاً لهذه المناسبة^(٥). وإذا لم يكن للبنت ولي، يتوجه إليها شاهدان ويعرضان عليها أمر الخطبة والمهر، فإن سكتت، عد ذلك رضى وقبولاً من جانبها فتتم الخطوبة^(٦).

وعلى العموم، نادراً ما رفضت المرأة من تقدم لخطبتها إلا إذا لم يستهوها الرجل لسبب من الأسباب. بهذا الخصوص ذكر ابن الأبار^(٧) أن الشاعرة نزهون بنت القليعي رفضت رجلاً قبيح الوجه جاء يطلب يدها... كما أن إكراه البنت على الزواج أدى أحياناً إلى امتناعها. فقد أورد البرزلي نقلاً عن ابن الحاج نازلة «في رجل له جاه وقدره، خطب ابنة رجل فأعطاها له بعد أباية، ودخل بها الزوج، وفعل ما أدى إلى عقوب الابنة لأبيها»^(٨).

كل ما اشترطته المرأة في الرجل ضرورة توفره على صنعة يضمن بها رزق العائلة. فعندما بعث فخر الدولة بن المعتمد بن عباد أحد الوزراء ليخطب له امرأة من إشبيلية، أقسم لها أبوها بالإيمان المخلطة أنه لن يزوجه «إلا لمن له صناعة يستر حاله وحالها بها»^(٩).

أما المواصفات المرغوبة في المرأة حسبما نستشف من نصوص الفترة موضع الدراسة، فقد اختلفت حسب المستوى الثقافي للناس. فالحضرمي^(١٠) قاضي المرابطين في الصحراء نصح في عملية اختيار الزوجة توفرها على ثلاث خصال: طيب الأصل وحسن الخلق وكمال الدين، لذلك فضل البعض

(١) ابن القطان: نظم الجمان ص ٢٧، وقد اعتبر ابن سلمون سن التأسيس هو ٣٥ سنة. انظر: العقد المنظم للحكام ورقة ١٣١.

(٢) ابن المؤقت: تعطير الأنفاس، ص ٣٨ - ٤٠.

(٣) قالت أمثال العامة: «من خطبك أزواج.. انظر الامواني: م.س. ص ٢٦٦ وقالت كذلك: «إذا قالت البنت دد، فكر لها في مخد». وإن رفعت الفدح لفمها، تحتاج ما تحتاج أمهات مثل رقم ٢٧، انظر الزجاجي: م.س. ج ١، ص ٢٤٣.

(٤) البلري: العطاء الجزيل (مخطوط) ص ١١٢ - ابن بسم: الذخيرة ق ٢ م ١، ص ٣٤٥.

(٥) مؤلف مجهول: كتاب في الفقه، ص ٤٧.

(٦) ابن الحاج: نوازل ابن الحاج، ص ٦٢.

(٧) المقتضب من تحفة القادم، ص ٢١٦.

(٨) جامع الأحكام في نوازل الحكام ص ١٠٩، وانظر نازلة تماثلها عند ابن الحاج: م.س. ص ٦٤، ٦٥.

(٩) النويري: نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٤٦٤.

(١٠) كتاب الإشارة في تدبير الإمارة ص ٦٨.

مصاهرة البيوتات الطيبة المنبت^(١)، الأصلية المحتد، بينما تنافس البعض في الزواج بالمرأة العالة النبيهة الذكية^(٢). في حين فضل العوام المرأة الجميلة البديئة الشقراء^(٣)، ونفروا من القصيرة القامة^(٤). ورغم أن ابن قزمان^(٥) حذر من الانخداع بجمال الفتاة والانسحاق وراء المظاهر الخداعة، فقد ظل الجمال يسيل لعاب الرجال ويجذبهم، ولا غرو فإن عبد الله بن ياسين كان لا يسمع بامرأة جميلة إلا خطبها^(٦).

وهناك بعض العادات التي سادت في منطقة دون أخرى. ففي الوسط المصمودي عد نكاح السودانيات مجلبة للذل والعار^(٧). وثمة من الأندلسيين من دفعته ظروف الغربة إلى الزواج بنساء مصريات^(٨) أو إصبيانيات^(٩) وهناك من طوحت به الأقدار، فتزوج موسمة. في هذا الصدد ذكر ابن سعيد^(١٠) في ترجمة أبي القاسم أحمد أنه تزوج عامرة ترقص في الأعراس.

ورغم المواصفات الآتفة الذكر، فمعظم نصوص الفترة تثبت أن البكارة ظلت أهم شرط يشترطه الرجل في المرأة التي يعتزم نكاحها. نجد مصداقاً لهذا الظن كثرة التوازل التي وردت بشأنها لدى فقهاء الحقبة المرابطية^(١١). وتشير بعض كتب الوثائق إلى عادة قيام امرأتين تدعيان القابلتين باختبار أحوال الفتاة، فإذا وجدتاها بكرأ تسلمان لها شهادة تثبت ذلك^(١٢). ويعد فقد الفتاة بكارتها سبباً في جلب الذل والعار لأسرتها. لذلك سعت بعض العائلات إلى كتابة عقود لبناتهن اللاتي فقدتهن بسبب خارج عن إرادتهن، كالوثبة أو الحيض أو السقوط من درج أو سلم، دفعاً للشبهة والعار حتى يشيع ذلك ويفشو عند الجيران ويدفع بذلك عار الناس الذي نزل بهاء^(١٣). وفي ليلة العرس ينتظر المدعوون دليل بكارة المرأة وإذا اتفق أن العروس لم تكن بكرأ ردها الزوج إلى أبيها وأماها، وفي ذلك عار كبير عليهما^(١٤) لذلك حرصت البنات على الحفاظ على بكارتهم أشد الحرص^(١٥)، وإن لم تسلم بعضهم

- (١) ابن عبد الملك: م.س. ج ٨ ص ٦١ - ٣٩٥.
- (٢) ابن الزبير: صلة الصلة. قسم الغرياء: تحقيق بروفسال، ص ١٣١.
- (٣) الزجاجي: م.س. ج ٢ ص ٢٤ وقد أورد مثلاً للعامة يدل على رغبة الرجال في الزواج بالمرأة البديئة. ويقول هذا المثل: «الشحم زين ومن فقتت حزين» مثل رقم ١٢١. وعن رغبة العوام في المرأة الشقراء، يقول مثلهم «أي هو الشمس، ثم افتنش، انظر: م.س. ج ٧ ص ١٧٥».
- (٤) قالت العالمة: «أي هي زكيتها» ثم هي ثقيتها، كناية عن القصر البالغ، مثل رقم ١٢٢ نفسه ص ٣٤.
- (٥) انظر: ديوانه ص ١٨ قص ١٨ ويقول فيها:
- اش ذا التعمى يا من ماع عينين ايك تغري الغلظ والزوين
- (٦) البكري: م.س. ص ١٦٦ - ابن عذاري: م.س. ص ١٦ - ابن أبي زرع: م.س. ص ١٢٢.
- (٧) ابن الزيات: م.س. ص ٢٢٨ - الصومعي: المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى (مخ) ورقة ١٦٦.
- (٨) مثل أبي بكر الطرطوشي: انظر: الشبال: اعلام الإسكندرية. طبعة مصر، دار المعارف ١٩٦٥، ص ٧١.
- (٩) المقرئ: نفع الطبيب ج ٢، ص ٦٣٢.
- (١٠) المغرب في حلى المغرب ج ١، ص ٢٨٤.
- (١١) انظر: ابن الحاج: م.س. ص ٧٢ - ابن رشد: م.س. ص ٦٧، ٦٨، وانظر ما ذكره الغزالي عن فوائد البكارة: أحياء علوم الدين بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠، ج ٤، ص ١٣٢.
- (١٢) مؤلف مجهول: التقييد الإبي (مخ) ورقة ١٩٧.
- (١٣) الجزيري: المقصد المحمود... (مخ) ص ٢٠ - ٢١.
- (١٤) الوزان: وصف الفرياق ج ١، ص ١٩٩ - ٢٠٠.
- (١٥) قالت العالمة على لسان الفتاة: «بس وأقرص، وخل مويضع العروس» مثل رقم ٥٨٢. الزجاجي: م.س. ج ٢، ص ١٣٢.

من عيب الصنف^(١). من عيب الصنف^(١).

غير أن بعض الرجال لم يجدوا أي حرج في الزواج بالمرأة الشيب طمعاً في مالها أو مكانتها الاجتماعية. فيوسف بن تاشفين تزوج بزينب النفزاوية بعد أن كانت قد نكحت قبله ثلاثة أزواج^(٢). كما أن أحد المرابطين في إشبيلية تزوج بالحرّة حواء بنت تاشفين بعد وفاة زوجها الأول^(٣).

ونظراً لاضمحلال شعر الغزل في العصر المرابطي، لا نعرف ما إذا كان الزواج يتم عن طريق الحب. وحتى إن افترضنا ذلك، فقد ظل في معظم الحالات مكتوماً بسبب القيود الاجتماعية. ولم تستطع المرأة أن تجهر بحبها أو تتصرف بمقتضاه خوفاً من أعين الرقباء، خاصة في البوادي والمدن المغربية.

والظاهرة الملفتة للانتباه، أن الزواج جرى أحياناً في إطار القربى العائلية. فنكاح بنت العم كان ظاهرة مألوفة عزاها غيشار^(٤) إلى التأثير العربي في بلاد المغرب والأندلس. لكن لا يجب في اعتقادنا المتواضع تعميم هذا الحكم. فإذا استثنينا الإطار القبلي، وجدنا أن الظاهرة اقتصرّت على طبقة الخاصة وهدفت - فيما يخيّل إلينا - إلى الحفاظ على الميراث العائلي. فأم يوسف بن تاشفين - كما تدل على ذلك النصوص - تزوجت من ابن عمها^(٥) ويخبرنا الأمير عبد الله^(٦) أنه كان عازماً قبل نفيه إلى المغرب على تزويج بنته من بني عمهما. كما أن أخت علي بن يوسف تزوجت ابن عمها^(٧). وبالمثل تزوج والي مدينة فاس ابن الصحراوية «بامراة من قومه»^(٨)، مما يعكس سيادة الزواج الداخلي.

ومن التساؤلات التي تتبادر إلى ذهن أي باحث في قضايا الزواج والأسرة خلال الحقبة المرابطية هو: هل كان للمرأة حق اختيار زوجها؟

تشير أغلب النصوص إلى أن الأب أو الولي كان له اليد الطولى في تزويج ابنته دون أدنى استشارة^(٩). فيوسف بن تاشفين زوج علي المسوي «بامراة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها»^(١٠). كما أن علي بن يوسف عقد على أخته لأحد أبناء عمه^(١١) وعلى إثر سقوط إشبيلية في يد المرابطين، سببت إحدى بنات المعتمد بن عباد، فاشترها أحد التجار، ثم وهبها لابنه، فلما أراد هذا الأخير الدخول بها خاطبته بقوله: «لا أحل لك إلا بعقد زواج شرعي إن رضي أبي بذلك»^(١٢) ولم

(١) مؤلف مجهول: التقييد الأبوي، ص ٩٢.

(٢) ابن خلدون: كتاب العبر... ج ٦ ص ٢٤٤ - العسكري الجزائري: الخبر المغربي.. (مخ) ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) ابن رشد: م.س. ص ٥٢ - الرنثريسي - المعيار المغرب ج ٢، ص ٦٥.

(٤) Guichard, P. Structures «orientales» et «occidentales» dans l'espagne musulmane, p. 74. (٤)

(٥) ابن أبي زرع: م.س. ص ١٢٦.

(٦) كتاب التيجان، ص ١٢٩ - ١٤٠.

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١، ص ٤١٢.

(٨) ابن الأبار: الحلة السراء ج ٢، ص ٢٢٦.

(٩) انظر ابن الأبار: التكملة ج ١، ص ٢٧. ترجمة أحمد بن محمد بن خلف الأنصاري (ت ٥٠٥ هـ).

(١٠) ابن خلدون: كتاب العبر... ج ٦، ص ٢٥٢.

(١١) ابن الخطيب: م.س. ص ٤١٢.

(١٢) ادهم: المعتمد بن عباد - القاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر (دت) سلسلة اعلام =

تزوجها إلا بعد موافقة المعتمد بن عباد وهو في منفاه بأغمات. وتشير بعض النوازل إلى رجل غاب عن زوجته، فزوجه والدها برجل آخر دون علمها، رغمًا عن عودة الزوج الأول^(١). كما أن امرأة أخرى رج بها في السجن لأنها تزوجت بغير إذن وليها^(٢). فالزواج بالنسبة للمرأة اعتبر شأنًا عائلياً أكثر منه شأنًا فردياً. فأنسرتها ووالدها على الخصوص، هو الذي كان يتكلف بترتيب أمور زواجها في ضوء مصالحه الخاصة.

بيد أننا لا نعدم من الشواهد ما يثبت أن المرأة في بعض العائلات الوجيية كان لها رأيها في اختيار شريك حياتها. فليلي معتقة الوزير أبي بكر بن خطاب (ت ٥٢٨ هـ) تعرض لخطبتها جماعة لم تجبهم^(٣) كما أن زينب النفراوية لم تستجب لكثير من الأشياخ والامراء، واشترطت أن يكون زوجها ممن يقدر على حكم المغرب برمته^(٤).

وثمة ظاهرة ملفتة للانتباه، وهي أن بعض الآباء عقدوا لبناتهم على الزواج قبل بلوغهن. فقد ورد عند ابن الحاج^(٥) مسألة «في رجل كاتب، له ابنة من ثمانية أعوام، فخطبت إليه، فأبى عن زواجها لصغرهما، ثم إنه حشم فيها، وهون عليه الأمر فزوجه» على أن يدخل بها الزوج إلى اقتضاء أربعة أعوام. والحالة نفسها حدثت في مدينة بلنسية^(٦) غير أن هذا الزواج المبكر، أثار بعض المشاكل بسبب إرغام الفتاة أحياناً على الاقتران برجل يكبرها سنًا، ولا تحمل له أي شحنة عاطفية، وهو ما أدى أحياناً إلى هروبها^(٧)، أو اغتصابها لنفسها^(٨) :

أما بالنسبة لزواج العبيد، فإنه كان رهيناً بسلطة السيد على عبيده - ذكراً وإناً - وكان هو المرجع الأول في تقرير مصير زواجهم حيث أجبرهم أحياناً على قبول الزوج الذي أمله عليه إرادته^(٩). لكن المثير للانتباه هو أن المجتمع اعتبر زواج المرأة الحرة بالعبد مهانة وذلاً فمثل هذا الزواج كان «يمنع على كل حال لأن في ذلك نقصاً ومعة»^(١٠) .

كان عقد النكاح يتم في بعض المناطق كسجلماسة بالمسجد^(١١) واستحدثت لهذا الغرض خطة

= العرب. ص ٢٠٩ - ٣١٠ - عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مصر: شركة فن الطباعة (د ت) ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥.

- (١) ابن رشد: م.س. ص ٦٢.
- (٢) ابن الحاج: م.س. ص ٦٦ - ٦٧.
- (٣) ابن الزبير: م.س. ص ٥٦٦.
- (٤) ابن عذاري: م.س. ص ١٨.
- (٥) نوازل ابن الحاج، ص ٧٦.
- (٦) المصدر نفسه، ص ٦١.
- (٧) ابن رشد: م.س. ص ٥٦.
- (٨) ابن الحاج: م.س. ص ٧٣، والمقصود «باغتصابها لنفسها» أن الفتاة كانت تزيل بكراتها بطرقها الخاصة حتى يرفضها الزوج المفروض عليها والذي لا ترغب في الزواج به.
- (٩) ابن سلمون م.س. ورقة ٢٦ ب.
- (١٠) الأزدي: مفيد الحكم في نوازل الأحكام. (مخ) ص ١٣٨.
- (١١) ابن الزيات: م.س. ص ٩٨.

المتاكد لتزويج المرأة التي غاب عنها وليها^(١)، أو لمن لا ولي لها^(٢)، واشترط ابن عبدون^(٣) ألا تسند هذه الخطة إلا لرجل فقيه ورع. وقد تولاهما في قرطبة زيدون بن محمد المخزومي^(٤).

أما في القرى، فإن إمام المسجد هو الذي تولى غالباً عقد القران. وإذا ما تعذر فإن أهل العروسين يستدعيان أحد العدول من النواحي القريبة، وفي حالة ما إذا كانت القرية نائية، يكتفي بأهل القرية أو بخمسة اشخاص من أهل المرأة للشهادة على صحة الزواج^(٥).

ومن الشروط التي وضعتها النساء في عقد النكاح، ألا يتزوج عنهن بعولتهن ولا يتسرون^(٦)، مما يدل على شيوع ظاهرة التسري في الوسط الأرستقراطي على الخصوص. بل إن بعض النساء ضيقن الخناق على أزواجهن حتى أن إحداهن فرضت على زوجها الالتزام في «كتاب صداقها» مع أن الداخلة عليها بنكاح طالق^(٧). كما اشترطت أخرى على زوجها أن لا يضربها، ولا تمتد يده إلى مالها إلا بإذنها ورضاها^(٨).

وينص في عقد النكاح كذلك على النحلة التي ينحلقها أهل الزوجة أو الزوج^(٩). فقد بلغت نحلة إحدى الزوجات خمسين مثقالاً^(١٠). وقد تكون النحلة داراً يهبها الأب لابنته^(١١)، أو قطعة أرض يمنحها لصهره لإقامة منزل فيها^(١٢). وتتسع أحياناً لتشمل أملاكاً واسعة^(١٣).

وتزخر كتب الوثائق الأندلسية بصيغ عقود الزواج التي كان يذكر فيها اسم الزوج والزوجة، ومقدار الصداق والنحلة ويتعهد فيها الطرفان بالإحسان وحسن الصحبة وجميل العشرة والتزام الزوج بعدم النكاح ثانية، أو التسري أو الغيبة الطويلة التي تتجاوز ستة شهور، ما عدا إذا تعلق الأمر بالحج، بالإضافة إلى عدم حرمان الزوجة من زيارة أهلها وذوي محارمها من الرجال، وعدم الانتقال بها من موضع إلى آخر دون رضاها^(١٤).

ومع ما تضمنته عقود النكاح من شروط والتزامات، فإن ذلك لم يكن كافياً لتفادي بعض المشاكل. فقد أشار ابن سهل^(١٥) إلى مسألة «المرأة التي ادعى نكاحها رجلان، كل واحد منهم يزعم

(١) مؤلف مجهول: كتاب في الفقه، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) ابن الحاج: م.س. ص ٦٠.

(٣) رسالة في الحسبة، ص ١٣.

(٤) ابن الأبار: الحكمة، ج ١ ص ٣٣٥.

(٥) الونشريسي: م.س. ج ٣ ص ٢٧٠ ثم ج ٩ ص ١٨٠ - ١٨١ - دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين: عصر الطوائف الثاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨، ص ٣٠٢.

(٦) ابن الحاج: م.س. ص ٨٤ - ٨٥.

(٧) ابن رشد: م.س. ص ٧٥، ٧٧.

(٨) محمد بن عياض: مذاهب الحكماء (مخ) ورقة ١٦٧.

(٩) ابن الحاج: م.س. ص ٤ - الجزيري: م.س. ص ٦ - ٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(١١) ابن رشد: م.س. ص ٦، ٧، ٣١٠.

(١٢) محمد بن عياض: م.س. ورقة ١٥٥.

(١٣) الزياتي: الجواهر المختارة... (مخ) ص ١٢٧.

(١٤) الجزيري: م.س. ص ٣١٢.

(١٥) نوازل ابن سهل، ص ٨٠.

اما بخصوص المهر، فقد اختلفت قيمته حسب الوسط الاجتماعي واختلاف البيئات. ففي المناطق الصحراوية التي كانت موطن صنهاجة اللثام، كان عبد الله بن ياسين لا يسمع بامرأة جميلة إلا خطبها، ولا يجاوز في مهرها أربعة مثاقيل^(١). من خلال هذا النص نستنتج أن المهر في القبائل الصحراوية لم يكن مكلفاً. وورد في رواية أخرى أن رجلاً أعطى مهرأ لامرأة مقدار مائة دينار^(٢). وحسب ما تذكره إحدى النوازل، بلغ مهر إحدى النساء ٦٠ مثقالاً، فضلاً عن الثياب والجوهر^(٣). وهو مقدار باهظ دون شك إذ أنه يفوق ١٥ مرة ما دفعه عبد الله بن ياسين، وهو ما يجعلنا نستشف أن المهر في الأندلس كان أغلى قيمة مما ساد في المغرب الأقصى. وقد تم ادأؤه أحياناً عيناً. أما إذا دفع نقداً فلا يكتب في عقد الصداق بحساب الدينار المرابطي، بل حسب صرف كل مدينة^(٤). واعتبر الحد الأدنى في المهر ربع دينار ذهباً أو ثلاثة دراهم فضة^(٥). ومن عجز عن أدائه دفعة واحدة، أدى تسطاً، وأجل القسط الآخر^(٦). وبهذا الخصوص جاء في بعض الروايات أن أحد متصوفة الأندلس لم يؤد مهره المؤجل كاملاً لزوجته إلا عندما شعر بقرب ساعة موته^(٧).

ومن الأكد أن قيمة المهر ارتفعت حسب موقع العائلات في الهرم الاجتماعي. فكتب النوازل التي تحدثت بإسهاب عما كان يسوقه الرجل لزوجته في عقد الصداق تثبت أن السياقة شملت أحياناً قرية بأكملها^(٨)، وأحياناً أخرى نصف ما يملكه الرجل^(٩). وساق أحدهم مالاً وداراً^(١٠)، بينما شملت سياقة رجل آخر لزوجته نصف قطعة أرضية محدودة، واتفق معها على بنائها بنياناً يكون بينهما مناصفة^(١١).

واقترضت العادة والأعراف في بعض المدن الأندلسية كمدينة شلب أن يشور الأب ابنته شواراً يوازي أو يفوق ما ساقه إليها بعلها^(١٢)، وخصص هذا الشوار لتأثيث البيت، لكنه أثار أحياناً نزاعاً بين الزوج وأبي الزوجة بسبب ادعاء الأخير أن شواره لبنته لم يكن على سبيل الإعارة^(١٣).

وجرت العادة كذلك، أن يجهز الأب أو الأم ابنتهما. فقد جاء في إحدى الروايات أن أحد أصدقاء الطبيب أبي بكر بن زهر اعترأه هم وحزن بسبب احتياجه إلى ثلاثمائة دينار لتجهيز

(١) البكري: م.س. ص ١٦٩ - ابن عذاري: م.س. ص ١٦ - ابن أبي زرع: م.س. ص ١٢٢.

(٢) مؤلف مجهول: أخبار أبي العباس السبتي (مخ) ورقة ٢٠٢ ب.

(٣) محمد بن عياض: م.س. ورقة ٢٩ ب - ابن رشد: م.س. ص ٢١٢.

(٤) مؤلف مجهول: كتاب في الفقه، ص ٦٢. ويقول بهذا الخصوص: «مسألة ابن الحاج إذا كتب في الصداق أو في عقود الأشرية كذا وكذا ديناراً مرابطية طيبة فالعقد فاسد حتى يقول من صرف مدينة كذا...».

(٥) ابن سهل: م.س. ص ٧٥ - ابن سلمون: م.س. ورقة ١٨.

(٦) انظر نماذج لذلك عند: ابن رشد: م.س. ص ٦٢ - محمد بن عياض: م.س. ورقة ١٦٨.

(٧) السلفي: أخبار وتراجم أندلسية، ص ١٩ - ٢٠.

(٨) ابن الحاج: م.س. ص ٤.

(٩) المصدر نفسه، ص ٦ - ابن رشد: م.س. ص ٢١٩.

(١٠) ابن رشد: م.س. ص ١٥٩.

(١١) المصدر نفسه، ص ٥٩ - مؤلف مجهول: كتاب في الفقه، ص ٥١.

(١٢) ابن رشد: م.س. تحقيق الحبيب التوجكاني (نسخة مرقونة على الآلة) ج ٥، ص ٨٩٧.

(١٣) ابن سهل: م.س. ص ١٠٨، ١٠٩ - ابن رشد: م.س. ص ٦٢.

أبنته^(١). واضطرت بعض الأمهات إلى بيع ما يملكن لتجهيز بناتهن^(٢). بينما جهّزهن بعض الآباء بالمهر الذي حصلوا عليه من الزوج^(٣). ونذكر من جملة الثياب التي جهّزت بها بعض النسوة الففارة والمحرّزة والثياب الرازي^(٤). أما جهاز العروس في البادية أو القرية فتميز ببساطته، إذ لم يتعد غالباً فراشاً ولحافاً وبعض الملابس والحلي^(٥). بينما لم تجد الأمهات الفقيرات ما يجهّزن به بناتهن، لذلك تطوع بعض المحسنين لتجهيز الضعيفات إلى أزواجهن^(٦).

وبعد اختيار الزوجة إتمام عقد القران وترتيب أمور الشوار والنحلة، تبدأ الترتيبات لإقامة وليمة العرس. والنصوص لا تدع مجالاً للشك فيما تتطلبه هذه الوليمة من نفقات باهظة^(٧) حتى أن القاضي أبا بكر بن العربي^(٨) اعتبر ذلك من المنكرات. ويستشف من خلال ما ورد في ترجمة القاضي عياض أن اليوم الأول كان يخص لذبح الخرفان والشيء، بينما يكون اليوم الثاني خاصاً باستدعاء الضيوف وإطعامهم^(٩). وفي الليل يقام حفل الزفاف^(١٠) حيث توقد الشموع والثريات والقناديل^(١١) ويستدعى المغنون. وقد ذكر ابن الزيات^(١٢) كثيراً من الزهاد والأولياء الذين احترقوا الغناء في الأعراس قبل دخولهم عالم التصوف. كما أشارت أمثال العامة إلى عازف آلة «الزامر» الذي يكثر عليه الطلب في هذه المناسبة^(١٣) إلى جانب الرقصات اللائي يرقصن حاسرات الرأس، كاشفات عن شعورهن^(١٤) والحواة الذين يقومون بالعابهم إدخالاً للسور على المدعوين^(١٥) وتسمع الطبول

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣ م ١ ص ١١١.

(٢) ابن الحاج: م.س. ص ٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها. الففارة خرقة تلبسها المرأة لتغطية الرأس. والمحرّزة من الثياب التي كانت تجهّز بها العروس. والثياب الرازي (ويقال أيضاً الرويزي) هو ثوب أخضر من الثياب النفيسة.

(٥) دندش: م.س. ص ٣٠٢.

(٦) ابن عبد الملك: م.س. ج ٨، ق ١، ص ٢٦٦.

(٧) عبرت العامة عن ذلك في هذا المثل: «ما أطيب العرس لولا النفاق» انظر: الزجالي: م.س. ج ١، ص ٢٤٢.

(٨) يقول في سراج المريدين ورقة ٧٥ وهو يتحدث عن البدع والمنكرات التي حدثت في أواخر العصر المرابطي: «وقد عظم الخطب في هذا الزمان حتى لا يدري العبد على أي شيء يبكي، أعلى فوات دنياه... أم على عروسة التي تطالب بما ليس به طائفة» انظر دندش: م.س. ص ٥٠ هامش ٤.

(٩) ابن عسكر: فقهاء مالقة، (مخ) ص ١٧٩. وذكر ابن بسام في ترجمة أبي عبد الله بن السراج المالقي أن أحد خدمته أعرس فرغب إليه في أن يحضر العرس فكتب إليه:

يا صديقاً وداده ما يريم
وخليلاً إخاؤه لي يدوم
جامني راغباً لأحضر عرساً
من له عندنا ذلم قديم
وهو عرس لا تأتاه خساري البطن
فإن الفداء فيه نسيم

انظر النخبة ق ٢، م ١، ص ٨٧٥.

(١٠) ورد في إحدى نوازل ابن الحاج ما يلي: «مسألة في رجل زوج ابنته ولد رجل. وكانت سيرة البلد إذا أتى الزوج إلى البناء بالزوجة قصد الزوج بجماعة من الأحداث والنساء والغناء في الليل على وجه التحليقة المتعارفة بينهم» انظر ن.م. ص ٣٠٢.

(١١) البرزلي: م.س. ص ١١ - ١٢.

(١٢) انظر القشوف، ص ٣٦١، ٣٦٥.

(١٣) قالت العامة: «مدلت زامر في كبة عروس» مثل رقم ٩٣٨. انظر الزجالي: م.س. ج ١، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(١٤) ابن عبيدون: م.س. ص ٥١.

(١٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

والزغاريد^(١)، ويكثر الهرج والصخب في ليلة الزفاف بسبب السكران الذين يقدون على بيت الوليمة. لذلك نصح ابن عبدون^(٢) بأن يؤخذ منهم سلاحهم ويكفون ويحملون إلى صاحب المدينة لسجنهم. وقد كان على صواب لأن نازلة كشفت عن خصام شجر بين طائفة صحبت العريس وجيران العروسة في ليلة عرس أسفر عن نشوب قتال بينهم^(٣).

أما النساء المدعوات، فكن يرغبن إلى أزواجهن في شراء كسوة خاصة لهذه الوليمة^(٤). وإذا لم تكن لديهن حلي، يستعرنها من بعض صديقاتهن^(٥). وكان لا بد من تقديم هدية للعروسة. ففي ترجمة أبي الفضل النحوي ذكر ابن الزيات^(٦) أن ابنة عمه تزوجت، فاشتري لها سلكاً من الذهب «على عادة الناس في إتحاف العروس».

وجرت العادة أن تحف بها النساء الجميلات وهي جالسة على كرسي، حتى لا يمكن التمييز أحياناً بينها وبين المدعوات^(٧) لولا التاج الذي تضعه على رأسها^(٨). ولابن قزمان وصف رائع عن مظاهر الاحتفال بالعرس وما تتخذ النسوة من مظاهر الزينة في هذه المناسبة إذ يقول: «وقد زينت العيون بالتحكيل، والشعور بالترجيل، وكرر السواك على مواضع التقبيل، وطوقت الأعناق بالعقود، وضرب العكر في صفحات الخدود، ومد بالغالب على مواضع السجود، وأقبلت صنعاً بأوشيتها، وعنت بأرديتها، ودخلت العروس في حليتها، ورمقت الكفوف بالحناء، وأثنت على الحسن وهو أحق بالثناء، وطلقت التوبة ثلاثاً بعد البناء، وغص الذراع بالسوار، وتختم في اليمن واليسار، وأمسكت الشياح بأيدي الأبنكار، ومشت الإماء أمام الأحرار، وتقدمت الدايات بالأطفال الصغار...»^(٩).

- أما في تلمسان فقد اختلفت مظاهر الاحتفال. فعندما دخل ابن تومرت هذه المدينة عقب عودته من رحلته العلمية «وجد بها عروساً تزف لبعلها وهي راكية على سرج، واللهو والمنكر أمامها، فكسر الدفوف واللهو وغير المنكر وأنزلها عن السرج»^(١٠).

ويبدو أن الاحتفال تم أحياناً في الشوارع. فقد وصف أحدهم زفاف عروس بقوله: «فلعهدي بعرس في بعض الشوارع بقرطبة، والنكوري الزامر قاعد في وسط الحفل، وفي رأسه فلنسوة وشي، وعليه ثوب خز عبيدي وفرسه بالحلبة المحلاة يمسكه غلامه»^(١١).

(١) عندما خرج ابن تومرت مع أصحابه من مراکش نحو اغمات: سمعوا زغردة فتبين لهم أن امرأة ولدت صبياً فقال لهم ابن تومرت: «لها تسعة: ثلاثة في مولده، وثلاثة في تطهيره، وثلاثة في زواجه، وغير ذلك بدعة». انظر: أخبار المهدي بن تومرت: ص ٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٤.

(٣) ابن الحاج: م.س. ص ٣٠٢.

(٤) ابن الزيات: م.س. ص ١٧٣ [ترجمة ابن حرزم].

(٥) مؤلف مجهول: كتاب في الفقه، ص ٢٩٤.

(٦) القشوف ص ١٠٠، كما وردت مسألة الهدية في العرس في إحدى نوازل محمد بن عياض: انظر: م.س. ورقة ١٦٨.

(٧) قالت العامة: «العروس في الكرسي، وليس يدرا لمن هي». مثل رقم ٢١٠. انظر الزجالي: م.س. ج ٢، ص ٥٢.

(٨) ابن قزمان: م.س. زجل رقم ٥١.

(٩) رواية ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ٥٠٢.

(١٠) البيدي: م.س. ص ٢٠.

(١١) الحميدي: جذوة المقتبس ص ١٢٤ - دندش: م.س. ص ٣٢١.

واستخدم الطهيان لطهي الطعام وتهيئ الحلوى. وكان الطباخ لا يأخذ شيئاً من الطعام إلا إذا اشترط ذلك على أصحاب العرس، أو أعطوه له على سبيل الهدية^(١).

وبعد إتمام المدعوين، تدخل العروسة مع عريسها إلى حجرة من حجرات المنزل الذي يقام فيه الحفل، وتجلس امرأة إلى جانب باب الحجرة تنتظر إعلان فض بكارة العروسة^(٢).

أما في قبائل نمارة فجرت العادة أن يوارب العروس شباب الناحية التي تم فيها العرس، ويمسكوها عن زوجها شهراً أو أكثر، ثم يردونها إليه^(٣).

وبعد انتهاء مراسم الاحتفال بالعرس، يقصد العريسان معاً أحد الصلحاء قصد الدعاء لهما، ومباركة حياتهما الجديدة^(٤). بينما يذهب العريسان في الوسط الأرستقراطي إلى الترفيه والمتعة في إحدى الضيعات^(٥). وقبل مغادرة العروسة البيت، يوصيها أهلها بحسن معاملة زوجها. فقد نصح المعتمد بن عباد - وهو في سجنه بأغصات - ابنته بحسن معاشرة بعلها^(٦).

ولا يفوتنا الإشارة إلى وجود ما يعزف بزواج المتعة الذي رأى فيه بعض طلبة العلم وسيلة لتجنب الزنا. وكان الزوجان معاً يحددان مدته ويعقدانه دون ولي. ولم يتجاوز المهر في هذا النوع من الزواج نصف درهم حسبما تبينه بعض النصوص. غير أن الفقيه ابن رشد^(٧) أفتى بعدم جوازه ووجوب إقامة الحد عليه.

مقابل ذلك، شاعت ظاهرة التسري بالإماء في أوساط طبقة الخاصة^(٨). كما تم الزواج - في حالات نادرة - بطريقة غير شرعية^(٩).

وظل امتلاك بيت للسكن أول هدف يستقطب اهتمام الزوجين. واختلفت طرق الحصول عليه حسب الوضعية الاقتصادية لكل عائلة. فالعائلات الميسرة تمكنت من اقتناء الدور أو بنائها أو حيازتها عن طريق الإرث، بينما عجزت الأسر الفقيرة عن ذلك فلجأت إلى الكراء.

وتفيض نوازل الحقة المرابطية بإشارات حول اقتناء المنازل بالتقسيط. وحسبنا أن رجلاً وابتاع لابنه داراً بثمن وبه إياه منجم عليه في ثلاثة أعوام^(١٠). بينما تبين نازلة أخرى اشتراك رجلين في منزل واحد^(١١) وإذا لم يجد مالك المنزل من يكتريه، فضل بيعه^(١٢).

(١) ابن عبدون: م.س. ص ٥٢.

(٢) الوزان: م.س. ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) مؤلف مجهول: الاستبصار، ص ١١٢.

(٤) العزني: دلعمة اليقين... (مخ) ص ١١٧.

(٥) ابن خاقان: مطمح الانفس، ص ٢١٧ [ترجمة أبو أيوب بن أبي أمية (ت ٥٢٢ هـ)].

(٦) المقرئ: فطح.. ج ٦ ص ٢٠ - الطيبي: دراسات وبحوث في التاريخ الأندلسي. تونس، الدار العربية للكتاب.

(٧) ١٩٨٤، ص ١٩٣.

(٨) نوازل ابن رشد ص ٥٦ - ٥٧، ومعلوم أن الرسول (ص) كان قد نهى عن زواج المتعة.

(٩) ابن زكوى: م.س. ص ٤٥ - ابن عبد الملك: م.س. ج ٦ ص ٢٤٦.

(١٠) ابن الحاج: م.س. ص ٧٨.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٧. منجم عليه تعني مقسط على عدة دفعات.

(١٢) مؤلف مجهول: كتاب في الفقه، ص ١٤٢. وقد نقل النازلة عن ابن الحاج.

(١٣) ابن الحاج: م.س. ص ٤٧.

ولكن السواد الأعظم من العائلات ظلت تكتري منازل متواضعة. في هذا الصدد ذكر ابن قزمان في بعض قصائده الزجلية خبر كرائه منزلاً، وفيها يعرض شكواه من صاحبه الذي زاد عليه في الثمن^(١). وجرت العادة أن يؤدي الكراء شهرياً أو سنوياً^(٢). ومنع الفقهاء أن يتم ذلك بواسطة الدين^(٣).

وقد اختلف شكل المنازل حسب المستوى المادي للعائلات وحسب البيئة الحضرية أو البدوية. ففي الحواضر كانت دور العائلات الموسرة تشكل معالم عمرانية متميزة بشساعة مساحتها، واحتوائها على حجرات كبيرة، وقاعة مفصصة ذات ألوان عجيبة^(٤)، تحيط بها حدائق تتخللها ممرات تتفاوت من منزل لآخر، وبها نافورات وبرك وجواسق، وتنتشر فيها الأزهار والأشجار على اختلاف أنواعها^(٥). وتميزت حجرات منازل الأرستقراطية الأندلسية بالفرش الوثيرة، وأنواع البسط الفاخرة والستور الجميلة من الديباج وغيره^(٦).

أما منازل الأسر الفقيرة فاشتملت على حجرات صغيرة وبئر في الوسط، إلى جانب عقاب وهو كومة من الحجر تعتمد عليها لوازم البئر، وأحياناً قصيبة وهي عبارة عن حجرة علوية^(٧) يصعد إليها من درج^(٨)، ومطر لاجتماع مياه الأمطار^(٩). بينما ظلت بعض المنازل محرومة من المياه^(١٠) ويستنتج من إحدى النوازل أن سقوف بعض البيوت كانت من القرميد، بينما صنع بعضها من التبن^(١١).

واختلف شكل المنازل في البادية كما يستشف ذلك من بقايا أطلال منزل ريفي لعائلة من الأعيان. فقد تألف من حديقة بأربع مسافات مستطيلة تفصلها وتحيط بها ممرات تتفاوت في الارتفاع حسبما تقتضيه الضرورة، وتضم نافورات وبرك، وتطل عليها أروقة الغرف الجانبية، ويمتد بينها بهو متسع بقسم كبير من اللون الأحمر، مع زخارف من تشبيكات سداسية أو ثمانية وتوريقات بارزة^(١٢). بينما تميزت منازل العائلات الفقيرة في البادية بالبساطة، فقد بنيت بيوتها من الحجارة والطين

(١) انظر ديوانه ص ١٧٤ زجل ٢٢. وانظر كذلك أزجال ٨٧، ص ٥٦١ - ٥٦٢.

(٢) ابن رشد: م.س. ص ٢٢٨.

(٣) محمد بن عياض: م.س. ورقة ٦٣ ب.

(٤) المقرئ: م.س. ج ٣، ص ٢٢٠.

(٥) المصدر نفسه ص ٢١٤ - دندش: م.س. ص ٣٢٤.

(٦) دندش: م.س. ص ٣٢٤.

(٧) انظر ابن قزمان: م.س. ص ٥٦٢، زجل ٨٧، وكذلك ص ٥٥٨. زجل ٨٨ - ابن الأبار: المعجم، ترجمة ٤٩ - ابن الزيات: ص ١٦١.

(٨) عياض: الغنية، ص ٢١٠. ويذكر في ترجمة سعيد بن أحمد السفاسي (ت ٥٠١ هـ) أنه سقط من درج منزله بأغصان.

(٩) ابن رشد: النسخة المحققة، ج ٥ ص ٨٤٤.

(١٠) يفهم ذلك من قول ابن القطان عن ابن تومرت: «مولده رضي الله عنه بموضع يسمى ذومكران وهو موضع لا ماء فيه، وإنما يشرب الله من ماء المطر» انظر: م.س. ص ٢٧.

(١١) ابن الحاج: م.س. ص ٢٤٥.

(١٢) مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي البديع، طبعة مصر ١٩٦٨، ص ٢٢٣ - ٢٢٦.

والخوص والشجر. أما في المناطق الصحراوية، فقد أقامت هذه العائلات في منازل من الطين والوبر^(١). وغالباً ما اشتملت على أثاث متواضع كالسرير^(٢)، واستعمل المجر^(٣) أو الحطب للتدفئة في الشتاء^(٤)، وتم جلب المياه من العين أو بعض القنولت^(٥). أما الإضاءة فكانت تتم في كل البيوتات بواسطة السراج والمصباح والفنار^(٦).

بعد الحصول على المنزل شراء أو كراء، يبدأ الزوجان في الاستعداد لاستقبال مولودهما. وبما يسترعي الانتباه في هذا الصدد أن الطموح راود بعض الناس منذ الحقبة المرابطية لمعرفة ما إذا كان الجنين ذكراً أم أنثى، إذ يحدثنا السقطي^(٧) في نص طريف عن الطريقة التي استعملوها في محاولة الوصول إلى هذا المبتغى.

وعلى غرار العادة السائدة في كل العصور، كان الزوج يرغب دائماً في مولود ذكر يؤمن حياته، ويعينه على مواجهة أعبائها، وهذا ما يفسر اتجاه بعض الأزواج إلى الصلحاء التماساً لدعواتهم كي يرزقوا أولاداً ذكراً^(٨). فالابن الذكر اعتبر كسباً للعائلة، بينما عدت الأنثى عبءاً عليها. فباستثناء قبائل الملثمين، تميز المجتمع بتمجيد الذكورة، بيد أن الأمير عبد الله^(٩) يكشف في مذكراته أن قبيلة لم تكن تستحسن أن يكون المولود البكر ذكراً.

وأثناء فترة الحمل، كان الزوج يبذل قصارى جهده لتلبية جل رغبات زوجته، وعلى الخصوص ما تشتهي نفسها من المأكولات حتى ولو كان معسراً^(١٠)، وعندما يحين موعد الوضع، تدخل المرأة مرحلة المخاض الصعبة. وتذكر المصادر أن كثيراً من النساء استعصت عليهن الولادة، لذلك التجأن إلى الخرافات والشعوذة لتخفيف الألم. وفي هذا الصدد يقول ابن الأحمر^(١١) في معرض حديثه عن يوسف بن تاشفين: «وكانت الحوامل بمراكش إذا عسرت عليهن الولادة يأخذن سراويله ويجعلنها في أرجلهن فيلدن من حينه من بركته».

كما شاعت ظاهرة أخرى لدى النساء اللاتي صعبت عليهن الوضع، وتتجلى في قيام أموات

(١) ابن خلدون: م.س. ج ٦ ص ١١٦.

(٢) ابن قزمان: م.س. ص ٥٦٢.

(٣) الصومي: المعزى... ورقة ١١٠٢.

(٤) ابن عبد الملك: م.س. ج ٦ ق ٢، ص ٤١٧.

(٥) ابن الحاج: م.س. ص ١٤٧.

(٦) التميمي: المستفاد (مخ) ص ٩٧ ترجمة أبو مدين - ابن سعيد: اختصار القدر المحل، ص ٣٦ - القرني: م.س.

ج ٢ ص ٤٨٩. ويذكر أن ابن خفاجة كان مع بعض الرؤساء، فكاد أن ينطفئ السراج - البادي: المقصد الشريف ص ٩٥.

(٧) رسالة في الحسبة ص ٥٢، ٥٣ ويقول عن هذه الطريقة: «وقيل أمر عجيب إن صح ولا أعلم كيف ذلك، وهو أن يقدر بخيط من وسط سرة المرأة إلى وسط الفقارة المحاذية لها من ظهرها، ويعلم المكان بمداد، ويدار القياس إلى الجانب الثاني من الوضع إلى الوضع، فإن نقص الخيط من الجانب الأيمن عن العلامة، فهي حامل بذكر، وإن طال فهي حامل بأنثى والله أعلم بذلك».

(٨) ابن الزيات: م.س. ص ٣٥٧ - ابن المؤقت: م.س. ص ٥١.

(٩) كتّاب التبليغ: ص ١٩٩.

(١٠) الشراط: الروض العاطر الأنفلس... (مخ) ورقة ١١٦١، ١١٢ ب ويذكر أن زوجة أبي عبد الله اللقلق (عاش في العصر المرابطي)، اشتهدت اللحم المطبوخ والثريد والمجبة.

(١١) بيوغرافيس الكبرى، ص ٣٠.

الكتاب - كلما علم بحالة من هذه الحالات - بإرسال الصبيان الذين يطلقون رداءً يمسكون بأطرافه، ويتجولون في طرق المدينة مرددين بعض الدعوات. وأثناء قيامهم بهذا العمل، يلقي أصحاب الدكاكين والمارة التبن والتمر والدرهم والبيض في الرداء. ويزود الصبيان أشهر أضرحة الصالحين بالمدينة، ويفطسون الرداء في السواقي والصحاريح، ولا يزالون يفعلون ذلك، حتى تتكسر بيضة أو عدد من البيض الموجود في الرداء، فيعتقدون أن الحامل قد وضعت وتخلصت من أوجاعها، فيعودون إلى المكتب، ويستحوذ المؤدب على مافيه من دراهم ومواد^(١). وقد انتقد أحد مؤدبي الفترة المرابطية بسبب اتباعه هذه الطريقة، وطعن فيه لأنه كان يبيع صبيان مكتبه للنساء^(٢).

وفي يوم الولادة بالذات، يأتي دور القابلة التي يحدد ابن خلدون^(٣) مهمتها في «استخراج المولود الآدمي من بطن أمه». وقد ورد ذكرها في أمثال العامة^(٤)، كما وردت في نوازل الفترة موضوع الدراسة^(٥)، مما يدل على الدور الكبير الذي لعبته في عملية ولادة الطفل.

وتطالعنا المصادر بأنواع التهاني التي يتلقاها والدا الصبي المزداد، خاصة في العائلات الثرية، إذ كانت تبث لهما الأشعار والنثر البديع تعبيراً عن الفرحة والتهاني^(٦). ويلاحظ أن جل تلك الأشعار ارتبطت بالمولود الذكر، مما ينهض حجة على تفضيل الرأي العام آنذاك للذكور. ولا غرو، فإن البيدق^(٧) أمدنا بنص عن الفرحة التي غمرت جدة المهدي بن تومرت حين ولد هذا الأخير حتى أنها سمته باللسان البربري «بات بك تومرت، أي «صار فرحاً وسروراً» فدعي بهذا الاسم. وجرت العادة في مثل هذه المناسبة أن يطلق عنان الزغاريد. ولا غرو فعندما غادر المهدي بن تومرت مراکش متجهاً إلى أغصات، سمع زغاريد، فلما سأل عن مناسبتها، أخبر بأن امرأة ولدت صبياً^(٨). والتعبير عن فرحة العائلة يقام حفل العقيقة، وهو اليوم السابع من ميلاد الطفل^(٩). ويكثر الإنفاق في هذه المناسبة حتى وإن كان أبو الصبي مقللاً. وتكشف الروايات عن عادة نحر أضحية في هذا اليوم. فالبادسي^(١٠) يذكر أن رجلاً ولدت امرأته فجُد في طلب عنز وصحفة^(١١) قمح لإطعام

(١) انظر تعليق المؤلف، ص ٥٩.

(٢) الجزنائي: جني زهرة الأس، ص ٩٥.

(٣) المقدمة ج ٣ ص ٩٤٠ - ٩٤١.

(٤) قالت العامة «أرفع حرك يا مهجة لقابل، حتى يرخس القوابل»، مثل رقم ٢٠٤، الزجالي: م.س. ج ٢، ص ٥٢.

(٥) محمد بن عياض: م.س. ورقة ٦٩ ب.

(٦) انظر نماذج لذلك عند ابن بسام: م.س. ج ٢ م ١ ص ٢٩٢ وكذلك ابن دحية: المطروب من أشعار أهل المغرب، ص ١٧٩. انظر كذلك: الرصافي: ديوان الرصافي، ص ٤٦ وما بعدها. الأصفهاني: خريدة القصر ج ٤ ص ٢.

ص ٦٧٠. المقرئ: م.س. ج ٢، ص ١٠٩ - ١١٠. ومما كتبه ابن أبي الخطال في تهنة مولود: «...والرب تعالى يجعل الذي تمكن بيننا في ذاته ويحميه من ضروب الزمان وأفاته، وبلغ ما تغفلت مسرته بين الشفاف والفؤاد، وعمر به في الحي كل ناد تتهداه الأفواه تهادياً...» انظر لوحة رقم ٢٣. وتعبير «الصبي المزداد» يعني الطفل المولود.

(٧) المقتبس من كتاب الأنساب، ص ٢٧.

(٨) البيدق: أخبار المهدي، ص ٢٩.

(٩) ابن قزمان: زجل م.س. ص ٨٩.

(١٠) المقصد الشريف، ص ٨٧.

(١١) قصيدة كبيرة مدونة لإطعام خمسة أشخاص على الأقل. كما تعني أيضاً أحد الموازين المستعملة في منطقة الريف في العصر الوسيط.

المُدْعَوِينَ. وشكا رجل آخر إلى أحد المتصوفة عجزه عن الحصول على ذبيحة فتصدق عليه بنور (١). ولم يحالف الحظ أحياناً بعض الأزواج في الحصول على مولود إما بسبب مرض العلم كما هو الحال بالنسبة لسير بن علي بن يوسف (٢)، أو بسبب الوفيات التي كانت تحصلهم (٣). في حين رزقت بعض الأسر عدداً كبيراً من الأطفال. ذكر السلفي (٤) على لسان راو وصفه بالثقة أن امرأة أنجبت في ولادتها الأولى ولداً، ثم ولدين في ولادتها الثانية، وأصبح العدد يتكاثر من ثلاثة حتى وصل إلى سبعة في وضعها السابع، مما جعلها تمتنع عن زوجها! وفي حالة ما إذا صحت هذه الرواية، فإنها تكون قد شكلت حالة نادرة.

ومن سوء حظ بعض العائلات أنها رزقت أطفالاً مشوهي الخلقة، إذ تذكر إحدى الروايات أن امرأة من المثلثين ولدت طفلاً بجسمين كاملين ورأس واحد، فمات الأول ثم لحقه الثاني (٥)!

وعلى كل حال، جرت العادة أن تقدم الهدايا للمولود الجديد. وتخبرنا المصادر بهذا الخصوص أنه عند ولادة المهدي بن قומר «اجتمع عند أبيه وأمه هدايا كثيرة» (٦). وثمة من الأسر من استأجرت مرضعة لابنها مدة سنتين (٧). وبعد انقضاء هذه المدة تنتهي فترة الرضاع. ويصور ابن الزيات (٨) ما عاناه أحد الأطفال من ألم وبكاء بعد فطامه.

وجرت العادة كذلك أن يشتري الأب أنواعاً من اللعب لأطفاله خاصة في عيد النيروز، وكذا بعض الصور والتماثيل التي نهى عنها ابن رشد (٩) وغيره من الفقهاء (١٠) لكنهم أباحوا بعض اللعب الأخرى مثل الدوامات والزرايط (١١)، كما كانت بعض العائلات الموسرة تصنع لأطفالها حلوى عرفت باسم المدائن، وهي حلوى كبيرة تحتوي على أصناف من الفواكه تقدم إليهم «إدخالاً للسُرور عليهم وتوسيعاً في الترفيه لأحوالهم» (١٢).

ويغلب على الظن أن رب العائلة كان يطمح دائماً إلى المزيد من الأبناء، ويعتبرهم امتداداً للأسرة ومكانتها، ومورداً آخر للعمل.

ويمكن للباحث أن يستنتج من خلال الفتاوى وغيرها، المعدل التقريبي لعدد الأطفال داخل

(١) ابن الزيات: م.س. ص ٢٨١.

(٢) انظر رواية ابن عذاري: م.س. ص ٧٨.

(٣) ابن الزيات: م.س. ص ٣٥٧.

(٤) أخبار وتراجم اندلسية، ص ٥٩ - ٦٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٦) ابن القطان: م.س. ص ٢٧.

(٧) الجزيري: م.س. ص ١٢١.

(٨) التشوف... ص ٢٤٤.

(٩) نوازله ابن رشد، ص ٣٦٥.

(١٠) ابن المناصف: تنبيه الحكام.. (مخ) ص ٢٧.

(١١) مؤلف مجهول: كتاب في الفقه، ص ١٢١. الدوامات (مقردها دوامة) والزرايط (مقردها زربوط)، إسمان لشيء واحد، وهو لعبة من خشب مخروطية الشكل في أسفلها مسمار، يلف الصبي خيطاً على هذه اللعبة ثم يجذبه بسرعة فتدور على الأرض. وفي بلاد الشام تسمى أيضاً البليل.

(١٢) ابن عبد الملك: م.س. ج ١ ق ٢ ص ٥٦٥ - ٥٦٦.

الأسرة الواحدة. فإذا كانت بعض العائلات لم تعقب ابناً^(١)، فإن المدة المتاحة تسمح بالقول أن بعض الأسر خلفت طفلاً واحداً^(٢)، بينما رزقت أسر أخرى طفلين. فالقاضي أبو بكر بن العربي توفي وله خمس وسبعون سنة وله ولدان^(٣). وكان للشاعر ابن الزقاق وهو معاصر للمرابطين ولدان كذلك^(٤). كما كان للولي المشهور عبد الجليل بن ويحelan (ت ٤١٠ هـ) ولدان أيضاً. وتثبت فتاوى أخرى العدد نفسه^(٥).

لكن خصوصاً أخرى تؤكد أن بعض العائلات تألفت من ثلاثة أطفال^(٦) أو أربعة^(٧) وحتى خمسة^(٨)، فأكثر، فقد كان للمهدي بن تومرت خمسة إخوة هو سادسهم^(٩)، بينما شملت أسرة يوسف بن تاشفين سبعة أبناء^(١٠). فمعدل الأطفال تراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة داخل كل أسرة، إلا أن العائلات الأخرى الضاربة في البوادي شملت عدداً كبيراً من الأطفال دون شك.

كما أن هذه العائلات البدوية، ضمت إلى جانب الزوج والزوجة والأبناء، بني العمومة^(١١)، وأخ الزوج^(١٢)، أو ابن الأخ^(١٣)، والربيبة^(١٤) وكان هؤلاء جميعاً يقيمون في المنزل نفسه، ويشاركون في النفقات والمصاريف الخاصة بهذه العائلة الممتدة. ويتمتع الابن الأكبر بالامتيازات دائماً، وهو الذي يحظى بنصيب الأسد في الصدقات والهبات^(١٥) أو الميراث^(١٦).

وبعد أن وقفنا على أهم مكونات الأسرة من مهر زواج وولادة، مع محاولة التعرف على بنيتها الهرمية وعدد أفرادها نتساءل عن العلاقات الزوجية داخل البيت.

الهوامش:

١- ٢- ٣- ٤- ٥- ٦- ٧- ٨- ٩- ١٠- ١١- ١٢- ١٣- ١٤- ١٥- ١٦-

- (١) مثل أسرة سير بن علي، انظر ابن عذاري: م.س. ص ٧٨.
- (٢) بالنسبة للأسر التي لم تترك سوى طفل واحد انظر: ابن الحاج: م.س. ص ١١٤ - ابن الأبار: المعجم، ص ١٨٩. ترجمة ١٦٧ - ابن سلمون: العقد المنظم... ورقة ١٤٥.
- (٣) مؤلف مجهول: طبقات المالكية (مخ) ص ٣٠٩.
- (٤) انظر ديوانه، ص ١٧٦ - ١٧٧ قص ٤٧.
- (٥) محمد بن عياض: م.س. ورقة ١٥١ - ابن الحاج: م.س. ص ٢١٥ - ابن رشد: م.س. ص ٢٧٢ - مجهول: كتاب في الفقه ص ١١٧.
- (٦) انظر: عياض: المداويك ج ٨ ص ١٧٥، ١٧٨ - ابن بلكين: م.س. ص ١٩٩ - المقرئ: م.س. ج ٣ ص ٤٥٩ - ازهار الرياض... ج ٣ ص ١٠٢ - ابن حمديس: ديوان ابن حمديس ص ٤٧٧.
- (٧) انظر: ابن رشد: م.س. ص ٢٧٢ - ابن الحاج: م.س. ص ٢٢٢ - ابن سلمون: م.س. ص ١٠٢.
- (٨) انظر ابن الحاج: م.س. ص ٩٤.
- (٩) ابن القطان: م.س. ص ٧٤.
- (١٠) ابن أبي ذرع: م.س. ص ١٣٨.
- (١١) المصدر نفسه، ص ٢٤١.
- (١٢) ابن رشد: م.س. ص ١٠٢، وانظر كذلك ابن الزيات: م.س. ص ٣٦٨ [ترجمة أبو عبد الله محمد بن موسى الأركاني].

- (١٣) ابن عبد الملك ج ٥ ق ١ ص ٢٣٠.
- (١٤) ابن الزبير: م.س. ص ٦٦ ترجمة ١٢١.
- (١٥) البرزلي: م.س. ص ٩١ - ٩٢.
- (١٦) ابن رشد: م.س. ص ٣١٢.

ثانياً: العلاقات الزوجية

عاش الزوجان في العصر المرابطي حياة تتجاذبها عوامل التلاحم والانسجام إلى جانب أسباب التنافر والتوتر، ويمكن انطلاقاً من نصوص الحقبة موضوع الدراسة تصنيف العلاقات الزوجية في صنفين: علاقات تميزت بالتلاؤم والانسجام، وأخرى بالنزاعات المستمرة التي أدت أحياناً إلى الطلاق.

تكشف بعض النوازل عن النموذج الأول، فتبين سعي المرأة في كسب ود زوجها عن طريق مساعدته مادياً. فقد استفتى القاضي عياض ابن رشد^(١) حول امرأة في سبته دامت زوجه في أملاكه حياته، وعن أخرى وهبت لزوجها في صحتها نصف صداقها^(٢). كما أن امرأة ثالثة وهبت زوجها رياضاً^(٣). وأصبحت هبة الكالي للزوج نفقة تتردد في المصادر الفقهية لتلك الفترة^(٤). كما ساهمت الزوجة بمالها أحياناً لشراء منزل للسكن^(٥). غير أنها اشترطت مقابل ذلك ألا يتزوج عليها ولا يتسرى، وإلا رجعت عن هبتها^(٦). من ذلك يتضح أن بعض الزوجات سعين إلى كسب محبة أزواجهن عن طريق هب أموالهن إليهم، وهو ما عبر عنه ابن الحاج^(٧) بجلاء حين قال: «والمعارف فيما يوسع النساء به على أزواجهن من أموالهن، إنما يردن بذلك استجلاب مودتهم واستدراار صحبتهم وجميل عشرتهم».

وتحمل كل النصوص السابقة مغزى ودلالة عن تحكم العوامل الاقتصادية في صياغة علاقات الانسجام وحسن العشرة بين الزوجين إذ يلاحظ - كما سنبين في موضعه - أن النزاعات الزوجية انتشرت في أوساط العامة أكثر من الخاصة، لكن دون تعميم هذا الحكم لأن البادسي^(٨) (زودنا بنص) حول متصوف فقير عاش حياة هادئة مع امراته، فكان يساعدها في شؤون البيت وطحن الزرع. ولا المنحى نفسه، تصور إحدى قصائد ابن حمديس^(٩) نجاح الحياة الزوجية بين ابنته وبعيلها. كما أن قصائد الرثاء التي نظمها شعراء عاشوا في الفترة مدار البحث تميظ اللثام عما كان يكنه هؤلاء من محبة وعطف لزوجاتهم^(١٠). وتتجلى أبرز مظاهر المحبة بين الزوجين من خلال إحدى النوازل الواردة

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨١ - محمد بن عياض: م.س. ورقة ١٤٥.

(٢) البرزلي: م.س. ص ٨٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٥ - ابن سلمون: م.س. ورقة ١١٥. وقد نقل النازلة عن ابن رشد.

(٤) ابن رشد: م.س. النسخة المحققة ج ٥، ص ٧٦٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢٤ - البرزلي: م.س. ص ٩٠.

(٦) الجزيري: م.س. ص ١٨٧.

(٧) نوازل ابن الحاج، ص ٥.

(٨) المقصد الشريف ص ٥٤ [ترجمة عيسى بن أبي داود (ت ٥٧٨ هـ)].

(٩) قال في رثاء ابنته:

وانكحتها من بعد صدق حمدته كريماً فلم تدم معاشرة البعل

انظر ديوانه، ص ٣٦٥.

(١٠) انظر التلطي: ديوان الأعمى التلطي ص ٧١، ٧٢ قص ٢٤ التي قالها في رثاء زوجته أمينة، وانظر أيضاً: ابن الرزاق: م.س. ص ٢٢٨ قص ٨٤ التي رثى فيها زوجته، وكذلك ابن سعيد الذي لود في ترجمة أبي عامر العمارة قصيدة رثائية في زوجته التي كان يهاوما وتدعى زينب: انظر: رايات المبرزين... ص ٩٢.

حول الحرة بنت تاشفين التي اقسمت بعد وفاة زوجها الا تعود إلى دار الإمارة التي كانت تجمعهما^(١). وفي السياق نفسه ذكر أحد المؤرخين^(٢) عن زينب زوجة يوسف بن تاشفين أنها كانت أحب ما لديه.. ومعلوم أنها كانت قد مهدت له السلطة وامتدته بالأموال اللازمة لبناء دولته^(٣).

غير أن هذه الصورة المشرفة لا يمكن أن تحجب ما عرفته الحياة الزوجية من مشاكل سكنت النصوص عن ذكر أسبابها أحياناً، بينما ازاحت الستار عن حوافرها المادية أحياناً أخرى. برزت حدة ألنزاع بين الزوجين في ثلاثة مظاهر إما اللجوء إلى القضاء أو الضرب والجرح، أو الهروب. أما الطلاق فكان آخر حل يملكه الزوجان لوضع نهاية لمشاكلهما.

بخصوص المظهر الأول، أورد الأصفهاني^(٤) وغيره^(٥) أن القاضي ابن حمدين عقد جلسة لرجل أسود وامرأة بيضاء حضرا ليحكم بينهما في خصومة لم يفصح النص عن أسبابها، ويبدو أن اللجوء للقضاء لم يكن يتم إلا بعد نفاذ صبر الزوجين بفعل المشاكل الحادة التي وصلت إلى حد الضرب العنيف، وهو مظهر ثان من مظاهر توتر العلاقات الزوجية. ولا غرو فإن إحدى الروايات المنقوبة تشير إلى امرأة اشتكت للمتصوف أبي العباس السبتي أذى زوجها واعتياده على ضربها باستمرار إلى درجة أنها كانت تريد إلقاء نفسها في البئر^(٦). وتحدثت إحدى النوازل عن امرأة أشهدت في صحة من عقلها وذهنها وهي مضطجعة على الفراش تشكو ألم ست جراحات من جسدها أن زوجها جرحها ذلك على وجه الاعتداء والقصد الموجب للقتل^(٧).

أما بالنسبة للمظهر الثالث وهو الهروب، فيكشف أحد المؤرخين^(٨) عن إحدى العوائد السائدة في أوساط نساء جبل مرنيسة، فيؤكد أنهن كن يهربن إلى الجبال، ولا يجدن غضاضة في ترك أولادهن، ويتزوجن من رجال آخرين كلما أصابتهن إهانة من أزواجهن مهما كانت ضئيلة.

ويمكن التمييز بين نوعين من المشاكل التي عرفتها الحياة الزوجية حسب المسؤولية التي يتحملها الرجل أو المرأة.

فبالنسبة للمشاكل التي كان للمرأة فيها ضلع واسع، أول ما يسترعي الانتباه مسألة نفور المرأة من زوجها أحياناً، وهو ما تؤكد رواية للبكري^(٩).

يضاف إلى هذا العامل السيكولوجي من جانب الزوجة، عامل آخر يتجلى في عدم انصياعها

(١) ابن رشد: م.س. ص ٥٢ - الونشريسي: م.س. ج ٢، ص ٦٥.

(٢) ابن عذاري: م.س. ص ٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٢.

(٤) خريدة القصر، ق ٤ ج ٢ ص ٢٢١.

(٥) ابن سعيد: رايات المغرزين، م.س. ص ٢٩.

(٦) مؤلف مجهول: مناقب الشيخ أبي العباس السبتي ورقة ١١٠٢.

(٧) البرزلي: م.س. ص ١٩٠ - الونشريسي: م.س. ج ٢ ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٨) الوزان: وصف إفريقيا ج ١، ص ٢٦٠.

(٩) المغرب... ص ١٨٦، ١٨٧ وقد ذكر على لسان امرأة عندما سألتها أهلها عن أسباب عدم رغبتها في معاشرته زوجها والتفرد منه: «إني أكرهه وأبغض قربه وأحب بعده».

لاوامر زوجها، وكل ما يتعلق بشؤون البيت^(١). وقد انتشرت هذه الظاهرة في اوساط الملائكة الارستقراطية على الخصوص، وحسبنا ان حواء زوجة سحر بن ابي بكر ابت مرافقة زوجها عند تعيينه في ولاية جديدة إلى أن الزمها يوسف بن تاشفين بالسعر معه^(٢). كما أن امرأة أخرى رفضت الرحيل مع زوجها من الاندلس نحو المغرب الاقصى^(٣). ولم يكن غريباً أن تنتشر في هذه الاوساط كذلك ظاهرة نشوز المرأة، إذ ذكر ابن الحاج^(٤) بهذا الخصوص أن «زوجين من ذوي الهيئات وأهل التصاون قاما على الزوجية سنين عدداً، ونشأت بينهما ذرية وكانت المرأة تنتشر في خلال ذلك متجنبة عليه، فيدخلها بالنساء والقراة فتعود إليه».

وبالمثل كانت بعض الزوجات يكثرن الخروج من المنزل لقضاء حاجاتهن، وعندما يعود أزواجهن من السفر لا يجدوهن داخل البيت^(٥). بل إن بعض النساء مسسن كرامة أزواجهن فتطاولن عليهم بالضرب والإهانة^(٦).

وقد تكون كثرة مطالب بعض الزوجات لبعولتهن أيضاً وراء بعض المشاكل التي عرفتھا الحياة الزوجية، وهو ما عبرت عنه أمثال العامة^(٧). ناهيك عن مشاكل أخرى ذات طابع مادي صرف تمخض عنها نزاع وخصومات تذكر من بينها تفويت الزوجة دارها لأبيها عن طريق ما يعرف بالامتناع^(٨)، أو عدم قدرة الزوج على شراء اضحية العيد^(٩)، أو نفور المرأة من الإقامة في مسكن غير لائق^(١٠)، أو عدم تلبية الزوج لطلبها في توفير خادمة لمساعدتها في شؤون البيت^(١١)، وهي مشاكل كثيراً ما وجدت التربة الخصبة في اوساط الفقراء. وأحياناً كان التعاون في طلب الرزق وتوفير العيش للأسرة من الاسباب التي تؤدي إلى غضب المرأة ومعاتبتها لزوجها^(١٢).

ومن المشاكل الاخلاقية التي زعزعت كيان بيت الزوجية الخيانة الجنسية، إذ تكثر النصوص حول هذه الظاهرة في العصر المرابطي. فابن قزمان يذكر أن نفسه تاقّت إلى زوجة جاره فراودها حتى تمكن من وطنها^(١٣) ويسرد ابن الزيات من جملة كرامات الشيخ الصالح ابي يعزى أن رجلاً جاء للترك به، فعلم «بقلبه» أنه استغل فرصة غياب أخيه فواقع زوجته^(١٤).

(١) ابن المؤقت: تعطير الانفاس... ص ٣٠ وقد ذكر أن رجلاً طلب من زوجته أن تصنع طعاماً لضيفه فرفضت.

(٢) ابن لبيون: لمح السحر... ورقة ١٨٠.

(٣) النّبامي: المرتبة العليا... ص ١٠٨ [ترجمة ابو المطرف عبد الرحمن الشعبي (ت ٤٩٩هـ)].

(٤) نوازل ابن الحاج: ص ١٢٠.

(٥) محمد بن عياض: م.س. ورقة ٧٠ ب.

(٦) ابن الزيات: م.س. ص ٣٢٩، ترجمة ١٦٤.

(٧) فضلاً عن أمثال العامة التي أوردها في الهامش رقم (٢) (ص). انظر كذلك ابن قزمان، زجل رقم ٨٩.

(٨) محمد بن عياض: م.س. ورقة ١٥٥ - ابن رشد: م.س. ص ٢٨٢ - مؤلف مجهول: كتاب في الفقه ص ٢٩٥.

(٩) ابن الزيات: م.س. ص ٣٧٤، ترجمة رقم ١٢٠.

(١٠) ابن سعيّد: م.س. ص ٣٩ [ترجمة الاصم المرواني].

(١١) ابن الزيات: م.س. ص ٣١٩ ترجمة رقم ٧٧ - مؤلف مجهول: كتاب في الفقه ص ٣٤ - ٣٥.

(١٢) انظر التطيلي: م.س. ص ١٦ قص ٥.

(١٣) انظر ديوانه ص ١٤٦ زجل ٢٠٠.

(١٤) النشوف، ص ٢١٤.

ويبدو أن الخيانة الزوجية كانت مسألة شائعة لدى النساء اللاتي تزوجن رجالاً متقدمين في السن^(١). في هذا السياق ذكر البكري^(٢) رواية مؤداهما أن شيخاً تزوج بشابة كلف بها أحد الفتيان، فتواطأت معه على خيانة زوجها. ولا أدل على شيوع الخيانة الزوجية من ورودها ضمن أمثال العامة^(٣). وأسفرت أحياناً - في حالة اكتشافها - عن قتل الزوجة^(٤).

أما بخصوص المشاكل التي يتحمل فيها الزوج المسؤولية، فقد تعددت، وكانت دوافعها في الغالب الأعم مادية. ونسوق كمثال على ذلك ما ورد عند محمد بن عياض^(٥) من أن رجلاً التزم في عقد النكاح ألا يضرب زوجته، وألا يأخذ شيئاً من مالها بغير إذنها. غير أن الزوج خالف التزامه فعد يده إلى المال حتى أضر بها. كما تثبت نوازل أخرى اعتداء الرجل على ما ساقه لامراته في صداقتها^(٦)، فضلاً عما صدر منه أحياناً من تعسف وإجحاف في منعها من زيارة أهلها وأقاربها، سواء في أفراحهم أو ماتمهم^(٧).

والمشكلة التي تتكرر كثيراً في نوازل الفترة المرابطة تتجلى في طول مدة غياب الأزواج عن نسايتهم اللاتي أصبحن يشترطن في عقود صداقتهن ألا يغيب عنهن أزواجهن، وهو ما عبر عنه ابن رشد بـ «شرط المغيب حسبما ينعقد في صداقات الناس اليوم»^(٨). بيد أن الرجال غالباً ما تغاضوا عن هذا الشرط، مما أدى إلى تفاقم المشاكل التي وصلت أحياناً إلى الطلاق^(٩). وفي حالة استمرار مغيب الزوج مدة طويلة، كانت المرأة تكتب عقداً يشهد بصحة مغيبه^(١٠) وعدم إنفاقه عليها^(١١). وقد حكم لزوجات ادعت غياب زوجها أن تنتظر أربعة أعوام، فإذا لم يرجع إليها أصبحت حرة في تطبيق أنفسهن^(١٢).

وللأسف، فإن الكتب الفقهية لا تفصح بما فيه الكفاية عن أسباب غياب الرجال عن زوجاتهم، باستثناء سبب واحد يرد في بعض النوازل وهو التجارة^(١٣) غير أن المشاركة في الحروب حسبما نعتقد شكلت عاملاً آخر من عوامل هذا الغياب إذ كان لا يعرف هل قتل الزوج في المعركة أم لا زال على قيد

(١) قالت أمثال العامة في هذا الشأن: «إذا أزواج الشيخ أصبى، يفرح صبيان القرية». مثل رقم ٢، انظر الزجالي:

م.س. ج ١، ص ٢٤٤.

(٢) المغرب، ص ١٨٤ وما بعدها.

(٣) قالوا: «بين ذا وذا، زوجها قد جاء يقال المثل في المرأة التي يدركها زوجها متلبسة بالجريمة». انظر: الزجالي: م.س.

ج ١، ص ١٢٤.

(٤) البكري: م.س. ص ١٨٧.

(٥) مذاهب الحكم ورقة ١٦٧.

(٦) ابن رشد: م.س. ص ٢١٩ - ابن سلمون: م.س. ورقة ٩ ب.

(٧) محمد بن عياض: م.س. ورقة ١٥٥.

(٨) نوازل ابن رشد: ص ٦٦.

(٩) المصدر نفسه والصفحة ذاتها: ابن سلمون: م.س. ورقة ٦٧ ب.

(١٠) انظر صيغة العقد عند الجزيري: م.س. ص ٢٤ (نسخة ب) وكذلك: ابن سلمون: م.س. ورقة ١٣ ب.

(١١) ابن سلمون: ص ٣٦.

(١٢) ابن الحاج: م.س. ص ١٠٠.

(١٣) محمد بن عياض: م.س. ورقة ٦٧ ب.

الحياة^(١). والإشكالية نفسها طرحت لدى أسير الحرب، فنص فقهاء الحقة المراتبية أن أمر زوجته يظل معلقاً ولا تتزوج ولا يورث حتى يوقن بموته وينصر طائناً^(٢).

ومن بين المشاكل الاجتماعية الأخرى التي أدت إلى تصدع الحياة الزوجية، زواج الرجل بامرأة ثانية. قرية البيت لم تقبل البتة أن تكون معها امرأة أخرى تشاركها حياتها الزوجية، بل لثرت الموت على أن تعيش مثل هذه الوضعية^(٣). كما رفضت أن يتسرى زوجها بجارية من الجوارى، ورفضت عليه كل ذلك في عقد نكاحها^(٤). وأحياناً كان العجز الجنسي من قبل الزوج يتسبب في هدم صرح الحياة الزوجية، إذ ورد في إحدى نوازل ابن رشد^(٥) أن رجلاً دخل بامراته منذ ١١ شهراً دون أن يأتيتها وهي تريد التخلي عنه لأنها لا تستطيع الصبر عما يلحقه بها من الضرر فيما يرغب النساء من أزواجهن.

- واقتضت الأعراف في بعض النواحي المغربية أن يقوم بعض الأوليات والمتصوفة بإصلاح ذات البين بين الزوجين المتنازعين. فالشيخ أبو يعزى - أحد أعمدة التصوف في العصر المراتبي - دأب على استدعاء الزوجين المتخاصمين فيكلمهما حتى يذهب النفار والشراد، ويسرهما ويضحكما حتى يقع بينهما من الإنس والتأليف في المأول، وينصرفا إلى بيت بنائهما^(٦). ويذكر ابن مريم أن أحد مريديه عزم على طلاق زوجته، فلما علم بذلك طلب منه إمساكها^(٧). ولعب الفكر الخرافي دوره أحياناً في تثبيت العلاقة الزوجية، إذ كانت المرأة تكتب حرزاً للزوج إذا أعرض عنها أو خاصمها، فيقبل عليها وتكفي شره^(٨).

وإذا تعدد كل ذلك يصبح الطلاق الحل الأنسب^(٩)، وهذا ما يفسر وقوع حالات كثيرة من الطلاق في الفترة المراتبية. في هذا الصدد يصور ابن سارة الشنتريني^(١٠) (ت ٥١٧ هـ) طلاقه لزوجته بعد أن تأكد له استحالة العيش معها؛ وقد وقعت بعض حالات الطلاق من جانب بعض

(١) نقل ابن سلمون عن ابن الحاج مسألة رجل شهد له بالسمع الفاشي أنه تولى في وقعة كتندة بينما ثبت عن آخر أنهم راوه حياً. انظر: م.س. ورقة ١٤٤.

(٢) ابن الحاج: م.س. ص ١٠٠.

(٣) يفهم ذلك من هذا المثل: «مُشِيَةُ الْحُفَرِ، وَلَا مُشِيَةُ لَبِيتِ أَخْرَاءِ» مثل رقم ١٥٤١. انظر الزجالي: م.س. ج ١ ص ٢٤٤.

(٤) ابن رشد: م.س. النسخة المحققة ج ٥، ص ٩٥٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٢ (النسخة المخطوطة).

(٦) العزالي: م.س. ص ١١٦ - ١١٧.

(٧) البستاني في ذكر لولياؤه وعلماء تلمسان ص ١١٢.

(٨) البرزلي: م.س. ص ٤٠.

(٩) عبر العامة عن ذلك بقولهم: «إن وفق وفق وإلا حانت الوثائق» إشارة إلى العدول لحل الزواج. انظر: الزجالي: م.س. ص ٥٨.

(١٠) عبر عن ذلك بقوله:

أما الزمان فرق لي من طلة كانت تطل دمي بسيد نفاقها
الذنية الطلاء عند نفاقها والحية الرقشاء عند عناقها
الطلة هي الزوجة. انظر: ابن بسلام: م.س. ق ٣ م ٢ ص ٨٤٤.

المتصوفة بسبب رغبتهم في الانقطاع إلى الله^(١).

كان بإمكان المرأة تطليق نفسها إما بسبب مخالفة زوجها للشروط المنصوص عليها في عقد النكاح^(٢)، أو إذا أسعفها الرجل في ذلك عن طيب خاطر. فزینب النفزاوية فيما تذكره بعض النصوص، هي التي طلبت من أبي بكر بن عمر الطلاق «فأسعفها بذلك»^(٣). وفي المنحى نفسه ذكر البكري^(٤) أن امرأة رغبت في تطليق نفسها، فاستجاب زوجها لرغبتها، ورد له أهلها كل ما صيره في حقها. وإذا أعوزت المرأة الوسائل لتطليق نفسها، لم تتورع عن استعمال الحيل لبلوغ هدفها^(٥). وتم ذلك أحياناً قبل البناء^(٦).

لكن الطلاق على العموم كان عبءاً على الرجل بسبب النفقات المفروضة عليه. وقد حدد فقيه المرابطين ابن الحاج نفقة الزوج الفقير على امرأته المطلقة برقع ونصف دقيق، وثمان زيت وحمل حطب وأربعة دراهم صرف، وبيت تسكنه وكسوة مع رقاد نصف درهم في الشهر^(٧). أما نفقة الابن فيتساوى فيها الغني والفقير: بينما أفتى القاضي ابن حمد بن بقرطبة للمرأة المطلقة بربعين من دقيق، وثمانين زيت، وثمانين عبادي صرف (السكة العبادية)^(٨).

وبالنسبة للرجل المتوسط الحال، فرض عليه في حالة تطليق زوجته وهي حامل أو مرضعة ربع دقيق، وثمان ونصف زيت ونصف حمل حطب، وستة دراهم صرف، وخرج مسكن وكسوة ورفاء^(٩). أما الغني فقد فرض عليه الإنفاق على امرأته المطلقة ما مقداره ربع دقيق، وثمان زيت وحمل واحد من الحطب، و ١٥ درهماً في الصرف كل شهر، ويكتري لها منزلاً؛ أما إذا كانت في بداية الحمل

(١) الصومعي: المعزى، ص ٥٢.

(٢) مؤلف مجهول: التقييد الأبوي.. (مخ) ورقة ١١١.

(٣) ابن عذاري: م.س. ص ٢١.

(٤) المغرب.. ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٥) انظر القصة الطريفة التي يرويها محمد بن عياض عن امرأة استعملت الحيلة لإلزام زوجها الغائب بالرجوع أو التحلل منه. وذلك بأن أخذت معها أحد السقائين (الحرس) إلى القضاء وأعطته رشوة قدرها مثقال مرابطي على أن يشهد أمام القاضي أنه زوجها وأنه طلقها فتم لها ذلك. انظر التعريف بالقاضي عياض ص ٧٦.

(٦) الجزيري: م.س. ص ٢١.

(٧) من الصعب إعطاء معادلة ولو تقريبية لهذه الأوزان نظراً لاختلاف الموازين والعملات في مختلف مناطق المغرب والأندلس وهو ما يؤكد نوازل الفترة وكذلك كتب الجغرافيا. انظر على سبيل المثال: البكري: م.س. صفحات ٨٧، ٨٩، ٩٨، ١١٣، ١١٧. ويبدو من خلال نصوص ابن الحاج التي استقيناهمنا معلوماتنا أن الوزن جاء بصيغة العملة التي يمثلها في النص الدرهم المرابطي. وكما حاولت تقريب هذه العملة مع الأوزان المستعملة نورد المعادلات التالية:

مثقال مرابطي = ١٢ إلى ١٤ درهماً حسب اختلاف الصرف (نوازل ابن رشد ص ١٠٧).

دينار مرابطي = ٤ غرامات.

رطل = ٢٢ أوقية في مليلية حسب ما يذكره البكري. وكان الرطل في مصر = ١٢ أوقية فقط.

الأوقية ٢٢ غراماً، وكانت المأكولات تباع بالأوقية في عصر المرابطين.

(٨) ابن الحاج: م.س. ص ٩١.

(٩) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

فيتأتى لها قميصاً وسراويل وغير ذلك من الكسوة، وإن كان لها خادم فرض لها ما يفرض للمرأة^(١). يتضح مما تقدم أنه رغم بعض الحالات التي ترجع فيها المسؤولية للمرأة في ظهور المشاكل الزوجية، فإن ما يمكن استنتاجه من خلال تحليل مجمل أسباب تلك المشاكل أن للرجل ضلعاً واسعاً فيها، كما أن عقود الزواج نفسها تكشف عن وضعية غير متكافئة بين الرجل والمرأة، وغلبة النفوذ الذكري، وهو ما يتضح بجلاء أكثر من خلال دراسة وضعية المرأة داخل الأسرة.

ثالثاً: وضعية المرأة

لا يتأتى الوقوف على وضعية المرأة داخل الأسرة إلا بمعرفة وضعها داخل المجتمع ككل، وكذا موقف الفقهاء وكل الشرائع الاجتماعية منها.

ورغم أن بالنثيا^(٢) تحدث عن المرأة الأندلسية بكيفية عامة، فإنه لم يقل كلمة عن وضعيتها في عصر المرابطين.

بإلقاء نظرة على كتب الحسبة التي تكشف عن موقف الفقهاء من المرأة، يتبين الموقع الذي احتلته داخل المجتمع، وبالتالي داخل الأسرة. فقد وصف ابن عبدون^(٣) النساء بالغباوة وانعدام التفكير السليم «فالجهد والخطأ فيهن أكثر»، كما لم يسمح باختلاطهن مع الرجال^(٤). أما ابن المناصف^(٥) فقد منعهن من التزين أو الخروج للتنزه، بل حتى المشاركة في الأفراح^(٦). ولم يجد غضاضة في منع النساء الشابات من حضور صلاة الجمعة^(٧). وذهب الفقيه أبو بكر الطرطوشي أبعد من ذلك حين اعتبر عزاءهن بدعة إذ «يعزى الكبير والصغير، والرجل والمراة إلا أن تكون شابة فلا يعزىها إلا ذوو رحم»^(٨). وفي الاتجاه نفسه عد أحد القضاة «تدمية المرأة على زوجها مائلة إلى الضعف، ولا يقام عليه القول بها»^(٩). ولم يبتعد الفقيه أبو الوليد الباجي قيد أنملة عن هذه المنظومة، إذ اعتبر «طاعة النساء مما يفسد الدين والدنيا»^(١٠).

ولم تختلف نظرة المتصوفة إلى المرأة عن تصور الفقهاء، فابن العريف عدما بمثابة طفل ولا تستقيم إلا تحت توجيه وصي^(١١)، بينما حذر بعض المتصوفة من صحبة النساء، ونظروا إليهن ككيان

(١) نفسه والتفاصيل موجودة في ص ٩٠ - ٩١، وانظر نماذج تطبيقية للفروض التي فرضها ابن الحاج على الأزواج الذين طلقوا زوجاتهم في ص ٩٣ - ٩٤.

(٢) Palencia, Aspectos sociales de la España Musulmana, p.10.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٥) تنبيه الحكم، ص ٢٢ - ٢٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٨) كتاب الحوادث والبدع، ص ١٥٨.

(٩) ابن سلمون: م.س. ورقة ١٦٥ ب والمقصود هنا أن المرأة إذا زعمت أو ادعت أن زوجها قد ضربها وأصابها بجروح نتج عنها دم، فإن ادعاءها لا يكتفى إليه ولا يصدق، بل يصدق قول الزوج.

(١٠) وصية الشيخ أبي الوليد الباجي لولديه، ص ٣٩.

(١١) Nwiya, Notes sur quelques fragments inédits de la correspondance d'Ibn Arif avec Ibn Barragan.

. Hesp. 1956, 1er tri. et 2è tri. p.220.

مزج ورمز للغواية والشر^(١)، حتى أن أحدهم كان «إذ لقي امرأة في طريقه يرد وجهه إلى الحائط حتى تبعد عنه»^(٢).

ولم يخرج موقف الشرائع الاجتماعية الأخرى تجاه المرأة عن القاعدة ذاتها. فقد اعتبروها ضعيفة غير قادرة على تحمل المسؤوليات. ورغم ما عرفت به زينب النفزاوية من شخصية قوية ومهارة وذكاء، اعتبرها أبو بكر بن عمر غير قادرة على تحمل الظروف المناخية القاسية في الصحراء، فنصحها بالبقاء في المغرب الأقصى وعدم مرافقته^(٣). ونلمس التصور نفسه في إحدى التصنيفات التي صنف بها جغرافي عاش في الحقبة المرابطية عقول الناس إذ جعل عقل المرأة في منزلة بين العوام والأطفال «فعقول العوام أكثر من عقول النساء، وعقول النساء أكثر من عقول الصبيان»^(٤). أما ابن قزمان فقد جعل المرأة مرادفاً للغدر، وجردها من كل قيمة إنسانية، ووصفها بأنها لا تصلح إلا للقهر والقمع^(٥). في حين نظر إليها العامة نظرة تنم عن السوء والشك والريبة. ولا غرو فإن أمثالهم أوصوا بعدم الثقة بها، ونسبوا إليها كل أشكال الكيد والتحايل والشر^(٦). لذلك لم يكن غريباً في مجتمع يقوم على هذا النمط من التفكير أن يقسم رجل بقتل زوجته متى ولدت له بنتاً^(٧).

بديهي أن تنعكس هذه النظرة الدونية للمرأة في كيان المجتمع على وضعيتها داخل الأسرة. فقد اعتبرت الابنة البكرتحت وصية الرجل دائماً، سواء كان زوجاً أو ابناً أو وصياً أو حاضناً^(٨). وشعوراً من المرأة بدونيتها، عملت على توكيل رجال ينوبون عنها في القضايا المتنازع عليها^(٩). لكن غالباً ما اغتصبت حقوقها، وهو ما تكشف عنه إحدى النوازل التي ذكرت أن رجلاً توفي وترك عروضا وعقاراً استولى ابنه عليه «واستأثر بها دون أخته»^(١٠) وفي الاتجاه نفسه تحدثت نازلة أخرى عن «حبس على

(١) أبو مدين: انس الوحيد ونزهة المريد، ص ٣١٧.

(٢) ابن الزيات: م.س. ص ٢٥٨ - ٢٥٩ [ترجمة أبو زيد عبد الحليم بن تونارت الأيلاني]، وأردف ابن الزيات: هذا البيت:

وتسوق من خدع النساء حباثلاً إن النساء حباثل الشيطان
(٣) مؤلف مجهول: نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص ١٨٠ - ابن عذاري: م.س. ص ٢١ - ابن أبي زرع: م.س. ص ١٣٤.

(٤) أبو حامد الغرناطي: كتاب تحفة الألباب، ص ٢٧.

(٥) انظر ديوانه، ص ٥٩٠ - ٥٩٢ رجل ٨٩ ويقول فيها:

النساء كما في علمك الهروب منهم غنيمه
لس نرى لوحد منهم ما بقت في الدنيا قيمة
لعن الله من يعامل لرا يمت فليقة

والفليقة هي عارضة خشب تستعمل للضرب والتعذيب.

(٦) قالت العامة عدة أمثلة تفيد ذلك: «لس فالنسا خير ولا فمي». مثل رقم ١٢١٠ وكذلك: «لا تثق بقعبة ولو كانت أختك». مثل رقم ٢٠٢٧. وكذلك: «من عند ولي». عند بلي. مثل رقم ١٢٥٤ وكذلك: «إذا رأيت عجوز، ذكر الله وجوز». مثل رقم ٢٧، انظر: الزجاجي: م.س. ج ١ ص ٢٤٢.

(٧) ابن الحاج: م.س. ص ٢٨٨.

(٨) ابن رشد: م.س. ص ١٩٣.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٢١. والعروض هي المتاع المنقول (من غير الأموال).

الذكران دون الإناث^(١). كما اشترط رجل في وصيته عن أحباس حبسها على عائلته أن يكون منها الذكر ضعف حظ الأنثى^(٢). وبالمثل استفتي القاضي عياض بن رشد في امرأة كانت وصية على يتيم ثم تزوجت، فافتاه بأن المرأة إذا تزوجت غلبت عن حال أمزها^(٣)، وهو نص بالغ الدلالة في الكشف عن دونية المرأة وانحطاط وضعيتها داخل الأسرة. يتجلى ذلك فيما بيناه سالفاً من صور العسف والقهر الذي تعرضت له المرأة من قبل الزوج الذي منعها من أبسط حقوقها مثل زيارة أقاربها^(٤)، فضلاً عن تطاوله على صداقها أو نحلته^(٥) وميراثها^(٦).

انحصر عمل المرأة داخل الوسط الشعبي على الخصوص في القيام بالشؤون المنزلية من كنس وطهي طعام واستقاء ماء^(٧)، مما جعل مهماتها تنحصر بين جدران البيت، بينما مورست مهمات الرجل خارج البيت. فتقسيم العمل كان غالباً مجحفاً بحقوقها، مهماشاً لوجودها، إذ حولها إلى مجرد كيان تابع للرجل، وادى إلى قيام تفاوت بينهما على الدوام، مما جعل علاقتهما تتخذ طابع التبعية والاستغلال والتسلط. لكن هذه الوضعية اختلفت حسب المناطق والبيئات والوضع المادي للعائلة التي تنتمي إليها الزوجة.

ففي الأوساط الحضرية تجلى الدور الاقتصادي للمرأة في اشتغالها بغزل الصوف والنسيج، ولم يخف أحد الجغرافيين إعجابه بمهارة المرأة في سوس فاكد أن «لنساؤها يد في غزل الصوف، يعمل منه كل عجيب حسن بديع»^(٨). كما ساهمت ربوات البيوت كذلك في تربية دود الحرير^(٩)، فضلاً عن منتجات أخرى ذات قيمة استعمالية صنعتها لزوجها وأبنائها^(١٠) أو خصصتها للبيع والتبادل. فنساء سجلماسة كن يصنعن من غزل الصوف الإزار ويبيعهن به - ٣٥ ديناراً فأكثر. كما كن يصنعن الغنارات ويبيعنها بالثمن نفسه^(١١) وتجمع المصادر على أن بنات المعتمد بن عباد كن يغزلن الصوف للناس بالأجرة في مدينة أغمات^(١٢) كما أن بعض النساء زاولن الصنعة نفسها لتوفير ثمن أضحية العيد^(١٣).

- (١) المصدر نفسه، ص ٢٩١، حبس: وقف.
- (٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.
- (٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٧.
- (٤) انظر رواية مارمول عن نساء مكناسة اللاتي منعهن أزواجهن من الزيارات، وعدم السماح لهن بالخروج إلا للحمام. انظر: الرقيقيا ج ٢، ص ١٤١.
- (٥) فضلاً عما سبق ذكره انظر ما ذكره محمد بن عياض عن تطاول رجل على نحلة زوجته: م.س. ورقة ١٥٥.
- (٦) ابن رشد: م.س. ص ٢١٤.
- (٧) الزياتي: م.س. ص ١٦٠، وانظر رواية لابن الزيات حول رجل يأمر زوجته بالطبخ: م.س. ص ١٠٣ وكذلك ص ٣٦٨.
- (٨) الإدريسي: م.س. ص ٦٢، انظر كذلك القزويني: اثار البلاد واخبار العباد ص ٤٢ - ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ١٩٢.
- (٩) ابن الحاج: م.س. ص ١٠٦.
- (١٠) ابن الزيات: م.س. ص ١٠٦، ترجمة رقم ١١.
- (١١) ياقوت: م.س. ج ٣ ص ١٩٢ - حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: عصر المرابطين والموحدين، القاهرة، مكتبة الخانجي، ص ٣٦٢.
- (١٢) ابن خلكان: وفیات الاعيان ج ٥ ص ٣٥ - ابن العماد: شذرات الذهب ج ٢، ص ٢٨٨.
- (١٣) ابن الزيات: م.س. ص ٢٧٤.

تجيب: أما في الأسر البدوية، فإن وضعية المرأة اختلفت نسبياً عن نظيرتها في العائلات الحضرية، فاحتلت موقعا هاما في عمليات الإنتاج. ولا يخامرنا شك في أن وضعيتها المنتجة هاته فرضتها الظروف الاقتصادية وحاجة العائلة إلى مصدر ثان يضمن لها اكتفاءها الذاتي، لذلك ساهمت مساهمة فعالة في الميدان الزراعي^(١)، وساعدت زوجها خلال كل مراحل الموسم الفلاحي^(٢)، فضلاً عن الاشغال التي يتطلبها ترتيب البيت كاستقاء الماء من العين^(٣)، واحتطاب الحطب من الغابة^(٤)، وحلب البقر والماعز، واستخراج الزبدة من الحليب وتربية الدواجن^(٥).

كذلك ساهمت في بيع المنتجات والسلع، وحسبنا دليلاً على ذلك أن ابن تومرت وجد في قرية تاويريرت النساء يبعين اللبن^(٦): كما عرفت إحدى الأسواق بسوق الغزل كانت النساء يجتمعن فيها لبيع غزلهن^(٧). وفي المنحى نفسه ذكر أحد الجغرافيين أن أهل سوس كلفوا نساءهم بالتحرف والتكسب^(٨). وتضمنت نوازل ابن رشد عقد ابتياع تم بين امرأتين^(٩)، وآخر حول مساهمة امرأة في شركة رحي^(١٠)، فضلاً عن عقد شركة تم بين رجل وامرأة^(١١).

وعن سفور المرأة في الأوساط الشعبية، تضمننا شهادات البيدق^(١٢) في حيرة. فهو يؤكد أنه شاهد في كل المناطق التي مر بها بالمغرب الأقصى النساء سافرات الوجه. لكن الموضوعية تستلزم أن نتحفظ من مثل هذه الشهادات التي كانت تخدم أغراض الموحدين، إذ لم يفت بيدق المهدي التلويح بكل ما يندس كرامة المرابطين ويلطخ سمعتهم، لذلك فإن مواقفه جاءت مجحفة. فنوازل الحقبة المرابطية تؤكد عكس هذا الاتجاه، إذ ورد في إحداها مسألة حول «امرأة من أهل الحجاب والصون ادعي عليها بدعوى»^(١٣) كما تضمنت كتب الوثائق صيغة عقد حول بعض النساء المتحجبات^(١٤) وثمة شهادة أخرى وإن كانت متأخرة تفيد بأن نساء مكناسة كن «محجبات بخمارات من الصوف الأبيض الدقيق جداً لدرجة أن وجوههن لا ترى»^(١٥).

(١) ابن خیر: کتاب فی الفلاحة، ص ١٤١.

(٢) ابن الحاج: م.س. ص ٨٠.

(٣) البيدق: أخبار المهدي، ص ٢١.

(٤) الوزان: م.س. ج ١، ص ١٤٩.

(٥) دندش: م.س. ص ٣٠٢.

(٦) البيدق: م.س. ص ٢١.

(٧) ابن المناصف: م.س. ص ٢٢.

(٨) البكري: م.س. ص ١٦٢.

(٩) ابن رشد: م.س. ص ١٨٧ - ١٨٨.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٢٩. شركة رحي هي شركة بين شخصين في ملكية رحي تُستعمل للطحن ويعود ريعها على الشريكين.

(١١) ابن الحاج، م.س. ص ١٠٦.

(١٢) انظر وصفه لنساء وجدة، تاويريرت، مكناسة...: أخبار المهدي ص ٢١، ٢٥.

(١٣) مؤلف مجهول: كتاب في الفقه ص ٢٠٩، وقد نقل النازلة عن ابن الحاج.

(١٤) مؤلف مجهول، التقييد الأبوي، ورقة ١١٠ ب.

(١٥) مارمول: م.س. ج ٢، ص ١٤١.

وعلى أي، لا يمكن أن نساير زعم البيدق بأن جل النساء كن يبدن وجوههن، وإن لم يجلن. دون انتشار هذه الظاهرة في بعض المناطق، وفي الحواضر الأندلسية على الخصوص. بيد أن إلقاء نظرة على وضعية المرأة في عائلات الوجّهاء والأعيان يكشف اختلافها كلياً عما ذكرناه حول وضعية نظيرتها في الوسط الشعبي، مما يعكس التأثير الطبقي في تلك الوضعية؛ فمنزلة المرأة في البيت والمجتمع استندت إلى المنزلة المادية لأهلها، الشيء الذي يؤكد خطأ تعميم الأحكام حول حرية النساء ونفوذهن في العصر المرابطي^(١). وقد فطن إلى ذلك أحد الباحثين^(٢) فأكّد أن الصورة المشرقة التي أمدتنا بها المصادر حول المرأة في الدولة المرابطية لا تنسحب إلا على بنات الوجّهاء، ولو أنه لم يدل بحجة في الموضوع.

والواقع أن الظاهرة النسائية برزت بجلاء في أوساط الخاصة، وتمتعت المرأة بحرية واسعة، ومكانة كبيرة داخل الأسرة، وهي ظاهرة اختلف الدارسون في تفسيرها. فبالنسبة للمغرب الأقصى، عزاها البعض^(٣) إلى البيئة البربرية التي اعتادت فيها المرأة على الحرية والنفوذ. بينما ردها البعض^(٤) إلى التأثير القبلي القائم على مبدأ المساواة. أما بالنسبة لاندلس فقد أرجعها بعض الباحثين^(٥) إلى تأثير حضارة الغرب المسيحي، وكذا الحضارات التي امتزجت مع الإسلام في الشرق. ونعتقد أن تفسير الظاهرة النسائية بالبيئة البربرية لا يستقيم مع التفسير الموضوعي، إذ أن كثيراً من المناطق البربرية باستثناء صنهاجة الصحراء، لم تتمتع فيها النساء بنفس القدر والمكانة، كما أن القول بالتأثير المسيحي قول مردود لا يعززه الواقع التاريخي. وحسبنا دليلاً على ذلك أن المرأة في الغرب المسيحي لم يكن لها حق اختيار الزوج، وظلت هي نفسها مكبوتة الرغبات؛ فعندما أرادت أوركا ابنة الملك فرننדה الزواج «بالسيد»، حال أبوها دون تحقيق رغبتها^(٦). أما القول بالتأثير القبلي فهو تفسير يعزل الظاهرة عن بنائها التحتي، فضلاً عما خلصنا إليه من خطأ فكرة مبدأ المساواة داخل القبيلة.

والتفسير السوري - حسبما نظن - يرجع إلى المكانة الاقتصادية التي تمتعت بها بعض النساء سواء داخل القبائل الصنهاجية أو غيرها من المناطق. وفي هذا الصدد أورد أحد الباحثين^(٧) إحدى مسائل ابن رشد التي تكشف عن نفوذ امرأتين أندلسيتين وتصرفهما بحرية في شؤونهما المالية. ولا غرو فإن إحداهما كانت زوجة للفتية أبي عبد الملك الخولاني، بينما كانت الثانية زوجة أبي

(١) وقع في هذا الحكم معظم الدارسين، انظر على سبيل المثال:

Mones, *Les Almoravides: Esquisse historique*, p.67.

انظر: صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، م ١٤ سنة ١٩٦٧ - ١٩٦٨.

(٢) حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، طبعة البيضاء ١٩٦٥، ج ١، ص ١٣٠ - ١٣١.

(٣) Marçais, *La Berberie Musulmane*, p.244-45, Dozy, *Histoire de l'Islamisme*, p.362.

(٤) دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، ٤٣٠ - ٥١٥ هـ، بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٨. ص ١٢٦، ومنى حسن: الحضارة في مراکش خلال عهدي المرابطين والموحدين ص ٢٩٠ - ٢٩٢.

(٥) Guichard, *Structures orientales et Occidentales*, p.164, 368.

(٦) حايك: الأندلس على عهد ملوك الطوائف وقدم المرابطين إليها ص ٤٢.

(٧) إحسان عباس: منوأل ابن رشد، مجلة الأبحاث ١٩٧٨ - ١٩٧٩ ص ١٢ - ١٤.

القاسم بن بدرون^(١)، وهما معاً من طبقة الخاصة والوجهاء. نجد مصداقاً لهذا الظنون، ما ذكره الأعمى التطيلي^(٢) في إحدى قصائده التي تدل على أن نفوذ المرأة استند على مكانتها الاقتصادية وعطاءاتها.

ومهما كان الأمر، فقد انفرزت المرأة في العائلات الوجيبة بمكانة رفيعة، واعتبرت نداً للرجل، تقف معه على قدم المساواة، بل تفوقه أحياناً، وتجمع الثروات عن طريق الميراث^(٣)، وتمتلك العبيد^(٤)، وتخرج إلى ساحة الحرب^(٥). ومعلوم أن المرأة الصنهاجية شاركت في مجلس القبيلة إبان الطور الصحراوي، وحركت من خلف الستار أمهات الأمور السياسية في الطور المغربي. وساهمت في الحياة الاجتماعية مساهمة فعالة، وتعاظمت الشعور وكل ألوان الثقافة دون أن يحرك الفقهاء ساكناً. ولم تهتم بالأعمال المنزلية التي وكلتها إلى الإماء والعبيد، بينما كرسست جل أعمالها خارج البيت، مما سمح لها بلعب أدوار متنوعة نحاول الإلمام بخطوطها العريضة.

إذا كنا قد أبدينا بعض الشكوى حول مصداقية أحكام المؤرخ البيديق في موضوع سفور المرأة في عائلات العامة، فلا نملك ذرة من الشك حول انتشار هذه الظاهرة لدى نساء العائلات الأرستقراطية، وعلى الخصوص تلك التي تولت مقاليد التسيير والحكم. فالمرأة في هذه الأوساط تمتعت بقسط وافر من الحرية، ولم تشعر بأي نقص أو عيب في سفورها. وقد نشأت معها هذه العادة منذ أن كانت مقيمة في الصحراء. وتجمع المصادر على أن ابن تومرت وجد أخت الأمير علي بن يوسف بمعية جواريتها وهن سافرات الوجه في إحدى أزقة مراكش، فصب جام غضبه عليهن وزجرهن حتى أسقطت الأميرة عن دابتها^(٦). ويفهم من اعتراض ابن تومرت أن مسألة السفور لم تكن عامة بالنسبة لنساء المجتمع، وإلا انتفى وجه الاعتراض عليه^(٧). مما يرجح القول أن سفور المرأة ظل سائداً في أوساط الخاصة فحسب، مع بعض الاستثناءات دون شك.

بديهي أن توفر ظروف الحرية التي نعمت بها المرأة في هذه الأوساط إمكانية قيامها بأدوار متنوعة.

فعلى الصعيد السياسي، لعبت المرأة في عائلات الأعيان والوجهاء دوراً قل نظيره، إذ كان لها ضلع واسع في نشأة الدولة المرابطية. مصداق ذلك، الدور الخطير الذي قامت به زينب التفزاوية، وهي بنت تاجر كبير من القيروان، نشأت في جو متحضر^(٨)، واكتسبت من الحنكة والدهاء ما جعلها

(١) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٢) يفهم ذلك من هذين البيتين اللذين مدح فيهما التطيلي الحرة حواء بنت تاشفين بقوله:
أنشئ سما باسمها وكلم ذكر يدعى اسمه من لؤمه لقب
وقلما نقص التانيث صاحبه إذا تذكرت الأفعال والنصب
انظر: ديوانه، ص ١٧.

(٣) ابن رشد: م.س. ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٥) انظر نموذج فانوبنت عمر بن يتان: البيديق: م.س. ص ٦٤.

(٦) النويري: م.س. ج ٢٤ ص ٢٧٩.

(٧) حسن علي حسن: م.س. ص ٣٥٥.

(٨) الزياتي: الترجمان المغرب... (مخ) ص ٢٧٥.

تتفوق على الرجال وتفرض شخصيتها ونفوذها في شؤون السياسة والحكم، وهو ما عبر عنه ابن خلكان بقوله: «وكانت من أحسن النساء، ولها الحكم في بلاده»^(١). ولا غرو فقد لعبت دور المستشار ليوسف بن تاشفين الذي امتثل لنصائحها^(٢)، وكلما عنت له مشكلة أو اعتورته صعوبة لجأ إليها لتقديم له الحلول الناجعة^(٣)، بل إليها يرجع الفضل في تدبير فتح المغرب. فقد أثر عن زوجها أنه كان يقول لبني عمه إذا خلا بهم وورد ذكرها، إنما فتح البلاد برأيها^(٤)، فاستقامت له الدولة وترسخت جذورها بفضلها وحنكتها. وكانها^(٥)، وهذا ما جعل باحثاً معاصراً^(٦) يشبه دورها بما قامت به كل من خديجة وعائشة زوجتي الرسول عليه السلام في التمكين للدعوة الإسلامية.

وتجلى النفوذ السياسي للمرأة داخل العائلة الحاكمة في تدخلها في أمر ولاية العهد. وعزل الولاة^(٧) والقضاة وردهم إلى مناصبهم^(٨). بل إن إحدى النساء تزعمت إحدى قبائل مسوفاة في منطقة تغارة جنوبي المغرب قرب المحيط الأطلسي^(٩). وتشير المصادر إلى أن إحدى الم رابطيات تمكنت بعد اجتياح الجيوش الموحدية لمراكش من إقناع عبد المؤمن بن علي بإطلاق سراحها مع كل النساء اللاتي كن معها وقد بلغ عددهن ١٥٠٠، فامتثل الخليفة الموحد لها، وأمر بإطلاقهن معززات مكرمات^(١٠).

ونظراً لما تمتعت به المرأة من دور سياسي بارز في الدولة، فقد تغنى بفضائلها الشعراء، فتمخض عن ذلك ما يعرف «بأدب المرأة». وإذا كان هذا اللون الأدبي قد وجد في مراحل تاريخية أخرى، وفي الأندلس على الخصوص، فإنه لم يبرز بهذه الكمية التي جاءت انعكاساً أميناً لنفوذها الاجتماعي والمادي. وحسبنا أنها لم تقل شأناً عن الأمراء في رعاية الشعراء وإجزال العطايا لهم^(١١) فأصبحت مقصداً لذوي الحاجات لشفاعتها، تهب المنح السنية، وتعفو على المسجونين، وترد المنكرين إلى مناصبهم. ويذكر بهذا الخصوص أن الشاعر ابن خفاجة كتب إلى الأميرة مريم بنت أبي بكر بن تيفلويت قصيدة طويلة يتشفع بها إلى زوجها الأمير أبي الطاهر تميم، فنفذت عهده بأجمل وجوه البر والمكرامات^(١٢).

علاوة على الأدوار السياسية المتنوعة التي قامت بها المرأة داخل العائلة الحاكمة، قامت أيضاً

(١) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٥ - بروفسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٥٢ - Dozy. Histoire de l'islamisme. p. 362. 366.

(٢) Boshvila. Los Almoravides. p. 97.

(٣) العلووزي: نظم السلوك. ص ٤٩. ويقول في أرجوزته:

فكلما جرت عليه شدة وجدها لكشفها معده

(٤) ابن عذاري: م.س. ص ٢٠.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ج ٣، ص ٢٢٢.

(٦) Mones. Op. Cit. p. 65.

(٧) حسن علي حسن: م.س. ص ٣٦٠.

(٨) انظر قصة عزل زينب النفزاوية لأحد القضاة ثم رده بعد أن مدحها: النويري: م.س. ص ٢٦٥.

(٩) القزويني: م.س. ص ٢٦.

(١٠) حسن علي حسن: م.س. ص ٣٥٥ - البيهقي: م.س. ص ٩١ - ٩٢.

(١١) بنصبيح: التصوير الأدبي للوجود المرابطي بالأندلس. ق ٢ (رسالة جامعية مرقونة) ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(١٢) انظر ديوانه ص ٩٦ - ٩٧.

بدور هام على المستوى الحربي. وتميزت النساء المرابطيات بالشجاعة والإقدام، وتدوين على الضرب والطعان وأعمال الفروسية. وفي هذا الصدد تذكر وثيقة مسيحية وجدت في «الكوباز» سنة ١٥٩٦ م أن جيش المرابطين ضم عدداً من النساء اللاتي شاركن في إحدى المعارك سنة ١١٣٩ م، وأنهن كن يرتدين ثياب الرجال، ويقاتلن على طريقة الفرسان^(١). ويذكر أحد المؤرخين^(٢) أن زوجة تاشفين بن علي خرجت مع هذا الأخير على الفرس بنفسه إبان المواجهة الأخيرة مع الموحديين في وهران. وشهد البيدي^(٣) رغم عدائه للمرابطين ببسالة فانوبنت عمر بن ينتيان التي قاومت الموحديين في هيئة رجل، واستطاعت أن تنتزع دهشة وإعجاب الجيش الموحيدي. أما دورها الاجتماعي فتمثل في اشتغالها بالطب. وقد احتفظت كتب التراجم بأسماء بعض النساء اللاتي عشن في الفترتين المرابطية والموحدية، وبرزن في العلوم الطبية كأم عمر بنت أبي مروان بن زهر التي وصفت بأنها «متقدمة في الطب، ماهرة في التدبير والعلاج»^(٤). ولا غرو فإنها كانت تزور قصور الأمراء، وتتنظر في علاج أمراض نسائهم وأطفالهم وإمائهم. يضاف إليها أخت أبي بكر بن زهر التي اشتهرت بخبرتها في معالجة النساء^(٥)؛ كما أن بعضهن ساهمن في بعض الأعمال الخيرية الاجتماعية مثل الحرة بنت تاشفين التي ساهمت بمالها الخاص للزيادة في بناء جامع مرسية^(٦).

ولم يقل دور المرأة الارستقراطية في المجال الثقافي شأنًا، إذ تعاطت العلوم والمعرفة بشكل ملفت للانتباه. فعزيزة بنت محمد بن نميل سمعت من القاضي أبي بكر بن العربي^(٧). وكانت حفصة بنت قاضي مراكش موسى بن حماد «من فضلاء النساء وخيارهن، قارئة كاتبة لها معرفة جيدة بالفرائض، وكانت تذكر كثيراً من فتيا أبيها»^(٨).

ويذكر ابن الخطيب^(٩) أن مريم بنت إبراهيم المرادي كانت من أهل الذكاء والنبيل، ذات خط بارع وقرينة جيدة. أما بنت الفقيه الصفدي فكانت تحفظ القرآن وتقوم عليه وتذكر كثيراً من الحديث في الأدعية وغيرها، إلى جانب اهتمامها بمطالعة الكتب^(١٠). ولم تقل بنت الكاتب أبي محمد بن عطية عنهن شأنًا إذ أنها «كانت من أهل الفهم والعقل، حاضرة النادرة، سريعة التمثل، لها تواليف»^(١١).

وساهمت النساء كذلك في مجالس العلم، فروين الحديث وقرآن على الشيوخ. وبهذا الخصوص

(١) انظر اشباح: تاريخ الاندلس على عهد المرابطين والموحدين. ترجمة عبد الله عنان. القاهرة ١٩٥٨ (ط ٢)، ص ٢٤٦.

(٢) مارمول: م.س. ج ١، ص ٢٣٠.

(٣) اخبار المهدي، م.س. ص ٦٤.

(٤) ابن عبد الملك: م.س. ج ٨ ق ٢، ص ٤٨٢.

(٥) ابن أبي أصيبعة: م.س. ص ١١٢.

(٦) ابن رشد: م.س. ص ٢٨٦.

(٧) ابن الزبير: م.س. ص ٥٦٥ - ٥٦٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٥٦٧.

(٩) الإحاطة: نصوص جديدة، ص ٤٠.

(١٠) ابن عبد الملك: م.س. ج ٨ ق ٢، ص ٤٨٩.

(١١) مؤلف مجهول: طبقات الملكية (مخ) ص ٢١٩.

تتردد عدة أسماء مثل طونة بنت عبد العزيز التي أخذت عن أبي عمر بن عبد البر كثيراً من كتبه وتواليفه، وعن العذري الدلائي، ثم زوجها نفسه^(١). كما نسمع عن امرأة أخرى تدعى ربحانة، قرأت على يد أبي عمر المقرئ، وحضرت مجالسه^(٢). واشتهرت بغض النساء بمهارتهن في الكتابة، إذ كن ينسخن المصاحف وكتب العبادات ويبعثنها إلى الوراقين^(٣) بل إن بعضهن أصبحن من العالمات الجليلات اللاتي سطع نجمهن وطارت شهرتهن فقصدهن الرجال للأخذ عنهن^(٤).

وفي ميدان الأدب، أصبحت غير واحدة من النساء ممن يشار إليهن بالبنان، وفي مقدمتهن الحرة حواء بنت تاشفين التي وصفها ابن عذاري^(٥) بأنها «شاعرة جلييلة ماهرة، كانت تحضر مجالس الأدب مع الشعراء، وتفوقهم بداهة وفطنة، وتحاضرهم في كل الأغراض الأدبية، ونزوهن الفرناطية بنت القلاعي التي عرفت بخفة روحها وحفظها الشعر وإحاطتها بالأمثال^(٦)، مما جعل ابن سعيد يبدي إعجابه بمكانتها الأدبية^(٧)، إلى جانب حفصة بنت الحاج الركوني التي لها «على سائر بلاد الأندلس مزية»، وكانت ترتجل الشعر^(٨). ويذكر ابن الأبار^(٩) في ترجمة القاضي عبد الحق بن غالب (ت ٥٤١ هـ) أنه لما عين في منصب القضاء بالمرية، وطلب منه الالتحاق بها، أظهر وجداً لمفارقة أهله وعائلته، فارتجلت ابنته بيتاً شعرياً خفف من حدة الامة.

وبالمثل، فإن تميمية بنت يوسف بن تاشفين، كانت إلى جانب فطنتها وأدبها ورجاحة عقلها إدارية بارعة، تقوم بحاسبة الكتاب، وتقرض الشعر^(١٠)، فضلاً عن حواء وزينب بنتي الأمير إبراهيم بن تيفلوليت^(١١) وورقاء بنت ينتان^(١٢) ومهجة بنت عبد الرزاق^(١٣) وحمدة واختها زينب^(١٤) والشلبية^(١٥).

نخلص مما سبق أن المرأة في العائلات الوجيبة عموماً، تمكنت بفضل إمكانياتها المادية، والحرية التي نعمت بها، من لعب أدوار طلائعية في كل المجالات، مما جعلها تحظى بالتقدير والاحترام على صعيد المجتمع والأسرة، وهذا ما يفسر اعتزاز بعض الرجال من تلك العائلات ذاتها

- (١) ابن بشكوال: كتاب الصلة ج ٢ ص ٦٥٨.
- (٢) الضبي: بغية الملتبس، ص ٣٩٩.
- (٣) دندش: «معاد العلم والتعليم بالأندلس في عهد المرابطين»، مجلة دعوة الحق، ج ٢٥٨، غشت ١٩٨٦، ص ٩٦.
- (٤) ابن عبد الملك: م.س. ج ٨ ق ٢، ص ٤٩٤.
- (٥) البيان ج ٤، ص ٥٧.
- (٦) السيوطي: نزهة الجلساء من اشعار النساء ص ٩٨ - ابن عبد الملك: م.س. ج ٨ ق ٢ ص ٤٩٣.
- (٧) رايات المبرزين... ص ٦٠ - وانظر كذلك: ابن الخطيب: الإحاطة... ج ١، ص ٤٩١ - المقرئ: نفح ج ٤، ص ١٧١.
- (٨) المصدر نفسه، ص ٦١.
- (٩) المعجم، ص ٢٦٠.
- (١٠) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ج ١، ص ١٧٣ - ١٧٤.
- (١١) ابن عبد الملك: م.س. ق ٢، ص ٤٨٩.
- (١٢) ابن القاضي: م.س. ج ٢ ص ٥٣٣ رقم ٦١٤ - ابن عبد الملك: م.س. ج ٨، ص ٤٩٣.
- (١٣) ابن عبد الملك: م.س. ج ٨ ق ٢ ص ٤٩٢.
- (١٤) ابن الخطيب: م.س. ج ١، ص ٤٨٩ - ٤٩٠.
- (١٥) المقرئ: م.س. ج ٤، ص ٢٩٤.

بالانتساب إلى أمهاتهم. يقول أحد المؤرخين^(١) بهذا الخصوص: «وكذلك جميع الملثمين يتقادون لامور نسائهم، ولا يسمون الرجل إلا بأمه فيقولون ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان» وهي إشارة إلى المكانة المرموقة التي احتلتها المرأة داخل العائلة. لكن يبدو أن هذه الظاهرة انحصرت في عائلات قليلة من الملثمين على الخصوص. وقد ترجع إلى النظام الأموسي الذي كان سائداً في عصور سحيقة. وتلاحظ الظاهرة نفسها في الشرق الإسلامي في الحقبة ذاتها، إذ يذكر الذهبي عدداً من الأعلام الذين انتسبوا لامهاتهم^(٢).

وعلى كل حال، فقد اشتهر العديد من الرجال من قبائل صنهاجة الجنوب على الخصوص بأسماء أمهاتهم، ووجدوا في ذلك نوعاً من التشريف والاعتزاز. فإبراهيم بن يوسف بن تاشفين عرف «بابن تعيشت اسم امه»^(٣). واشتهر الأمير محمد بن عبد الله بن يغممر للمتوني باسم «ابن حواء»^(٤). كما انتسب بعض الولاة وقادة العسكر إلى أمهاتهم كذلك: وحسبنا أن والي بلنسية عرف بمحمد بن فاطمة^(٥). كما عرف أحد ولاة قرطبة باسم عبد الله بن جنونه^(٦)، بينما اشتهر القائد ابن عائشة بقيادته للجيش المرابطية^(٧)، والأمثلة تطول^(٨).

ولم يخرج بعض القضاة عن القاعدة ذاتها، فعندما مر ابن تومرت بمدينة فاس، أخذ يكسر أدوات اللهو والغناء الموجودة على واجهات الدكاكين، فاتجه التجار إلى قاضيهم يشتكون إليه. وقد عرف هذا القاضي باسم «ابن معيشة»^(٩). كما لم يجد بعض شيوخ العلم أي غضاضة في الانتساب إلى أمهاتهم^(١٠).

وحسب ما يذكره الأستاذ ليفي بروفنسال^(١١) فإن اسم ابن تومرت نفسه يدل على صيغة التانيث، ويستنتج من ذلك أنه اسم إحدى جداته، فغلب على نفسه. لكن سبق أن بينّا أن كلمة تومرت تعني في اللهجة البربرية «صار قرحاً وسروراً».

بعد أن وقفنا على وضعية المرأة، لا بد من الإشارة - ولو في عجلة - إلى وسائل الزينة والتجميل التي كانت تستعملها لارتباط الموضوع بالحياة العائلية.

(١) النويري: م.س. ص ٢٦٥.

(٢) سير أعلام النبلاء، القاهرة (دون تاريخ) ج ٦ ص ١٢٣، ١٢٨، ١٥٠.

(٣) ابن القطان: م.س. ص ٨٢ - ابن الأبار: المعجم، ص ٥٦.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة: نصوص جديدة، م.س. ص ٦١.

(٥) ابن عذاري: م.س. ص ٤٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٧) ابن بسلام: م.س. ق ٢ م ٢ ص ٨٨٧ - ابن عبد الملك: م.س. ج ٥ ص ٥٢٦ - الأصفهاني: م.س. ق ٤ ج ٢ ص ٩٨.

(٨) نثر في المصادر على اسم إبراهيم بن تافلويت: ابن أبي زرع: م.س. ص ١٦١ - ١٦٢. وكان والي فاس إبان الحصار الموحدى يدعى «ابن الصحراوية» نسبة إلى أمه: انظر ابن الأبار: الحلة.. ج ٢ ص ٢٢٦، كما أن أحد ولاة المرابطين كان يسمى يحيى بن فانو نسبة إلى أمه كذلك. انظر ابن بسلام: م.س. ق ٢ م ٢ ص ٨١٦.

(٩) البيهقي: م.س. ص ٢٤.

(١٠) ابن عبد الملك: م.س. ج ٥ ق ٢ ص ٥٦١ - ٥٦٢. ويذكر من جملة الشيوخ الذين أخذ عنهم ابن عائشة أبا الحسن بن سكين.

(١١) الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٢٨٦.

تحدث الجغرافيون عن نساء المغرب والأندلس فوصفوهن بأفخم عبارات الحسن والجمال ففي نساء سوس جمال فائق وحسن بارع وجمال ظاهر^(١). أما نساء البصرة فقد اشتهرن «بالجمال الفائق والحسن الرائق، ليس بأرض المغرب أجمل منهن»^(٢). كما تميزت بعض البيوتات بفاس بحسن نسائها، خاصة تلك التي سكنت في زقاق ميزاب ابن جنين^(٣). وعُرفت نساء برغواطة أيضاً بجمالهن وروعة خلقهن^(٤). ووصف مؤرخ^(٥) نساء حاحة بأنهن «بيض متوسطات البدانة في غاية الطرف واللطف». وفي المناطق الصحراوية اشتهرت النساء اللامتونيات بجمالهن حتى أن زينب النفزاوية «كان يضرب بها المثل بحسنها»^(٦). وقد طلق أحد المتصوفة زوجته خشية الفتنة من جمالها والانغماس في ملذات الدنيا^(٧).

ولم تقل المرأة الأندلسية عن نظيرتها المغربية جمالاً حتى أنها عرفت لدى العامة باسم «الثريا» كناية عن جمالها وفتنتها^(٨). وتعتبر أزجال ابن قزمان^(٩) عن روعة جمال النساء القرطيبات اللاني اثرن إعجابه. ولم يخف ابن حمديس^(١٠) الإعجاب نفسه كما يتجل ذلك في قصائده الشعرية.

فضلاً عن جمالها الطبيعي، اهتمت المرأة بتزيين نفسها، فاعتنت بصحة جسمها. ذكر أحد الجغرافيين^(١١) أن نساء سجلماسة كن يأكلن حيواناً يسمى الخردون (أقزم باللغة البربرية) لتسمين أبدانهن، ويبدو أن جل النساء اهتمن بصحة أجسامهن حتى أن بعضهن كن يفطرن في رمضان خشية النحافة^(١٢) كما كن يدهن شعر رؤوسهن بزيوت أرغان ليطول ويتكسر، ويمسك لون السواد^(١٣) ويجعلن الحناء في أيديهن وأرجلهن^(١٤) ويتحلين بالقصة^(١٥) أو يجعلن في عنقهن سلكاً من

(١) الإدريسي: م.س. ص ٦٢.

(٢) البكري: م.س. ص ١١٠ - الاستبصار، ص ١٨٩.

(٣) ابن القاضي: م.س. ق ٢، ص ٥١٨.

(٤) البكري: م.س. ص ١٣، ١٤٠. زيت أرغان: سمي كذلك نسبة إلى شجر أرغان الموجود في جنوب المغرب وكان يستعمل قديماً في الإنارة وفي تهيئ الفطائر والسمك. كما كان يستعمل لمعالجة الشعر. ولا يزال هذا الزيت الحلو المذاق يستعمل في المغرب خاصة في العائلات السوسية.

(٥) الوزان: م.س. ج ١، ص ٨٠.

(٦) الزباني: بغية الناظر... (مخ) ص ١١٨.

(٧) ابن الزيات: م.س. ص ٢٤٦.

(٨) الأمواني: الفاظ مغربية، ص ١٥١.

(٩) انظر ديوانه: ص ٢٢٦ زجل ٥٠ ويقول فيه:

| | | | |
|--------|-------|--------|---------|
| من رأى | مليح | بحال | الهلل |
| كتفاح | يعبني | من تحت | الدلال |
| حواء | السمر | واملح | من غزال |
| شط | بيض | مثل | القطنون |
| عين | كحل | وحاجب | مقرون |

(١٠) انظر ديوانه، ص ٢٢٢.

(١١) الإدريسي: م.س. ص ٦١.

(١٢) الونشريسي: م.س. ج ٢، ص ٤٨٧.

(١٣) الإدريسي: م.س. ص ٦٥.

(١٤) ابن الزيات: م.س. ص ٢٢٧ - ابن القاضي: م.س. ق ٢، ص ٤٢٢.

(١٥) الوزان، م.س. ج ١، ص ١٤٥.

الذهب^(١)، فضلاً عن الخواتم والأساور واللباس اللينق الذي يزيدهن فتنة وسحراً^(٢). وقد رأى ابن تومرت عند مروره بقرية صاء (تاويريت الحالية) النساء مجليات مزينات وهن يبعن اللبن^(٣).

أما المرأة الأندلسية فقد برزت نظيرتها المغربية بفضل المستوى الحضاري الذي بلغته الأندلس، ومحاذاتها للممالك النصرانية، فكانت تضفر شعرها أحياناً، وترسله على اكتافها أحياناً أخرى^(٤)، وتصيفه بالسواد والشقر^(٥)، وتكحل بالإنشد^(٦)، وتتحل بكل أنواع الزينة من ذهب وديباج وتفاش^(٧). ونظراً لتقدم صناعة العطور، فقد استعملتها النساء بكثرة^(٨).

ويعدنا السقطي^(٩) بأنواع المساحيق التي استخدمتها الجوارى والنساء اللاتي يرغبن في تبييض بشرتهن، فذكر منها سائلاً يصنع من الباقلاء وينقع في ماء البطيخ ستة أيام، ثم لين حليب سبعة أيام يحرك كل يوم ويطل على الوجه، فيعطي لها بياضاً مؤقتاً. أما إذا رغبت المرأة في لون ذهبي فتستعمل الكروياء المغلوة في الماء حتى تتلون وتجعلها على وجهها مدة أربع ساعات فتصير بشرتها ذهبية. ولإعطاء خدودها لوناً وردياً تستعمل المرأة غاسولاً من دقيق الباقلاء خمسة أجزاء من الكرسنة، وعروق الزعفران، وورق الحناء من كل واحد ربع جزء، ويغمر بذلك. ولصبغة شعرها باللون الأسود، استعملت دهن الأس، ودهن قشر الجوز الرطب ودهن الشقائق الذي يغسل بطبيخ الأملج. وعالجت النمش والوشم بغاسول مصنوع من عروق القصب واللوز المر والكرسنة والباقلاء وحب البطيخ معجوناً بالغسل^(١٠).

وكانت النساء المرابطيات في مراكز تجمعن شعورهن فوق رؤوسهن كأسنمة البخت^(١١)، وتخرجن - إذا ما صحت شهادة ابن تومرت^(١٢) - «كاسيات عاريات»، وهي إشارة واضحة إلى الميوعة الأخلاقية التي صاحبت الدولة المرابطية في مرحلة الهرم. وهو ما يركبه نص المراكشي^(١٣) الذي ذكر انهن أصبحن يعاشرن المخمرين وقطاع الطرق. لكن يبدو أن مثل هذه النصوص خضعت لتأثير الدعاية الموحدية، ولذلك جاءت في صيغة تعميمية قدحية.

(١) ابن الزيات: م.س. ص ١٧٥ [ترجمة أبو بكر بن فاخر العبدري (ت ٥٥٩ هـ)].

(٢) الوزان: م.س. ص ١٤٦.

(٣) البيهقي: م.س. ص ٢١.

(٤) ابن قزمان: م.س. ص ٣١٠ زجل ٤٥.

(٥) استنتاجاً من ابن زهر: جامع أسرار الطب، ص ٣٨.

(٦) ابن حمديس: م.س. ص ٥٤٤، ٥٥٨. الإنشد: حجر يكتحل به في العين ويستعمل أحياناً في معالجة أمراض العين. ولا يزال يستعمل بالغرب في بعض الأوساط التقليدية، وخاصة البوادي، للتجميل.

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة... ج ١ ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٨) ابن الخطيب: معيار الاختيار... ص ١٠٩. ويقول عن أهل بسطة «وثياب أهلها تتأرجح وحورها تتحل وتبرج».

(٩) رسالة في الحسبة، م.س. ص ٥٠ - ٥١. الكروياء: برز نبات يشبه الرجل، ومر في الأصل لفظ يوناني.

(١٠) دندش: معاهد... م.س. ص ١٨٩. والأملج شجر يوجد بكثرة في الهند.

(١١) أسنمة مفردة سنم: ظهر الإبل. والبخت هي الإبل الخرسانية، ولا تزال نساء الصحراء المغربية إلى اليوم يجمعن شعورهن إلى الأمام بشكل السنم على عادة النساء المرابطيات.

(١٢) انظر: اعز ما يطلب، ص ٢٤٣.

(١٣) المعجب، ص ٢٦٠.

صحيح أن بعض النساء المرباطيات. انجرفن في تيار الحضارة الاندلسية، لكن لا يجب الخلط بين هذا التيار، والحرية التي تمتعن بها، إذ أن هذه الحرية لم تكن مرادفاً للميوعة الاخلاقية التي صورها ابن تومرت أو داعيته البيدق ومن هذا حذوهم من مؤرخي الموحدين. فالمرأة المرباطية لم يخنها عفافها حتى في الظروف المناسبة. وحسبنا دليلاً على ذلك ما تناقله المؤرخون عن تيمية بنت يوسف بن تاشفين، التي استدعت أحد كتابها لمحاسبتها، فوقع بصره عليها فاندش لجمالها، فلما فطنت به أبعدته بطريقة ذكية^(١). وكانت ورقا بنت ينتان رغم قولها الشعر «صالحة حافظة للقرآن»^(٢). أما زينب بنت تيفلويت «فكانت من أهل الخير والتصاوت والصدقات والنوازل»^(٣). كما أن رثاء بعض الشعراء^(٤) لإحدى النساء المرباطيات وذكر مكارمها ينهض حجة أخرى على عدم صحة الاتهامات التي وجهت للمرأة المرباطية بكيفية عامة دون تحديد.

وبعيداً عن الوسط المرباطي، لم يخل المجتمع من بعض النساء الصالحات. فزينب بنت عباد بن سرحان «كانت دينة فاضلة كثيرة الاوراد صوامه قوامه»^(٥). كما أن بنت الفقيه الصفدي المستشهد في غزوة كتندة سنة ٥١٤ هـ «نشأت صالحة زاهدة تحفظ القرآن وتقوم عليه»^(٦). وفي المنحى نفسه ذكر العزفي^(٧) عن زوجة الشيخ ابن يعزى أنها «كانت لا تنام الليل صلاة». ووجدت كثير من النسوة ممن يعتقدن في الاولياء والصلحاء^(٨). بل إن بعضهن فضلن حياة الزهد والاعتكاف على العبادة والانقطاع إلى الله وهن في ريعان شبابهن^(٩).

نستنتج من ذلك أن زينة المرأة لم تجرأ إلى الميوعة الاخلاقية، وإن كانت بعض الاوساط المتمدنة لم تسلم من هذه الآفة^(١٠).

حصيلة القول أن وضعية المرأة داخل الأسرة، تباينت حسب الوضع المادي للعائلات. فبينما ظلت سجيئة البيت في الأسر الفقيرة، خاضعة لسلطة وتبعية الرجل، ولا يتعدى مجال عملها في البلدية العمل في الحقل أو بيع المنتجات، تمتعت في العائلات الموسرة بقسط واسع من الحرية مكنها من ولوج عالم الثقافة والفكر والسياسية والقيام بأدوار اقتصادية واجتماعية هامة.

رابعاً: تربية الأطفال

لا جدال في أن التربية تعد حجر الزاوية داخل الحياة العائلية، وهي عملية تسعى إلى تنشئة

(١) ابن القاضي: م.س. ج ١، ص ١٧٢ - ١٧٤.

(٢) ابن القاضي: م.س. ق ٢، ص ٥٢٢.

(٣) ابن عبد الملك: م.س. ج ٨ ق ٢، ص ٤٩٨.

(٤) الأعمى التيطلي: م.س. ص ٦٩.

(٥) ابن عبد الملك: م.س. ص ٤٨٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٩٨.

(٧) دعلامة اليقين... ص ١٢٨.

(٨) التنبكتي: كفلية المحتاج... ج ٢، ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٩) ابن الزيات: م.س. ص ٩٤، ٢٦٦، ٢٦٢ - عباس بن إبراهيم: الاعلام ج ٣، ص ٦.

(١٠) انظر النازلة التي وردت على ابن رشد حول امرأة من المرية حملت من زنى مرتين وقتلت ما ولدت: م.س. ج ٥ ص ٨٨٤ (تحقيق).

الطفل ونقل المعرفة إليه انطلاقاً من الموروث الحضاري والبيئة الاجتماعية، وتكوينه جسدياً وفكرياً وأخلاقياً لتحمل مسؤولياته داخل المجتمع.

ولم تخف هذه الأهداف عن المفكرين الذين عاصروا الحقبة المرابطية، فالحضرمي^(١) تحدث عن العوائد وكيفية التحكم فيها منذ الصغر، محذراً من صعوبة الابتعاد عن العادات السيئة بعد استحكامها^(٢). كما سطر القواعد الأخلاقية التي تهدف إلى صقل شخصية الفرد واندماجه مع مجتمعه^(٣). وقاسمه الأمير عبد الله بن بلكين^(٤) النظرة نفسها حول أهمية التربية منذ الصغر. وفي المعنى نفسه قال أبو بكر العربي^(٥): «أعلم أن الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش ومائل إلى كل ما يمال إليه». ولم يبتعد ابن خفاجة^(٦) عن التصور ذاته حينما قال:

نبه وليدك من صباه بزجيرة فلربما أغفى هناك ذكاؤه

بينما رأى ابن باجة أن كل فترة من مراحل العمر تستلزم نوعاً خاصاً من التربية^(٧).

أما القاضي عياض^(٨) فقد ألف كتاب الإعلام بقواعد حدود الإسلام بلغة واضحة سهلة، تهدف تلقين الأطفال تربية دينية منذ الصغر. وهو ما زكاه ابن عبدون^(٩) حينما طالب الآباء أن يأمرُوا أبناءهم بالصلاة منذ صغرهم، وإلا أدبوا على ذلك.

وقد اتخذت بعض الأسر مربيات لأطفالها، لكن هاته المربيات لم تستطعن تعويض حنان الأم وعطفها، لذلك نصح السقطي باتخاذ مربيات سودانيات «لأن عندهن رحمة وحنيناً للأطفال»^(١٠) وظلت المربية على العموم تعرف في أوساط العامة باسم «دادة»^(١١).

وبلم شتات النصوص الخاصة بالحقبة المرابطية، يتبين أن التربية قامت على ثلاثة عناصر: الأسرة أو البيت، المؤدب والمدرس، ثم البيئة الاجتماعية. هذه العناصر الثلاثة أعطت للطفل شخصيته وحددت سلوكه الأخلاقي، وقواعد تعامله مع غيره. فما هو أولاً دور الأسرة في تربية وتوجيه الأبناء؟

ظلت الأسرة المؤسسة الأولى التي يتلقى فيها الطفل تربيته ويعد نفسه للعيش والعمل داخل

(١) كتاب الإشارة، ص ٧١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤ - ٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٨١.

(٤) كتاب التبيين، ص ١٧٩.

(٥) انظر: أعراب: «دور المغاربة في تربية الطفل». مجلة دعوة الحق، عدد ٥ ماي ١٩٧٩، ص ٤١.

(٦) انظر ديوانه، ص ١٤.

(٧) انظر: فروخ، عمر: ابن باجة والفلسفة المغربية، بيروت ١٩٤٥ ص ٤٠.

(٨) أعراب: م.س. ص ٤٢. ويتصفح هذا الكتيب الصغير يتأكد ذلك.

(٩) المصدر السابق، ص ٥٢.

(١٠) رسالة في الحسبة، ص ٥٢.

(١١) الأمازيغي: الفاظ مغربية م.س. ج ٢، ص ٢٤٥.

كيان المجتمع، لذلك حمل ابن عبدون^(١) الآباء مسؤولية عدم تربية ابنائهم، متهماً إياهم بأنهم «لا يعيرون على الأبناء ما يفعلونه من وجوه الشر، ناصحاً كل من له ابن «أن يوصيه وينهاه عن إتيان الشر والضرر». ويصّب انتقاد ابن العريف^(٢) للآباء في الاتجاه نفسه، إذ ذكر بأن «الصبيان لا يبذلون جهداً ولا يفقهون رشداً، وربما كان أبائهم قريباً منهم، فالأطفال بين داخل وخارج والآباء بين جاف ومخارج».

ويخيل إلينا أن هذا الخطاب التربوي كان موجهاً إلى الأسر في الأوساط الشعبية في المقام الأول، لأن الأب في هذه العائلات بقي بعيداً عن ابنائه، منشغلاً في تحصيل رزقه، غير مهتم بتربيتهم، واکلاً ذلك إلى زوجته في الغالب الأعم.

أما في أوساط الخاصة، فقد قام الأب بدور هام في تربية الطفل وتوجيهه منذ نعومة أظفاره: فمعظم الآباء في هذه الأوساط حرصوا على توجيه ابنائهم وتهيئتهم للوظائف العليا نفسها التي كانوا يشغلونها، فأبو العلاء بن زهر شغله أبوه في الطب وهو ما زال في ريعان طفولته^(٣). ولم يفت أبو العلاء هذا أن يلحق ابنه أيضاً بصناعة الطب^(٤). وبالمثل وجه والد القاضي علي بن موسى بن حماد ابنه نحو مهنة القضاء حتى صار قاضي الجماعة بمراكش^(٥). كما حرص الفقهاء على توجيه ابنائهم لدراسة الفقه المالكي ليصبحوا بدورهم فقهاء^(٦). ومما يركي هذا التخيّر أن بعض الأبناء خلفوا آباءهم في خطة الشورى^(٧). أما الآباء في العائلات اليهودية فوجهوا أبناءهم نحو دراسة العلوم. وفي هذا الصدد ذكر السموال عن أبيه: «وكان قد أحسن تربيتي إذ شغلني منذ أول حداثتي بالعلوم البرهانية»^(٨).

ولتحقيق أهداف التوجيه، لم يأل الآباء جهداً في تدريس ابنائهم بأنفسهم، فأبو محمد بن عبد الرحمن (ت ٥٢٠ هـ) «روى عن أبيه وأكثر وسمع منه معظم ما عنده»^(٩). كما أن القاضي ابن حمدين «تفقه بأبيه وطبقته»^(١٠) أما ابن رشد فقد «أخذ عن أبيه كثيراً ولازمه طويلاً»^(١١) والقول نفسه ينسحب على القاضي علي بن موسى بن حماد المذكور آنفاً، إذ تفقه بأبيه، كما أن ابن زهر درّس

(١) المصدر السابق، ص ٥٤.

(٢) مفتاح السعادة (مخ) ص ٦٥.

(٣) ابن أبي أصيبعة: م.س. ج ٢ م ١، ص ١٠٦.

(٤) الموضع نفسه.

(٥) عياض: الغنية.. ص ٤٦ - عباس بن إبراهيم: م.س. ج ٩ ص ٥٦.

(٦) ابن الزبير: م.س. ص ٥٢٨. ويذكر في ترجمة عبد الرحمن ابن أحمد الكتامي (ت ٥١٠ هـ) أنه «فقيه بن فقيه بن فقيه».

(٧) مؤلف مجهول: طبقات المالكية، ص ٢٦٧.

(٨) بذل المجهود في إفحام اليهود، ص ٩.

(٩) مؤلف مجهول: طبقات المالكية ص ٢٦٧ - ابن عطية: فهرست ابن عطية، ص ٨٠ - ابن بشكوال: م.س. ج ١، ص ٣٣٢.

(١٠) ابن بشكوال: م.س. ج ١، ص ٨١ - مؤلف مجهول: م.س. ص ٢٨٩.

(١١) مؤلف مجهول: م.س. ص ٢٩٦.

ابنه الطب من خلال ما حصل عليه من تجارب^(١) ، والأمثلة تطول^(٢) .

ولا نعدم من الروايات ما يلقي الضوء على دور الأب في توجيه ابنه نحو المستقبل الذي خطه له، ومن ثم ضبطه ومراقبة عمله الدراسي. ففي ترجمة القاسم بن أبي بكر محمد بن الملح ذكر ابن خاقان^(٣) أنه اشتغل في أول أمره بكتب الزهد والتصوف، فممنعه أبوه من ذلك تحت حجة أن الدخول في حياة الزهد لا تبدأ إلا في المرحلة الأخيرة من العمر. وأمره بمعايشة الأدباء والظرفاء والشعراء. أما عن مراقبة الآباء للأعمال الدراسية التي يتلقاها أبناءهم، فيروي ابن العربي^(٤) في رحلته أنه كان مع بعض شيوخه «فجلس إليه أبوه يطالع ما انتهى إليه في تعلمه على كثرة مشاغله». وفي المعنى نفسه ذكر ابن عبد الملك^(٥) عن محمد بن عبد الملك بن زهر أن أباه «الزمه موضعاً من داره، وبناء عليه، ولم يترك منه إلا موضع يدخل منه الطعام والشراب إليه، وأقسم ألا يخرج منه حتى يستظهر كتاب حيلة البرء لجالينوس، فلم يمر عليه إلا أمد قليل حتى فرغ من حفظه». ولعل هذا النص يكشف بوضوح دور الأب في توجيه ابنه ومراقبته مراقبة صارمة.

ويستشف من إحدى التراجم أن بعض الآباء شجعوا أبناءهم على الجد والمثابرة في دراستهم، وواعدوهم بالمكافأة في حالة تفوقهم، فقد كتب أحد قضاة مراکش إلى ابنه قائلاً: «وإذا وجدتكم على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء والتزام آداب العقلاء، جازيتكم بما يرضيكم، وما يزيد على أقصى تمنيتكم»^(٦).

بيد أن بعض الآباء لعبوا - عن حسن نية ودون قصد - دوراً سلبياً في توجيه أبنائهم. فابن سعيد^(٧) يذكر في ترجمة أبي القاسم أحمد أنه نشأ على عفة وطهارة، فكان أبوه يلومه على إفراطه في الزهد والاقتصار على كتب المتصوفة، ويحضيه على طلب الأدب ومجالسة الشعراء، إلى أن اشتهر في الخلاعة.

(١) ابن زهر: م.س. ص ١٢.

(٢) انظر عدة تراجم توضح دور الأب في تعليم ابنه خلال المراحل الأولى من عمره: ابن بشكوال: م.س. ج ١ ص ٧٦، ٨٢، ١٢٥، ١٢٩، ١٧١، ٢٢٢، ٢٢٩، ٣٢٢، ٣٢٨، ٣٥٨، و ج ٢ ص ٥٣٩، ٥٤٧، ٥٥٢، ٥٦٠، ٥٩٥، ٦٥١.

وانظر كذلك ابن الأبار: المعجم ص ١٨٤، ١٨٦، ١٩٧، ٢٢٧، والتكملة ج ١ ص ٢٩، ٤٦، ٧١، ٧٥، ٧٧، ٢٠٠، ٢٤١، ٢٤٩، و ج ٢ ص ٤٨٣، ٥٦١، ٦٧٦ وابن القاضي: م.س. ق ٢ ص ٢٨٨، ٣٨٩، ٣٩٤، ٤٠٨، ٥٠٠، ٥٤٢، ٥٤٩.

والمقري: نفح ج ٢ ص ٥١٩، ٥٢٦، والسيوطي: طبقات المفسرين ص ٦٠، ترجمة ٤٩.

(٣) قلاند... ص ١٨٧، وانظر كذلك: المقري: م.س. ج ٤ ص ٧١ - ابن سعيد: م.س. ج ١ ص ٣٨٢.

(٤) انظر: إحسان عباس: «رحلة ابن العربي إلى المشرق» كما صورها قانون التاويل، مجلة الأبحاث ص ٢١ الأجزاء ٣ - ٤ كانون الأول ١٩٧٨ - ١٩٧٩، ص ٧٣.

(٥) الذيل والتكملة ج ٦، ص ٣٩٩.

(٦) ابن القاضي: م.س. ج ٢ ص ٣٨٤ وهذا نص الرسالة: «إلى ولدي هده الله وصانه، وحمله بالعلم والتقوى وزانه، كتب إليكم عن اشتياق كثير، وبمشيئة الله تصير الأمور، ويتكاثف السور، وإذا وجدتكم على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء، والتزام آداب العقلاء جازيتكم بما يرضيكم، وما يزيد عن أقصى تمنيتكم. وقد أجمعت الأئمة على أن الراحة لا تنال بالراحة وأن العلم لا ينال براحة الجسم، فادرس تراس واحفظ واقرأ ترقى، ومهما ركنك إلى الدعة كنت في أهل الضعة. وما رأيت الناس مجتمعين على حمده فاجتلبه وما رأيتهم مجتمعين على ذمه فاجتنبه، والأعدل الأقسط أن تسلك السبيل الأوسط، وما المرء إلا حيث يجعل نفسه، ففي صالح الأعمال نفسك فاجعل والسلام».

(٧) المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ٣٨٤.

وفضل اغلب الآباء توجيه ابنائهم نحو العلوم الشرعية، فمحمد بن عباس (ت ٥٤٦ هـ) رغب التخصص في الطب. غير أنه رأى في منامه أحد شيوخه يمنعه من ذلك، ويأمره بدراسة كتب القرآن والحديث، فذكر ذلك لأبيه الذي استغل «الرؤيا»، فاشترى له رزمة كاغد للاشتغال بكتابة الحديث^(١).

وقد سبق القول أن دراسة الفقه المالكي والعلوم الشرعية كانت مطية لبلوغ المناصب والإثراء السريع، لذلك لا غرابة أن يوصي الباجي^(٢) ابنه بدراسة علم الشريعة، كما أن وصية أبي الحسن بن سهل بن محمد الأزدي لابنه تعكس هذه المعنى^(٣).

ولم تستثن البنات في العائلات الوجيية من هذه القاعدة، فزيت بنت عباد بن سرحان (ت ٥٨٠ هـ) «روت عن أبيها وأجاز لها»^(٤). كما أن أحمد بن عبد الله بن الحطية اللخمي (ت ٥٦٠ هـ) علم ابنته كتابة الخط^(٥). وفي بعض الأسر اليهودية اعتنى الآباء بتعليم بناتهم الآداب وصناعة الموشحات^(٦).

ويبدو أن دور الأم في توجيه الطفل ظل شاحباً^(٧)، لكن هذا الدور عوض أحياناً من قبل الأخ^(٨) أو العم^(٩) أو الخال^(١٠) أو الجد^(١١).

وإذا كان دور الأب في توجيه ابنائه علمياً للتحقق ونيل الوظائف العليا قد برز واضحاً في أوساط الخاصة، فإن معظم الآباء في الوسط العامي كانوا يحدون من طموحات ابنائهم العلمية بسبب وضعهم المادي المنحط، ويفرضون عليهم مقابل ذلك تعلم أي حرفة للتكسب بها، وإعانتهم لسد نفقات الأسرة. ذكر ابن عبد الملك^(١٢) في ترجمة علي بن عبد الله الأنصاري (ت ٥٦٧ هـ) أن أباه كان صيقلاً^(*)، وأنه أرسله في حاجة احتاج إليها في عمله فأبطأ عليه، فتوجه في طلبه ووجده في إحدى حلقات الدراسة، فأهانته وصرفه لتلك الحاجة، فأعاد الكرة حتى هم بضربه وطرده لولا أن عمه - وهو تاجر موسر - وعد بكفالته وتحمل نفقات دراسته، وهي رواية تكشف أن سواد العامة عجزوا عن تحمل نفقات دراسة ابنائهم.

الهوامش:

- (١) ابن عبد الملك: م.س. ص ٤٩١.
- (٢) وصية الشيخ أبي الوليد الباجي إلى ولديه ص ٣٥.
- (٣) ابن ليون: لمح السحر... (مخ) ورقة ١٣٠. وقد جاء في هذه الوصية: «العلم شيء حسن، فكن له ذا طلب، وإبداه بالنحو وخذ من بعده في الأدب، فإن أردت أن ترى جاهاً ونيل مكتسب، فافهم أصول مالك، واحفظ فروع المذهب، فإن قول مالك سلسلة من ذهب، وأعمل بما حفظته تحظى بأعلى الرتب».
- (٤) ابن عبد الملك: م.س. ج ٨ ق ٢ ص ٤٨٥ - ٤٨٦.
- (٥) الذهبي: معرفة القراء الكبار، ج ٢، ص ٤٢٢.
- (٦) السيوطي: م.س. ص ٨٦، ٨٧.
- (٧) لم نجد ترويضاً حول دور الأم في تعليم ابنائها باستثناء هذا النص الذي أورده ابن عبد الملك في ترجمة القاسم بن محمد الأوسي الذي يقول عنه أنه روى قراءة وسامعاً عن أمه. انظر: م.س. ج ٥ ق ٢، ص ٥٥٧.
- (٨) ابن الأبار: التكملة ج ٢، ص ٨٣٣.
- (٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٠ - ابن القاضي: م.س. ق ٢ ص ٣٨٨.
- (١٠) التنبكي: نيل الإبتهاج... ص ١٩٩ - عياض الغنية... ص ٥٩، ٢٥٣.
- (١١) ابن عبد الملك: م.س. ج ٨ ق ١، ص ٢٨٧.
- (١٢) المصدر نفسه، ج ٥ ق ١، ص ٢٢٩.
- (*) الصيقل هو شحاذ السيوف.

الشيء نفسه يقال عن المتصوف ابن العريف الذي أرغمت ظروف الفقر أباه أن يدفعه للمعلم حاكم، لكنه أبى إلا أن يتعلم القرآن وقراءة الكتب «فكان ينهيه ويخوفه ودار له معه ما كاد يتلفه» (١).

أما أبو العباس السبتي الذي عاش طفولته في أواخر عصر المرابطين، فقد نشأ يتيم الأب، وأرادت أمه أن تعلمه صنعة يستعين بها على صعوبات الحياة، فحملته إلى أحد القزازين للتعلم منه، لكنه هرب عنه والتحق بمكتب أبي عبد الله الفخار، فمنعت من ذلك. ولم يتمكن من تحقيق مبتغاه إلا بعد أن وعدا هذا الأخير بتسديد ما كان سيحصل عليه الابن من حرفته (٢). لذلك كثيراً ما شعر الطفل في هذه العائلات بأنه مكبوت ومظلوم. ولم تتح له فرصة تحقيق استقلاله الذاتي، وتأكيد رغباته، بل اثنته عن الثقة في آرائه منذ صغره. وحثته على قبول الآراء دون تردد أو تساؤل، وهو شيء يديهي بالنسبة لمجتمع يكافئ على الضعف والاستسلام، بقدر ما يعاقب على التحدي.

إلى جانب الدور الذي قام به الأب في توجيه ابنه وتخطيط مستقبله، لعب كذلك دوراً في تربيته خلقياً بَحْثَه على الفضائل والقيم الإنسانية، فأبو الحسن بن إسماعيل بن حرزهم حثه والده على احترام الصلحاء وتقدير أيديهم متى لقيهم «ولو مائة مرة في اليوم» (٣). وفي ذلك حجة على محاولة بعض الآباء غرس «سلطة المقدس» في نفسية أبنائهم.

أما الطرق التربوية فقد اتسمت بالعنف والقمع بسبب سلطة الأب المطلقة داخل الأسرة. ومن القرائن الدالة على ذلك ما جاء في أحد النصوص أن ضيفاً مرض عند الأهالي الذين زارهم، فأوصى رب البيت بالاعتناء به، غير أن أهل الدار تهاونوا في تهيه أحد الأدوية له، مما أدى إلى غضب الأب وإطلاق لسانه لشتم كل أفراد العائلة، حتى أن الضيف المريض سمع «صوته عالياً بتوبيخ شديد وتقرير مقلق» (٤).

ومن القرائن الأخرى التي تدل على علاقة القمع والعنف السائدة بين الأب وأبنائه كثرة أخبار الإهانة والشتم واللوم والتهديد الذي كان يلوح به الأب بدل الحجة والإقناع (٥). فالطفل في الوسط العائلي اعتبر دائماً مخطئاً رغم براءته، وفي هذا الصدد أورد المراكشي (٦) رواية مؤداها أن الكاتب عبد المجيد بن عبدون دخل على أبي بكر بن العلاء بن زهر - وكان لا زال صغيراً - في دهليز وهو في هيئة رجل من أهل البادية، فلم يعرفه، وبعد حوار جرى بينهما، تبين للطفل ابن زهر نباهة الرجل وكثرة حفظه، فهرع إلى أبيه يخبره به. فلما عرف الأب أن الرجل هو الكاتب ابن عبدون صار يقذف ويشتم الابن وينوح عليه باللائمة لقله أدبه. وذكر المقرئ (٧) رواية أخرى حول الشاعر ابن الرزاق

(١) ابن الأبار: المعجم، ص ١٨.

(٢) ابن الزيات: أخبار أبي العباس السبتي: ورقة ١٦٧ ب - عباس بن إبراهيم: م.س. ج ١، ص ٢٨٧ وكذلك: إظهار الكمال... ص ١٢٥ - ابن المؤقت: تعطير الأنفاس... ص ٩.

(٣) ابن مريم: م.س. ص ٣٠٤.

(٤) ابن عبد الملك: م.س. ج ٥ ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٥) المصدر نفسه، ج ٥ ق ١ ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٦) المعجب... ص ١٢٤.

(٧) نفح... ج ٣، ص ٢٨٩.

الذي لاهه أبوه وزجره لانه كان يسهر ليلاً فيضيع زيت القنديل، رغم أن سهره كان من أجل دراسة الأدب!! وكثيراً ما وصل الأمر إلى الضرب والتفكيك^(١). ولم يبال بعض الآباء باستفسارات أبنائهم حول القضايا التي كانت تشغل بالهم^(٢). فالتربية بهذا المعنى قامت على القمع والعقاب الجسدي أكثر مما قامت على الإقناع، ومنعت أي فكر نقاشي، في الوقت الذي عملت على إحلال روح الخنوع والتسليم محل روح الاقتحام والمساطة، وهو أمر طبيعي إذا ربطناه بالثقافة السائدة التي هي ثقافة تقاوم أي فكر نقاشي، وتعمل على تكريس الواقع والالتزام بحرفية النص.

وعلى غرار الأبناء، لم يكن على البنات إلا الطاعة والامتثال - باستثناء القبائل الصنهاجية - ولكنها طاعة ناتجة عن الخوف أكثر مما هي ناتجة عن التقدير والاحترام والاقتناع^(٣).

لم يفت شعراء الحقبة موضوع الدراسة^(٤). وكذا أمثال العامة^(٥). التعبير عن طبيعة العنف السائد في الطرق التربوية داخل الأسرة. غير أن هذه الظاهرة لم تبرز بالحدة نفسها داخل الأسر النبوية والأوساط العلمية. وقد احتفظ أحد المؤرخين^(٦) بوصية هامة كتبها أحد قضاة مراكش في رسالة بعثها إلى ابن له بفاس تلقى المزيد من الأضواء على طرق التربية داخل الأوساط الأرستقراطية. ومن خلالها نستنتج أنها قامت على أساس المكافأة والتشجيع، إذ وعد الأب ابنه بجائزة في حالة حصوله على نتائج مرضية في دراسته، والتزامه بسلوك مثالي. ونصحه في الوقت ذاته بالاعتكاف على طلب العلم، مبيناً له أنه وسيلة لنيل المناصب العليا. كما أوصاه بالاعتدال في جل مظاهر سلوكه، مما يدل على أن طرق التربية اختلفت بحسب المستوى المادي لكل عائلة. فبقدر ما قامت على العنف والإهانة والشتم والضرب في أوساط العامة، استندت على النصيحة والموعظة وإعطاء الاعتبار للطفل في عائلات الوجهاء والأعيان.

وكانت الوصايا والمواعظ تقدم للأبناء من طرف الأب عند بلوغهم سن الرشد^(٧)، أو عند دنو أجل وفاتهم^(٨)، ومن خلال وصية أبي الوليد الباجي لابنيه يستطيع الباحث أن يستخلص أهم الجوانب التي ركز عليها الآباء في تربية أبنائهم، وتتمثل في التشبث بأهداب الدين والتزام قواعد

(١) ابن الزيات: م.س. ص ٩٨. ترجمة أبو الفضل النحوي - التنكي: م.س. ص ٣٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢١. وقد ذكر أن ابناً سأل عن سر غيبته في بعض الأيام فأجاب الأب: «دع السؤال عباً لا يعينك»، وعندما سأل ابن حزم أباه عن سبب صلاة أحد المتصوفة المغرب قبل وقتها ضربه ومنعه السؤال عن ذلك. انظر: المصدر نفسه ص ٩٨.

(٣) ابن عربي: كتاب الفتوحات المكية ص ٦٧٥. ويذكر أن أحد المتصوفة طلب من ابنته أن تهب نفسها لشقاء أميرة فاستجابت.

(٤) ابن خفاجة: م.س. ص ١٤ وقد عبر عن ذلك بقوله:

نبه وليدك من صباه بزجرة فلربما أغفى هناك ذكاهه
وانهزه حتى تستهل دموعه في وجنتيه وتلتظي احشاه

(٥) قالوا: «ولد بلا لقم، بحال خبز بلا رشم. انظر: الامواني: أمثال العامة في الأندلس ص ٢٦٧.

(٦) جذوة الاقتباس ق ٢، ص ٥٠٣. وقد سبق إيراد نص الوصية والرسالة في هامش ٦، ص ٥٨ من هذا الكتاب.

(٧) أبو الوليد الباجي: م.س. ص ٣٠.

(٨) ابن خلكان: م.س. ج ١، ص ٢٤٦، ترجمة ١٠٤.

الشريعة والجهاد^(١) وطلب العلم^(٢)، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق والأمانة، وترك الرذائل وتجنب الظلم^(٣)، والبر بالعائلة والقراية والجيران والابتعاد عن معاشره السلطان^(٤).

وقد أعطت التربية الحسنة ثمارها أحياناً، وحسبنا ما ورد في ترجمة صالح الخراز الذي «أقبل على العبادة وهو ابن سبع سنين، كان مبهوراً أبداً، ما لعب قط مع الغلمان، ولا كلمهم على سنه حتى مات يعمل الخزن»^(٥).

لكن هذه الحالة لم تكن قاعدة عامة، إذ تكشف بعض النصوص عن نماذج متعددة من فساد أخلاق الصبيان وسوء تربيتهم كما تدل على ذلك رسالة بعثها ابن العريف إلى أحد مريديه^(٦). وتثبت نصوص أخرى ما قام به بعض الأطفال من اعتداءات على المارة من الناس^(٧)، وقذفهم بالحجارة^(٨)، والاستهزاء ببعضهم، وتلقيبهم بالألقاب المنبوذة^(٩)، فضلاً عن مشاكساتهم المختلفة^(١٠). في هذا السياق تحدث أحد الجغرافيين عن أطفال مكناسة، فذكر أن «في صبيانها دعارة وسفامة... فإذا خرجوا إلى الفضاء الواسع حركتهم طباعهم الذميمة، فلا يعرفون إلا مجرد الشر»^(١١). وتعكس أمثال العامة الخصومات التي كانت تنشب بين الأخوة الصغار وتقاس أبويهم عن ردعهم، مما يكون لدينا صورة مظلمة وانطباعاً سيئاً عن التربية في بعض الأسر، خاصة في الوسط العامي الذي نبعت منه هذه الأمثال^(١٢).

إلى جانب دور العائلة في تربية الطفل، شكل المؤدب في الكتاب أو المدرس في المسجد مصدراً ثانياً من مصادر تربيته وتوجيه سلوكه وتكوين شخصيته. ويلاحظ أننا نحاشينا ذكر مصطلح «مدرسة»، فهل ذلك يعني أنها لم توجد في العصر المرابطي كمؤسسة لتربية الصبيان وتنشئتهم؟

تضاربت النصوص بخصوص هذا الموضوع، فالزيرياني^(١٣) والعمرى^(١٤) ينفيان وجود أي مدرسة في هذه الحقبة، ويلاحظون نشأتها إلى العصر المريني أو الموحيدي على أبعد تقدير. لكن الزيرياني يتناقض مع نفسه فيذكر في موضع آخر أن علي بن يوسف بنى المسجد الأعظم ومعه مدرسة سماها

(١) أبو الوليد الباجي: م.س. ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٥) ابن عربي، رسالة القدس: ص ٥٠.

(٦) مفتاح السعادة.. م.س. ص ٦٥. وما جاء في هذه الرسالة: «واشد ما يميز بي سوء الظن بهم وهم صغار لم تأخذهم الأحكام ولا جرت عليهم الأقاليم، وذلك أنني أنظر إلى الصبي فافهم كثيراً من الكيد الباطن في نفسه».

(٧) التميمي: المستفاد... (مخ) ص ١٣٥.

(٨) الباديي: م.س. ص ١٢١. ترجمة أحمد بن سوسان - ابن القاضي: م.س. ج ١ ص ١٧٤. ترجمة تصالا.

(٩) ابن عبد الملك: م.س. ج ٤ ص ٢٢. ويذكر في ترجمة سعيد بن أحمد بن زرقون أن الصبيان هم الذين لقبوه بذلك.

(١٠) ابن الزيات: م.س. ص ٢٥٥. ترجمة أبو الحسن علي الصنهاجي الزاهد.

(١١) مؤلف مجهول: الاستبصار... ص ١٨٨.

(١٢) قالت أمثالهم: «أضارب الفلاس، وصحب الدار جالس». مثل رقم ٢٥٨، انظر إلزجالي: م.س. ج ٢ ص ٦٣.

(١٣) الترجمان المغرب، م.س. ص ٢٧٧.

(١٤) مسالك الإبصار (تحقيق) ص ١٠٦.

باسمه^(١). ويشير مؤرخ آخر^(٢) إلى إحدى المدارس بمراكش دون تحديد الحقبة الزمنية التي أسست فيها.

وذهب معظم الدارسين المحدثين^(٣) إلى الجزم بأن يوسف بن تاشفين أسس مدرسة عرفت باسم مدرسة الصابرين. إلا أننا لا نجاريهم في هذا الرأي ونستبعد وجود مدارس - في شكلها الرسمي على الأقل - أي تلك التي ترعاها الدولة على غرار المدارس النظامية في الشرق الإسلامي أو في مصر خلال الحقبة نفسها^(٤). فكتب النوازل بما تضمنته من أبواب مفصلة عن الأحباس تحاشت ذكر مدرسة الصابرين أو جامعة علي بن يوسف، عكس العصور اللاحقة وخاصة العصر المريني. وأول نصوص تتحدث عن الأحباس الموقوفة على المدارس ترجع - حسبنا نعلم - إلى العصر الموحيدي. ونعتقد أن هذا النوع من «المدارس» التي انتشرت في العصر المرابطي مجرد تطوير لمدرسة وجاج بن زلو «دار المرابطين» التي أسست لتلقي القرآن ومبادئ المذهب المالكي^(٥) دون أن تكون الدولة وصية عليها. أما الأندلس فلم تعرف التعليم المدرسي الرسمي إلا في العصر الغرناطي^(٦).

وأغلب النصوص الراجعة للحقبة المرابطية تؤكد أن التعليم ظل يمارس في المسجد، فالمتيجي^(٧) الذي عاش في هذه الفترة شاهد أبا الفضل بن يوسف النحوي يدرس في مسجد بني الكساد بفاس. كما أن ابن تومرت درس قبل ثورته على المرابطين بمسجد طريانة بالمدينة نفسها، ومسجد أبي تميم بمكناسة وجامع وطاس بأغمات^(٨). ولدينا سيل من النصوص التي تؤكد أن التعليم ظل مسجدياً كذلك في مختلف المدن الأندلسية^(٩). يترجم ذلك قول ابن عبدون^(١٠) الذي طالب بإلغاء هذه القاعدة، وعدم تدريس الصبيان في المساجد لاحتمال نجاسة أرجلهم وثيابهم.

وفي حالة انعدام إمكانية التدريس في المساجد، كان الصبيان يقصدون منزل المؤدب أو المدرس

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٢.

(٢) مارمول: م.س. ج ٢، ص ٥٢.

(٣) غنون: النبوغ المغربي ج ١، ط ٢، بيروت ١٩٧٥ ص ٨٢، ٨٢ - السامرائي: علاقات المرابطين بالممالك

الإسبانية بالأندلس وبالمدن الإسلامية بفداد ١٩٨٥ ص ٢٨٦ - حسن علي حسن: «التعليم بالمغرب الأقصى

في عهد المرابطين والموحدين» القاهرة، حويات كلية دار العلوم ١٩٧٢ - ١٩٧٣ (١٩٧٤) ص ٧٥.

(٤) عن المدارس في مصر: انظر: ابن عبد الملك: م.س. ج ٤ ص ٢٢٨ - مؤلف مجهول: طبقات المالكية ص ٢٣٩.

(٥) عياض: المداويك... ج ٨، ص ٨١ - ابن الزيات: م.س. ص ٨٩ - حركات: المغرب عبر التاريخ، البيضاء، دار

السلامي ١٩٦٥، ج ١، ص ٢٤٣.

(٦) غنية: تاريخ الجمعيات الإسلامية الكبرى، تطوان، مطبوعات معهد مولاي الحسن، ١٩٥٣، ص ١١٤ -

١١٥ - ندش: معاهد العلم والتعليم، مجلة دعوة الحق عدد ٢٥٩ ص ٩٢.

(٧) رسالة في تحقيق اتجاه قبلة الصلاة بالمغرب (مخ) ورقة ٧٠ ب.

(٨) انظر البيهقي: م.س. ص ٢٣، ٢٥، ٣٠.

(٩) انظر: الشراط: الروض العاطر الأندلسي.. ورقة ١٢٢ ب - ابن خير: فهرسة ابن خير ص ٤٦، ١١٨، ١٢٢، ١٥٥.

ابن الزيات: م.س. ص ٩٨ - ٢١٠، ٢٦٣ - السلفي: م.س. ص ١٤٢ - ابن عبد الملك ج ٢ ص ٤٨٦، ٥٨٢.

ثم ج ٦، ص ١٥٣ - ١٥٤ - ابن الأبار: المعجم ص ٢٦٩، ترجمة ٢٥١.

(١٠) المصدر السابق، ص ٢٤.

للقراءة عليه والسماع منه^(١)، وأحياناً جرى التدريس في الزوايا^(٢) أو في إحدى الرباطات^(٣)، أو في الحانوت^(٤)، أو داخل الخيمة^(٥)، أو ببطون الأودية وشعاب الجبال^(٦) والضيعات^(٧) كما تؤكد ذلك النصوص.

ولم يكن ثمة سن معينة لبداية حياة الطفل الدراسية، فقد ورد في إحدى التراجم أن رجلاً أحضر معه ابنه للسماع من أحد الشيوخ وهو دون خمس سنين^(٨)، بينما نجد في ترجمة علم آخر أنه سمع من أبيه وهو ابن سبع سنين^(٩) في حين حفظ أحد الأعلام الموطأ قبل بلوغه سن الثالثة عشر^(١٠)، وكان أبو بكر بن العربي قد حذق القرآن وله من العمر تسع سنين^(١١)، أما السموال - وهو معاصر للمرابطين كذلك - فقد درس التوراة وتفسيرها وتعلم الكتابة بالعبرية قبل أن يبلغ ١٢ من عمره^(١٢)، ويذكر الضبي^(١٣) عن محمد بن جعفر قاضي بلنسية أنه بدأ الدراسة في سن العاشرة، بينما يبدأ تعلم الطفل حسب نصوص أخرى في سن الثالثة عشرة^(١٤)، وأحياناً الرابعة عشرة^(١٥)، ويقضي السنين الأولى في المكتب أو المحضرة^(١٦).

على أن ما يهمنا من هذا الجانب، الدور الذي لعبه المؤدب في المكتب أو المدرس في المسجد لتلقين مبادئ التربية للطفل، ونظراً لخطورة هذه المهمة ألح ابن عبدون على «أن لا يكون المؤدب عزباً ولا شاباً، بل يكون خيراً، دنيئاً، عفيفاً ورعاً... لا يهمل الصبيان ولا يزول عنهم إلا لأخذ الغداء والوضوء»^(١٧)، وهو نص بالغ الدلالة في التأكيد على شخصية المربي وانعكاسها على المتلقي للتربية. والواقع أن الموصفات التي ذكرها قاضي إشبيلية، توفرت لدى بعض المدرسين، فعن قيمتهم

(١) عن التدريس في المنازل انظر: عياض: الفنية... ص ٤٨، ١٥٩، ١٤٧، ٢١٧ - ابن الأبار: التكملة... ج ٢

ص ٨٥٩، المعجم ص ٣٠٣، ٣١، ١٧٠ - ابن عبد الملك: م.س. ج ٦ ص ٦١ - ابن خير: م.س. ص ٩٠، ١٦٥.

(٢) حسن علي حسن: م.س. ص ٦٨.

(٣) ابن الزيات: م.س. ص ٢٩٧ - الناصري: م.س. ج ٢، ص ٨٥.

(٤) ابن الأبار: التكملة... ج ٢، ص ٤٩٥. ترجمة محمد بن خلد (ت ٥٥٩ هـ).

(٥) ابن أبي دينار: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وقونس. ص ١٠٨.

(٦) ابن الزيات: م.س. ص ٢٩٧.

(٧) التنبكي: كفاية المحتاج... ج ٢، ص ٢٦٠ - ابن عبد الملك: م.س. ج ٥ ق ١، ص ٢٦١، ٣٧٠.

(٨) ابن الأبار: المعجم، م.س. ص ٢٨٨.

(٩) ابن عبد الملك: م.س. ج ٦، ص ٦.

(١٠) المصدر نفسه، ج ١ ق ١، ص ٢٠٨.

(١١) المقرئ: نفح... ج ٢، ص ٤٣.

(١٢) بذل المجهود في إلهام اليهود، م.س. ص ٥.

(١٣) بغية الملتمس... ص ٥٥.

(١٤) ابن الأبار: التكملة... ج ١، ص ٥٣.

(١٥) ابن بشكوال: م.س. ج ٢، ص ٢٨٦.

(١٦) انظر نموذج أبي العباس السبتي: ابن المؤقت: تقطير الأنفاس... ص ١١، المكتب أو المحضرة: تعبيران يستعملان

للدلالة على المكان الذي تلقى فيه الدروس القرآنية للطفل تحت رعاية المعلم أو الفقيه. ولا يزال مصطلح «محضرة»

يستعمل لحد الآن بالمغرب مع كلمة «المسيد».

(١٧) المصدر السابق، ص ٢٥ - دندش: معاهد العلم ص ٩٢.

العلمية وأخلاقهم الفاضلة، ذكر عياض^(٢) عدداً من الذين طبقت شهرتهم الأفاق، نكتفي بسوق مثال واحد هو أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي الذي كان «من أعدل أهل زمانه وأفضلهم وأسمتهم، تام الفضل، كامل المروءة، بعيد الصيت عند الخاصة والعامة عظيم القدر». ولا شك أن العلاقة جلية بين مدرس في هذا المستوى من العلم والخلق وتربية الطفل الذي يدرس عليه.

ولا يخامرنا شك في أن المدرسين عموماً حرصوا على تلقين الأطفال قواعد السلوك الجيد والأخلاق الفاضلة^(٣)، وإسداء النصائح لهم، وحضهم على طلب العلم^(٤)، وتقريب فهمهم من المسائل المستعصية^(٥)، وتشجيعهم، وتنمية روح الطموح في نفوسهم^(٦)، واختبار ذكائهم وترويضه^(٧)، وتكوين ملكة الحفظ والفهم لديهم بالتشدد أحياناً^(٨)، وبالطرق الحوارية الهادئة أحياناً أخرى^(٩). واغتنموا فرصة إلقاء دروسهم لتزويدهم بالنصائح والوصايا وتذكيرهم بالشمائل والفضائل^(١٠). كما حرصوا على عدم السماح لهم بالتغيب لما يمكن أن ينتج عن ذلك من ضرر يفسد تكوينهم العلمي والتربوي^(١١). وكلما لمسوا في الطفل ميولاً واستعداداً فطرياً للتخصص في علم من العلوم، عملوا على توجيهه إليها، وهو ما حدث لابن الجد القهري الذي وجهه شيخه مالك بن وهيب نحو العلوم الشرعية^(١٢).

وساهم بعض الآباء من جهتهم في العملية التربوية فأعطوا نموذجاً رائعاً عن تكامل دور الأسرة والكتاب في تربية الصبي، وذلك عن طريق اتصالهم بالمؤدّب والاستفسار عن سلوك أبنائهم، وإلحاحهم أحياناً على ضربهم واستعمال الشدة معهم^(١٣). وقد يكون ذلك وراء دعوة ابن عبدون^(١٤)

(١) الغنية ص ٢٨. وانظر نماذج أخرى في صفحات: ٤٦، ٥٤، ١٣١، ١٣٨، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٨، ١٧٦، ٢١٠، ٢١٢...

(٢) الشراط: م.س. ورقة ١٦٣ ب. وقد ذكر نقلاً عن صاحب المستفاد... أن أحدهم ذهب إلى معلم صبيان في مكتب، فلما دخل عليه طلب المؤدّب من الصبيان أن يسلموا على الزائر ففعلوا.

(٣) ابن عبد الملك: م.س. ج ٥ ق ١ ص ١٧٠. ترجمة علي بن أحمد بن علي.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

(٥) عياض: م.س. ص ١٩٨، ترجمة ابن سمجون اللواتي.

(٦) انظر رواية حول أبي العباس السبتي الذي اختبر مؤدبه ذكاه حين اشترى طائراً وطلب منه أن يذبحه في مكان لا يراه فيه أحد. لكن أبا العباس ذكر لمؤدبه أن الله يراه. انظر: عباس بن إبراهيم: إظهار الكمال... ص ١٥٨، ١٥٩.

(٧) ابن عبد الملك: م.س. ج ٦ ص ٣٠٧. وقد وردت ظاهرة التشدد في أمثال العامة فقالوا: «لا صبي أن يحفظ، ولا مؤدّب أن يعذره انظر: ابن عاصم: حدائق الأزهري... (مخ) ص ١٢٩.

(٨) عياض: م.س. ص ١٩٧.

(٩) المصدر نفسه، ص ٤٩، ٧٧، ٧٨، ١٥٤، ١٨١.

(١٠) ورد في كتاب مفتاح السعادة رسالة وجهها ابن العريف إلى أبي بكر عتيق ومن جملة ما ورد فيها: «ولقد فكرت في إثر ورود كتابك في زيارتكم في محكم فكرة دامت أوقاتاً كثيرة، فلو وجدت خليفة في الصبيان والمسجد لفعلت». وانظر رسالة أخرى في المعنى نفسه، ص ١٩٥.

(١١) ابن عبد الملك: م.س. ج ٦ ص ٢٢٢.

(١٢) دندش: معاهد العلم، ص ٩٣.

(١٣) المصدر السابق، ص ٢٥ - السقطي: م.س. ص ٦٨. أما العلة فقد رأت كذلك، أن ضرب المعلم للصبي ضروري: مضرب المعلم للصبي كلاماً للزوع، مثل رقم: ١٥٤، انظر: الزجاجي: م.س. ج ١، ص ٢٢٢.

بأن لا يؤدب الصبي أكثر من خمسة أسواط للكبير، وثلاثة للصغير لأن إرهاف الحد من التعليم مضر بالطفل.

وفضل بعض الآباء - والأثرياء منهم على الخصوص - استئجار معلم لأبنائهم قصد تعليمهم وتربيتهم داخل منازلهم. وقد أشارت كتب التوثيق إلى ذلك، فبينت أن الأب والمعلم كانا يكتبان عقداً يحددان فيه قيمة الأجرة التي يقبضها المدرّس كاملة أو مقسطة على الشهور^(١).

وإذا كانت العائلة والكتاب أو المسجد مصدرين هامين من مصادر تربية الطفل في العصر المرابطي، فلا يمكن إغفال دور البيئة الاجتماعية وكذا المستوى المادي للأسرة، كما أن المناخ العام الذي خيم على الدولة المرابطية وانتشار «مفاسد» الحضارة التي صحبتها في طور الهرم أثردون شك في طرق ووسائل التربية. وقد فطن أبو بكر بن العربي^(٢) إلى ارتباط التربية بالحضارة فأكد أن الحضارة الإسلامية بدأت تميل إلى الضعف بسبب انعدام المربين الحقيقيين في البلدان النائية عن الخلافة الإسلامية بما في ذلك المغرب والأندلس.

خامساً: النزاعات العائلية

عرفت بعض العائلات في العصر المرابطي نزاعات متعددة كشفت النصوص عن أسبابها المادية، وتمثلت أساساً في مشكل الإرث واستئثار الابن الأكبر بمعظم الامتيازات، وخرق حقوق الأيتام داخل الأسرة.

قبل تشريح بعض النصوص التي توضح هذه النزاعات، من المفيد أن نذكر بأن الأسر التي لم تعقب سوى ابن واحد أو بنت واحدة أو ابنين، لم تعرف مشاكل من هذا القبيل، إذ كان الإرث أو الهبة أو الصدقة يفوت إليه مباشرة، فقد ورد في إحدى نوازل ابن الحاج^(٣) أن رجلاً «اشترى لابن له صغير ضيعة بمال وهبه له وعقد له بها عقد الشراء». كما تصدق رجل آخر على ابنه «بملك له في قرية مع دار موجودة فيها»^(٤).

ولدينا عقد مؤرخ بشهر رمضان عام ٥٤٠ هـ يتضمن شهادة أب تصدق على ابنه بدار في مدينة طنجة^(٥)، كما أن أباً حبس عدة حوانيت على ابنه^(٦)، بينما حبس آخر أرضاً على ابنته^(٧).

في حين عرفت العائلة المتكوّنة من عدة إخوة بعض النزاعات بسبب الميراث. صحيح أن بعض الأشخاص النقا تنازلوا لإخوتهم عن التركة التي خلفها والدهم. فالقاضي عياض كما يخبرنا ابنه^(٨) تنازل طوعاً عن ١٧ ألف دينار من ميراث أبيه. كذا الحال بالنسبة لابن حرزم الذي شغلته حصته

(١) الجزيرة: م.س. ص ١٢٨.

(٢) الطالبي: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، ص ٢٣٨.

(٣) ابن الحاج: م.س. ص ٣٧ - ٣٨.

(٤) الزياتي: م.س. ص ٢٠١. وقد نقل النازلة عن ابن رشد.

(٥) محمد بن عياض: م.س. ورقة ١٥٢.

(٦) ابن رشد: م.س. ص ٢٩٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

(٨) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض: م.س. ص ١١٢، ١١٣ المقرئ. إظهار ج ٥، ص ٨٤ - ٨٥.

من الميراث عن العباداة، فأقسم أن يتخل عنها^(١). غير أن مثل هذه الحالات كانت نادرة، فكتب الفتاوى تزخرب نماذج من النزاعات العائلية حول الميراث: فقد استفتي ابن الحاج^(٢) حول رجل توفي وترك ملكاً استغله ابنه مدة ثلاثين سنة فقامت اخته تطلب نصيبها. كما استفتي حول امرأة أقامت دعوة ضد أخيها الذي باع املاكاً كانت في ملكية أبيها^(٣). وبالمثل قام نزاع بين إخوة اقتسموا ميراث أبيهم وبينهم أخ غائب لا يعرف مكان وجوده، فخرجت في حصته جنة أراد المقدم على القسمة أن يستغلها، فرأى الأخ الغائب أنه أحق بها^(٤).

والواقع أن غياب بعض أفراد الأسرة أثار مشكلات مستعصية أسفرت عن نزاعات دائمة^(٥). فقد جاء في بعض النوازل أن أباً توفي وخلف ابنين، وترك لهما قرية يعمرانها فغاب أحدهما غيبة متصلة. ولما عاد وجد الأخ قد توفي وترك ابناً يعتمر القرية فأنكر على عمه حصته في الميراث^(٦). كما أن وجود إخوة لا ينتمون إلى أم واحدة زاد في هذه النزاعات^(٧).

وتكشف نازلة أخرى عن نزاع شجر بين بعض الإخوة من جهة، وأخيهما الأكبر من جهة أخرى، وسبب ذلك أن الابن الأكبر استغل نفوذه الذي خوله له سنّه، فضلاً عن اعتماد الأب عليه اعتماداً كلياً لضعفه وكبره، فحاز الميراث لنفسه بعقد مكتوب^(٨)، ولعل هذه النازلة تعكس إحدى الميزات التي ميّزت العائلة في العصر المرابطي، وهي وجود تراتبية داخل الأسرة تفرض أن يكون الابن الأكبر صاحب النفوذ والسلطة، وأن يتنازل الصغير للكبير عن حقوقه انطلاقاً من مبدأ «سلطة العمر». فكل فرد من أفراد الأسرة تتحدد مكانته من خلال سنّه التي هي مرادف لدوره الاقتصادي، إذ أن الابن الأكبر يعد رأس مال، كل عائلة.

ونشب النزاع في إحدى العائلات بسبب أراض مشاعة بين أخ وأخته، فقد اشتدت حاجة هذه الأخيرة لنصيبها، فوعدها الأخ بأن ينفق عليها وعلى أبنائها طيلة حياتها، لكنه ماطلها حتى قام هؤلاء بمطالبة حق أمهم^(٩).

ومن القرائن الواضحة على العداوة التي طالت حياة الإخوة داخل الأسرة الواحدة بسبب الأرض والأموال ما ذكره ابن الحاج عن رجل أثبت عقد استرعاء^(١٠) بعداوة أخيه الذي أكد له قبل وفاته أنه لن يرث من ماله درهماً.

(١) ابن الرزبان: م.س. ص ١٧٠. ترجمة ٥١.

(٢) نوازل ابن الحاج، ص ٢١١ - ٢١٢.

(٣) مؤلف مجهول: كتاب في الفقه ص ٢٨٥.

(٤) محمد بن عياض: مذهب الحكام... ورقة ٢٨ (من الوجهين).

(٥) المصدر نفسه، ورقة ١١٠.

(٦) ابن الحاج: م.س. ص ٢١٥.

(٧) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٨) ابن رشد: م.س. ص ٣١٢.

(٩) محمد بن عياض: م.س. ورقة ١٥٣.

(١٠) نوازل ابن الحاج، م.س. ص ١٠٨ - ١٠٩. الاسترعاء أنواع، والنوع الذي يشير إليه النص يعني شهادة بعداوة أو التجريح بعداوة حسب المصطلحات الفقهية. ويكتبه العدول بالصيغة التالية: «يعرف شهره فلاناً وفلاناً معرفة صحيحة تامة ويعلمون بينهما عداوة قديمة وشحناء ومقاطعة على أسباب الدنيا وحطامها منذ كذا ولا يعلمونهما اصطلاحاً ولا رجعا عن ذلك حتى الآن في علمهم». انظر: وثائق محمد بن أحمد دبناني، طبعة فاية (د.ت.) ص ١١١.

ولم تخل المشاكل العائلية من بعض النزاعات بين الأب وابنه. فقد ورد في إحدى النوازل أن رجلاً ابتاع املاً لابن صغير بمال كان قد ورثه من أمه. فلما كبر الابن وملك نفسه طلب ملكه من أبيه. لكن الأب رفض ذلك، وادعى أن عقد الابتعاث قد ضاع منه، ثم اتفق مع الناس على أن يشهدوا له بالشراء، فشهدوا له بذلك زوراً. وكان من أهل العزة في الدنيا، والقدرة والتمكن، وممن لا يراجع ولا يقدر على مراجعة الأمر في ذلك كله^(١).

ومن المشاكل الأخرى التي عرفت في الأسرة أيضاً، مشكل الابن اليتيم الذي جرت العادة أن يوصى به على أموال معلومة أو أملاك، لكن حقوقه اقتصرت أحياناً. فقد جاء في أحد النصوص أن وصياً على أيتام كان لهم عنده غنم وبقر وحرث ثم عزل عن إيصائه، وادعى أنه كان ينفق عليهم من أمواله في حين أثبتت البيعة أن غلة المال المصروف عليهم كان من أموالهم^(٢). وثمة حالات أخرى شبيهة بهذه الحالة^(٣). لذلك أفتى بعض الفقهاء بأن يكون أمر اليتيم بيد القاضي، وتكتب له عقود حتى لا تنتهك حقوقه^(٤).

وغني عن القول أن الفقر جسّد أكبر المشاكل التي واجهت الكثير من العائلات حتى أن أحداً من الآباء اضطر إلى تسليم ابنته لرجل آخر قصد كفالتها^(٥).

ولا يفوتنا أن نذكر أن بعض الأسر المغربية أو الأندلسية انتسبت إلى الأصل الشريف واعتزت بنسبها^(٦)، بينما ادعى بعضها ذلك زيفاً وبهتاناً^(٧) لذلك تأسست في ذلك العصر نقابة الأشراف^(٨) التي انتقدتها أبو بكر بن العربي^(٩) واشتهرت بعض الأسر بتعاطيها للعلم والفقه كأ أسرة آل عياض^(١٠) وبني سعيد^(١١) وبني عبد الوود^(١٢)، وبني الخصال^(١٣)، والزبيديين والفهريين وآل بني مخلد^(١٤). بينما اشتهرت عائلات أخرى بقيادة الأسطول المرابطي كأ أسرة آل ميمون^(١٥). ولا شك أن عائلات أخرى اشتهرت في مجالات متنوعة ومختلفة.

- (١) المصدر نفسه، ص ٤٠.
- (٢) ابن رشد: م.س. ص ٢٧٨.
- (٣) ابن الحاج: م.س. ص ٢٤٢ - ٢٤٤. مؤلف مجهول: كتاب في الفقه، م.س. ص ٢٥٢.
- (٤) الجزيري: م.س. ص ١٥٤ - ١٥٥.
- (٥) ابن الزيات: م.س. ص ١٦٥ ترجمة أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف (ت ٥٤٠ هـ).
- (٦) ابن بسلام: م.س. ق ٣ م ٢ ص ٥٥١.
- (٧) انظر ما ذكره الوزان عن سكان جبل امركو: م.س. ج ١، ص ٢٣٨.
- (٨) الزياتي: تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب (مخ) ص ١١.
- (٩) انظر المرير: كتاب الأبحاث السامية ج ٢ ص ١٣١.
- (١٠) الداوك... ج ٦، ص ٢٧٩.
- (١١) Guichard, Op. Cit., p.151.
- (١٢) ابن عبد الملك: م.س. ج ١ ق ١ ص ٢٧٢.
- (١٣) المصدر نفسه، ج ٥ ق ١ ص ٤٧.
- (١٤) عياض: الغنية... م.س. ص ٧٦، ٩٧، ١٥٩.
- (١٥) عز الدين أحمد موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي بيروت، دار الشروق ١٩٨٣، ص ٥٨ - ٥٩.

الفصل الثاني

العادات والمعتقدات الشعبية

لا مراء في أن العادات والمعتقدات الشعبية السائدة في العصر المرابطي تعد وليدة النظام العام، والبنى الاجتماعية والثقافية السائدة؛ فالدولة المرابطية التي بنت كيائها على موارد اقتصاد المغازي، روجت للفكر الذي يخدم هذا التوجه الاقتصادي، فلجمت كل اختلاف في الرأي، ووجهته وفق ما يخدم مشروعاتها الجهادية والعسكرية، مما أدى إلى غلبة الثقافة النصية التسليمية على حساب التيار العقلاني، وهو ما أثر بدوره على مستوى ذهنية مختلف الشرائع الاجتماعية، وهيا التربة الملائمة لذيوع الفكر الخرافي والمعتقدات الغيبية. كما كان لتطور الدولة المرابطية وانتقالها من طور البداوة والخشونة إلى مرحلة الرقة والحضارة بعد ضم الأندلس، أثر واضح في العادات الاجتماعية وأشكال السلوك والقيم الأخلاقية، فضلاً عن مظاهر الحياة اليومية من أطعمة وأزياء، واحتفالات ومواسم وطب شعبي.

في هذا الإطار، سيتم رصد العادات الاجتماعية، لتتصدى بعد ذلك لدراسة المعتقدات الشعبية من سحر وكهانة وتنجيم وغير ذلك من الظواهر الغيبية.

أولاً: الأطعمة

لا سبيل إلى الشك في أن الأطعمة تنوعت حسب البيئات والمستوى المادي للأفراد، أما بالنسبة للأمراء والخاصة، فإنها تأثرت بتطور أحوال الدولة. ففي بداية التأسيس، حين كانت روح البداوة وشغل الحياة أهم السمات التي طبعت دولة المرابطين، اقتصر الأمراء على الضروري من العيش. وحسبنا أن عبد الله بن ياسين سن لنفسه مبدأً مقتبساً من روح الشريعة الإسلامية، إذ رأى أن كل الأطعمة التي تؤدي عنها الضرائب غير جائزة. لذلك لم يقتت إلا من لحوم الصيد^(١). واقتصر طعام يوسف بن تاشفين على الشعير وإدام الإبل «على ما منحه الله من سعة الملك وخوِّله نعمة الدنيا»^(٢). وانعكس هذا المنحى في آراء الحضرمي الذي عاش في بداية تأسيس دولة المرابطين من خلال دعوته إلى الاعتدال في الطعام، واختيار ما ينفع الجسم^(٣).

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد المغرب م.س. ص ١٦٤ - ابن معسكر: الخبر المغرب.. (مخ) ص ١٧٤ - ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب... ص ١٢٢ - ابن الخطيب: أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٢١.

(٢) ابن الخطيب: م.س. ص ٢٣٤ - ابن أبي ذرع: م.س. ص ١٣٦ الناصري: الاستقصاء ج ٢ ص ٦٠.

(٣) كتاب الإشارة في تدبير الإمارة ص ٦٧.

لكن بمجرد ما ضمت الدولة المرابطية الأندلس، ووصلت إلى مرحلة الترف، كثر الإقبال والتفنن، بل التنافس على شتى أنواع الأطعمة، فانعكس ذلك في ميدان التأليف، فصنف أبو العلاء بن زهر الذي عاش في أواخر العصر المرابطي كتاب مختصر الأغذية، وهو مصدر هام يمد الباحث بأنواع الأطعمة السائدة آنذاك. كما أن كتاب الطبخ في المغرب والأندلس الذي ألف في العصر الموحي يعد مكملاً لهذا الكتاب، فضلاً عما تزودنا به المصادر الجغرافية وغيرها من معلومات قيمة عن الجوانب الدقيقة من الموضوع.

بديهي أن تختلف الأطعمة حسب الشرائع الاجتماعية وحسب المناطق والبيئات. وبهذا الخصوص أورد ابن الزيات في ترجمة إبراهيم بن إسماعيل أن رجلاً أتاه «بصحفة من ثريد الدرمل بالزعفران واللحم الغنمي السمين المقود وليس مما يصنع بتلك البلاد»^(١). ولعل العبارة الأخيرة تعكس تنوع الأطعمة حسب المناطق واختلاف العادات في أنواع الاكلات المستهلكة.

مصادق ذلك ما ذكره الجغرافيون^(٢) حول أهل سجلماسة الذين اعتادوا على تسمين الكلاب لأكلها، فضلاً عن حيوان يسمى عندهم الخردون أو أقزيم بلسان البربر^(٣). وفي أودغشت لم يكن القمح أو الخبز يستهلك إلا من طرف الأغنياء، أما العامة فاقتصروا على أكل الذرة والمقاتي^(٤). واكتفى سكان الصحراء خاصة القبائل الصنهاجية بتصفيف اللحم الجاف بعد طبخه وصب الشحم المذاب أو السمن عليه، واقتصروا على شرب لبن الإبل، لذلك ظلت أبدانهم قوية صحية كما لاحظ البكري وغيره^(٥).

وتخصصت لمقونة في طعام عرف باسم «أسلوه» باللهجة البربرية، ويصنع عن طريق قلي الحنطة قلياً معتدلاً، ودقها حتى تصبح جريشاً، ثم تمزج بالعدل والسمن، ويخلط جميع ذلك على النار، وتوضع في المزاول فتصنع طعاماً شهيئاً^(٦).

وفي الوقت نفسه، اشتهرت مكناسة بطبخ سمك الشولي الذي تصنع منه الألوان بأصناف البقل^(٧)، مع أن ابن رشد اعتبر السمك مبلداً للذكاء^(٨). وانفرد أهالي فاس بصناعة طعام يدعى تارفست^(٩)، بينما اعتاد الناس في بلاد غدالة، وبالذات في جزيرة أيونا على أكل لحوم السلاحف^(١٠).

(١) التشوف... من ٣٥١ - ٣٥٢. الدرمل هو الدقيق الأبيض.

(٢) البكري: م.س. من ١٤٨ - مؤلف مجهول: الاستبصار... من ٢٠١ - الحلبي: خريدة العجائب... (مخ) ورقة ١٦ ب - القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥، ص ١٦٤.

(٣) الإدريسي: وصف أفريقيا الشمالية ص ٦١.

(٤) البكري: م.س. من ١٥٨ - مؤلف مجهول: الاستبصار ص ٢١٥ - الإدريسي: م.س. من ٦١. والمقت من الزيت هو الذي أغلي بالنار ومعه أفواه الطيب. وقد يكون أصل الكلمة من التفتيت، ومعناها جمع الأفوية كلها في القدر وطبخها.

(٥) المصدر نفسه من ١٧٠ - الاستبصار م.س. من ٢١٢ - ابن الخطيب: م.س. ج ٣ ص ١٢١ - الناصري: م.س. ص ١١.

(٦) الإدريسي: م.س. ص ٥٩.

(٧) مؤلف مجهول: الاستبصار: م.س. ص ١٨٥.

(٨) المقرئ: أزهار الرياض... ج ٥ ص ٧٩ - عباس بن إبراهيم: الاعلام ج ٩ ص ٢٨٢ - ٢٨٤.

(٩) مؤلف مجهول: كتاب الطبخ في المغرب والأندلس ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(١٠) مؤلف مجهول: الاستبصار ص ٢١٥.

أما في باقي المناطق، فقد ظل الخبز أهم مادة في تغذية السكان.. واعتبر خبز الحنطة المطبوخ في التنور أفضل الأنواع كلها^(١)، يليه خبز الشعير، ثم خبز الأرز، فالذرة فالجاورس والدخن^(٢). ويذكر ابن الخطيب^(٣) أن الذرة من اقوات المستضعفين والفلاحين، مشيراً إلى أن أهل غرناطة يدخرون الفواكه المجففة لاكلها من حين لآخر.

وكانت معظم المأكولات تهيأ داخل البيوت كالكسكس الذي يخلط بالسمن والقديد والبصل^(٤) أو الكسكسو الفتيتاني^(٥). ولعل وجود هذه الأكلة منذ العصر المرابطي لا تعزز رأي Dufourcq^(٦) القائل بأنها لم تظهر إلا في القرن ١٣ م (٧ هـ). كما شاعت أكلة الثريد باللبن^(٧) أو باللحم^(٨)، وأحياناً بالفول والسمن^(٩)، وكذلك المجبنات بالعلس^(١٠)، كانت أشهرها مجبنات مدينة شريس، حتى قيل أن من دخل شريس ولم يأكل فيها المجبنات فهو محروم^(١١). وجرت العادة أن تؤكل في الصباح، وأن تكون ساخنة^(١٢). وقد استعملت المجبنات في حفلات الأعراس والختان والنزومات^(١٣). ومن أصناف الأطعمة الشائعة في العصر المرابطي كذلك العصيدة^(١٤)، والهريسة المصنوعة من القمح أو الأرز أو فتات الخبز^(١٥)، أو الشحم أحياناً^(١٦)، ثم رغائف الدرمك^(١٧) والدشيشة^(١٨)، والمقراس^(١٩) وهو غذاء سريع الهضم، طيب شهى يصنع من لحم الفخذ^(٢٠)، ثم الأحرش الذي يصنع

- (١) ابن زهر: مختصر في الأغذية (مخ) ورقة ٢ ب ١٣، ٣ ب.
- (٢) ابن خير الأشبيلي: كتاب في الفلاحة. تحقيق التهامي الناصري، طبعة فاس ١٣٥٧ هـ ص ١٢٨.
- (٣) الإحاطة ج ١ ص ١٤٣.
- (٤) مؤلف مجهول: مناقب الشيخ أبي العباس السبتي، (مخ) ورقة ١٥٦. وقد جاء في أمثال العامة: «تعلمني الكسكسو، وتعلمك شحل سوء، انظر الزجالي: ري الآوام ج ٢ ص ١٦٤ وكذلك: الوزان: وصف إفريقيّا ج ١ ص ١٩٧ - ١٩٨.
- (٥) مؤلف مجهول: كتاب الطبخ م.س. ص ١٨١. ويعطي المؤلف تفاصيل حول كيفية طبخه.
- (٦) Dufourcq, Laviequotidienne... p. 105
- (٧) ابن زهر: م.س. ورقة ١٠١ ب - الشراط: الروض العاطر الانفلس... (مخ) ورقة ١٦٢ أ - ابن الزيات: م.س. ص ٣٦٨.
- (٨) ابن الزيات: م.س. ص ٢٩٠ ترجمة ١٣٢.
- (٩) التميمي: كتاب المستفاد (مخ). ص ٩٥ ترجمة أبو يدو - ص ١٠٢ ترجمة أبو معنصر - ابن الزيات: ص ١٠٢.
- (١٠) ابن عربي: رسالة القدس ص ٣٤ ترجمة ١٤.
- (١١) المقرئ: نفح... ج ٢، ص ٣٥.
- (١٢) الزجالي: م.س. ج ١ ص ٢٢٤.
- (١٣) ابن سميذ: اختصار القح المعلى ص ١٥٦ - الزجالي: م.س. ج ١ ص ٢٣٥.
- (١٤) العززي: دعاة اليقين... ص ١٢١ - ابن قزمان: ديوانه م.س. ص ٦٦ زجل ٢٩ - ابن الزيات: م.س. ص ٢٥١
- ترجمة أبو محمد صالح. مؤلف مجهول: كتاب الطبخ ص ١٩٤.
- (١٥) انظر عن صناعتها: كتاب الطبخ م.س. ص ١٩١.
- (١٦) السقطي: رسالة في الحنطة م.س. ص ٢١.
- (١٧) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة ج ٨ ق ٢ ص ٤١٧ - العززي: م.س. ص ١٢١.
- (١٨) ابن قزمان: م.س. ص ٦٢٢ زجل ٩٣ - البياديسي: المقصد الشريف ص ١٠٠.
- (١٩) السقطي: م.س. ص ٣٩.
- (٢٠) للمزيد من التفصيل حول كيفية تهيئته انظر: مؤلف مجهول: كتاب الطبخ م.س. ص ٢١.

من لحم مدقوق مع الابرار والثوم^(١)، ويسمى ايضاً الاسفيريأ، وهو على أشكال مختلفة^(٢). ويذكر السقطي^(٣) نوعاً آخر من الاطعمة تحت اسم البلاجة التي تصنع من بقايا الاكباد أو من اللحم الغنمي. كما يذكر المقرئ^(٤) شكلاً آخر عرف عند الاندلسيين باسم التفايا التي تحضر بلحم الضأن الفتى السمين، ويضاف إليها الملح والفلفل والكزبرة اليابسة، وشيء من ماء البصلة من فوقه مع الزيت العذب، وتطهى على النار ببندق ولوز.

وتشير بعض النصوص إلى أكلة الحساء، إذ يذكر النويري^(٥) انه بعد أن قطع الأمير علي بن يوسف الميرة عن جيش الموحد، أخذ ابن تومرت يطبخها لجنوده كل يوم. كما أشار إليها ابن زهر^(٦) بمصطلح «الحريرة». وأورد مؤرخ آخر^(٧) نوعاً من الطعام عرف في الوسط المصمودي باسم أسماس. وقد أعده ابن تومرت لجماعة من أنصاره، وهو عبارة عن سويق يث بالسمن أو الزبد. ويضيف صاحب كتاب الطبخ أكلة أخرى عرفت باسم اللمتونية^(٨). وإذا كان استهلاك العسل قد شاع في المغرب الأقصى فإن الأزل لم يكن يستهلك عندهم إلا في يوم حفل أو دعوة أو مريض أو غريب اعتاد أكل الرز في بلاده^(٩).

ومن الأطعمة التي ترد أسماءها في المصادر كذلك، فراخ الحمام، وهو نوع من الأكلات الرفيعة التي قدمت للشاعر ابن خفاجة عندما زار القاضي أبا إسحاق بن ميمون^(١٠) وكذلك الباذنجان أكلة ابن العريف المفضلة التي دس له فيها القاضي ابن أسود السم لاغتياله^(١١)، فضلاً عن الجبن والزبدة والسمن^(١٢). كما صنع الناس المربي من الحوت والباذنجان واللفت^(١٣).

وثمة أطعمة خاصة بالطبقة المترفة ذكرها صاحب كتاب الطبخ صنع بعضها باللحم^(١٤)، والبعض الآخر بالدجاج في أشكال متنوعة كالدجاجة العباسية والجعفرية والكافورية^(١٥)، فضلاً عن

- (١) السقطي: م.س. ص ٣٩.
- (٢) مؤلف مجهول: كتاب الطبخ م.س. ص ٢٢. وعن أشكالها انظر ص ٢٣، ٢٤.
- (٣) رسالة في الحسية م.س. ص ٣٩.
- (٤) نفح الطيب... ج ٣ ص ٣٣٦.
- (٥) نهاية الأروپ... ج ٢٤ ص ٢٨٣ - العيني: تاريخ العيني (مخ) ج ٢٠ ق ٤ ص ٧٨٠.
- (٦) مختصر في الأغذية (مخ) ورقة ١٦، ٦ ب.
- (٧) البيدق: أخبار المهدي م.س. ص ٣٣. وانظر هامش ٥٠ من هوامش المحقق.
- (٨) مؤلف مجهول: كتاب الطبخ م.س. ص ١٨٧.
- (٩) العمري: م.س. (تحقيق) ص ١٣٦.
- (١٠) ابن بسام: النخبة... ق ٢ م ٢ ص ٦٣٤.
- (١١) عباس بن إبراهيم: ترجمة أبي العباس بن عطاء الله الصنهاجي (مخ) ورقة ١٣ - ابن سعيد: رايست... ص ٣٦.
- (١٢) الطغفري: زهرة البستان... (مخ) ص ٩٤.
- (١٣) عن كيفية صناعته وتربيته انظر المصدر نفسه ص ٩٣، ٩٤، ٩٩، ١٠٠. والمربي في النص هو الأغذية المحفوظة، أي ما يسمى القارية بـ «المرفقة» والمشاركة بـ «المخلل» أو «الكبيس». ويصنع من الخل والملح والماء إضافة إلى نوع من الخضار أو الفواكه أو السمك.
- (١٤) مثل لون البناتق والصنهاجي الملوكي والمركاس بالجبن الرطب. انظر: مؤلف مجهول: كتاب الطبخ: م.س. ص ٢٢، ٢٤.
- (١٥) المصدر نفسه. ص ٣٠، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٣.

الامخاخ^(١) ثم الشواء الذي يلبث بالسمن ويملح ويقطع بالسكين^(٢).

ويستشف من ديوان ابن قزمان^(٣) بعض الأطعمة التي كانت تقدم في شهر رمضان كالجوزباه. كما يستخلص منه كيفية استغلال لحم عيد الأضحى إما بقلية أو جعله قديداً أو شواءه بالنار بعد تملিحه^(٤)، أو طبخه لصناعة ثريد بالبيض واللحم^(٥).

ومن ألوان الأطعمة الأخرى التي راجت في العصر المرابطي ما عرف بالمثلث الذي كان يصنع باللحم والزعفران والخل والبقل والباذنجان والقرع والجزر أو رؤوس الحسن دون ورقه^(٦). كما وجدت بعض الأكلات المتواضعة التي انتقد العامة تقديمها للضيوف مثل بركوكش والفجالة والقنبيط^(٧).

وقد بالغ الأندلسيون في استعمال التوابل إذ أشار أحد الجغرافيين^(٨). إلى أن أهل بسطة يكثر من استعمال الزعفران. لكن يبدو أن سكان الأندلس عامة استعملوا كل التوابل الأخرى من كزبر وفلفل وكمون وملح ومرق وبقل الروم وخل^(٩).

وتبرز من خلال أرجال ابن قزمان^(١٠) بعض الأكلات الخفيفة التي لا تتطلب الطبخ في القدر مثل الجبن والفرنوق الذي يتكون من رئات الذبائح مقلية أو مشوية.

ويمدنا ابن خير الاشبيلي^(١١) الذي عاش في الحقبة موضوع الدراسة بطريقة تهيء الزيتون وكيفية استعماله في الأغذية، وكذلك طريقة صناعة الرُب.

وإلى جانب الأطعمة التي كانت تطبخ في البيت، كانت هناك أطعمة أخرى تصنع في الأسواق

(١) السقطي: م.س. ص ٤٠.

(٢) الوزان: م.س. ج ١ ص ١٩٧.

(٣) انظر رجل ١٣٧ ص ٨٦٤ وفيه يقول:

جوزباه قمح الضيف إيتكم إخواني
(٤) نفسه ص ٥٢٤ ويقول:

| | | | | |
|-------|------|---------|---------|--------|
| واش | إلى | القلايا | والقديد | المشرح |
| وشواي | لجنب | وانا | جلس | نملح |
| ونصف | عل | ثم | نبتدي | نملح |

(٥) المصدر نفسه ص ٤٣٦ رجل ٦٧ ويقول فيه:

قديرا مفسول بإلقاء عل النار
ودق فإذا رأيت ينضج بصفار

(٦) مجهول: كتاب في الطببخ م.س. ص ٢٢٠.

(٧) عبرت أمثالهم عن ذلك: «فجالة السلق» بعد علي، مثل رقم ١٧٧٧ وكذلك: «قنبيط لس ببغيطة» مثل رقم ١٧٨٤.

انظر: الزجالي: م.س. ج ١ ص ٢٢٧.

(٨) العمري: م.س. (تحقيق) ص ١٦٢.

(٩) مؤلف مجهول: كتاب الطببخ م.س. ص ٥٢، ٥٦.

(١٠) انظر ديوانه: رجل ٦٢ ص ٦٢ ورجل ٨ ص ٥٢.

(١١) كتاب في الفلاحة م.س. ص ٦٠ - ٦١ ويقول: «خذ زيتوناً طيباً من زيتون كطف بالأيدي، فرصه بالعود وضعه في إناء وصب عليه ماء وملحاً جريشاً وغط الإناء بورق البسباس أياماً ثم انثر عليه كموناً وملحاً». أما عن الرُب، الذي يُصنع من عصير العنب، وكيفية صناعته ليصبح شراباً عذباً، فانظر المصدر نفسه ص ١٠٤ - ١٠٥.

كالإسفنج^(١)، وكذا بعض الحلويات.

ولا سبيل إلى الشك في براعة الأندلسيين والمغاربة في صناعة شتى أشكال الحلويات كالkekكعك والمسمنات والشهدة^(٢)، والخشكلاان والمشماش والسنسبوك والقطائف العباسية والمعسل والزلابية^(٣) والجوزنيقات والقاهريات^(٤). وقد اتقنت الطباخات السودانيات تهييء هذا الصنف الأخير كما يؤكد البكري^(٥).

وتميزت حلويات المغرب الأقصى بكثرة العسل والزيت المستعملة فيها^(٦). ودعا ابن عبدون^(٧) صانعي الكعك إلى إجادته وطبخه، وأن لا يكون رقيقاً. ويبدو أن الرعايا فضلوا صنع الكعك بأيديهم عوض شرائها من السوق، ربما لعدم اتقان صنعها من طرف البائع، أو عدم احتوائها على عناصر الجودة. كما اشتهرت الحلوى المعروفة بالمداثن، وكانت تصنع في عيد النيروز^(٨).

وغني عن القول أن القهوة والشاي لم يعرفا في العصر المرابطي. فرغم ورود مصطلح قهوة في أزجال ابن قزمان^(٩)، فإنه كان يقصد بها الخمر. أما بالنسبة للشاي فقد لاحظ T. Legendre في رحلته المنشورة بمستندات دوكاستر^(١٠) أنه لم يدخل إلى المغرب إلا سنة ١٦٦٥ م، بل إن Miège^(١١) لا يقر بوجوده إلا في منتصف القرن ١٨ م، لكن النعنع وجد في الحقبة المرابطية، شفيعنا في ذلك نصيحة ابن زهر^(١٢) بتناوله في آخر كل أكلة.

وأخيراً من المفيد أن نذكر طريقة تناول الطعام. فقد كان أفراد العائلة يجلسون على الأرض، ويخلقون حول موائد منخفضة ويأكل الجميع باليد. وإذا تعلق الأمر بكسكسو، تناوله الجميع في صحن واحد بدون ملاعق. ويكون المرق واللحم معاً في قدر من فخار يتناول كل واحد منهم قطعة اللحم التي تعجبه، ويضعها أمامه دون تقطيع، ولا يستعمل السكين، وإنما تمسك قطعة اللحم باليد

(١) الإدريسي: م.س. ص ٦٥ - ابن الزيات: م.س. ص ٢٤٤. ترجمة أبو إبراهيم إسحاق الهزجري.

(٢) ابن زهر: م.س. ورقة ١٥ - السقطي: م.س. ص ٣٩.

(٣) مؤلف مجهول: كتاب الطيبخ م.س. ص ٢٠٢، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٤، ٢١٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢١١.

(٥) المغرب... م.س. ص ١٥٨ - مؤلف مجهول: الاستبصار... م.س. ص ٢١٦.

(٦) القلقشندي: م.س. ج ٥ ص ١٧٥ - العمري: م.س. (مخ) ورقة ١٠٧ ب.

(٧) رسالة في الحسبة م.س. ص ٤٦.

(٨) عن هذه الحلوى وكيفية صناعتها. انظر: ابن عبد الملك: م.س. ج ١ ق ٢ ص ٥٦٥ - ٥٦٦.

(٩) انظر ديوانه ص ٦٢٢ زجل ٩٤، وكذلك ص ٨٧٤ زجل ١٣٩ وفيه يقول:

اسقني ذا القهوة حتى تنشط . واخبط بما إن اردت ان تخط
كما ورد هذا المصطلح في إحدى قصائد ابن عباد الذي قال في إحدى جواريه:

روعها البرق وفي كفها برق من القهوة لناع
انظر: المقرئ: نفع... ج ٤ ص ٢٦٢ وكذلك: ازهار... ج ٣ ص ١١٥، ١٢٤.

(١٠) السلسلة الأولى: السعديون ج ٣ ص ٦٩١، ٦٩٢ انظر: بنعيد الله: المعجم التاريخي ص ٤٠.

(١١) Origine et developpement de la consommation du thé au Maroc B.E.S.M Vol XX N°71 Janvier 1957. p.380.

(١٢) مختصر في الاغذية م.س. ورقة ١٦٧.

وينهش منها بالأسنان قدر المستطاع^(١).

وتقدم الوجبات ثلاث مرات في اليوم^(٢). وقد انتقد الطرطوشي^(٣) من يقدمون الفاكهة على اللحم، وكذلك من يتخذون الألوان والأكل على الخوان، ويستعملون أنية الفضة. وغني عن القول أن بعض الناس عرفوا بنهمهم وشراههم في الأكل كما تؤكد ذلك بعض القصائد الشعرية^(٤). وعلى العموم فإن سكان الحواضر تميزوا بكثرة أكلهم إذ اعتادوا على اتخاذ أشكال متعددة من الأطعمة المملوءة بالآدم والتوابل، بينما خالفهم أهل البادية الذين اقتصروا على القليل من الأكل، الخالي من الآدم^(٥).

ثانياً: الأزياء

من المتعارف عليه أن الزي يعد شكلاً ثقافياً يجسد رؤية الجماعة والفرد لمجموعة من القيم والمعايير الاجتماعية. وهو حسب هيغل اللحظة التي يصبح فيها المحسوس دالاً، أي أنه يجسد ما يتخذه الجسد البشري كي يصبح حاملاً لمجموعة من الدلالات والعلامات، ومن ثم فإن وظيفة اللباس تكمن في إبراز اختلافات الامتيازات الاجتماعية والمهنية^(٦). ويغلب على ظننا أن هذه القاعدة تنطبق على موضوع الدراسة. ويمكن أن نسوق كدليل على صحتها مثال اللثام. فقد منع ابن عبدون^(٧) جميع طبقات الناس من لباسه بدعوى أنه زي خاص بالمرابطين يتميزون به عن غيرهم من الطبقات الاجتماعية الأخرى. مما يؤكد أن اللباس ما هو إلا تجسيد للتمايز الاجتماعي.

ونظراً لأهمية اللثام كصنف في الأزياء السائدة، وكظاهرة ارتبطت بالمرابطين، فضلاً عما تحمله من رموز ودلالات تعكس بعض مظاهر الحياة الاجتماعية، من المفيد أن نبحث عن أصله وما يحمله من دلالات اجتماعية.

تضاربت آراء المؤرخين وغيرهم حول أسباب اتخاذ المرابطين اللثام، ويعد ابن حوقل^(٨) أقدم جغرافي ذكر هذه العادة في اللباس بنوع من التركيز، فكشف أن أفراد القبائل الصنهاجية يتلثمون منذ طفولتهم، وينشأون على تلك الحالة. ويفسر هذه العادة بكونهم اعتبروا «الفم سوءة تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه، إذ ما يخرج منه عندهم أنتن مما يخرج من العورة». ويزكي هذا النص

(١) الوزان: م.س. ج ١ ص ١٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

(٣) كتاب الحوادث والبدع ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٤) الأصفهاني: م.س. ج ٤ ص ١٥ ويورد أبياتاً شعرية للشاعر السمسير الذي عاش في هذه الحقبة يصف

(٥) أكلوا.

| | | | | | | |
|------|-------|----|-------|-------|--------|---------|
| يا | أكل | ما | اشتبه | وشاتم | الطب | والطبيب |
| نمار | ما | قد | غرس | تجني | فانتظر | السقم |
| يسمع | الداء | كل | يوم | اغذية | السوء | كالذنوب |

ابن خلدون. المقدمة ج ٣ ص ٩٤٧ - ٩٤٨.

(٦) انظر بارت «الجسد أيضاً وايضاً»، مجلة العرب والفكر العالمي ع ٧ صيف ١٩٨٩ ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٧) رسالة في الحسبة ص ٢٨.

(٨) صورة الأرض ص ٩٩.

ويكمله ما جاء في سياق حديث البكري^(١) بصدد هذه الظاهرة حين أوضح أن المثلثين يسمون من خالف زيهيم (أي لثامهم) بأفواه الذبان، إشارة إلى الرائحة الكريهة التي ذكرها ابن حوقل، وهي الرائحة التي تكون سبباً في جلب الذباب إلى الفم.

ومما يزيد من تماسك النصين السابقين ويثبتهما رواية ذكرها النويري^(٢) مفادها أن شيخاً من المثلثين شوهد منزوياً في ضفة نهر يغسل ملابسه وهو عاري الجسم، وعورته بارزة يغسل بيده اليمنى، ويستر باليد الأخرى وجهه. فلما طلب منه أن يستر عورته غطى وجهه وكأنه عورته الحقيقية، مما جعلنا نستخلص أن المرابطين اعتبروا الفم عورة واتخذوا اللثام لسترها.

رغم أهمية هذا التعليل، لا يسع الباحث إلا أن يبدي بعض الشك في صحته. ومما يبرر هذا الشك أن النساء المرابطيات لا يتلثمن، فلو كان الأمر يتعلق بعيب مثل الذي ذكرته النصوص السالفة لانطبق على النساء، مما يدعو إلى التحفظ من هذا الحكم.

ويذكر صاحب الحل الموشية^(٣) والسعدي^(٤) أن سبب تلثم المرابطين يرجع إلى أن أحد الأبحار أخير ملكاً من ملوك التباينة بحوادث المستقبل، وأن الله سيبعث رسولاً يكون آخر الأنبياء، فآمن به وصدق ودعا رعيته إلى الإيمان بما آمن به، فلم تجبه إلا طائفة من قومه حمير. ولما توفي غلب أهل الكفر على أهل الإيمان فتتبعوهم بالقتل والتشريد، فاضطر البعض إلى التلثم تمويهاً على أعدائهم، وتفرقوا في الأقطار حتى وصلوا للمغرب، ومنذئذ اتخذوا اللثام سنة.

بيد أن هذه الرواية تبقى بدورها ضعيفة، فإلى جانب ما تنطوي عليه من طابع خرافي، فإنها لا تسائر المنطق التاريخي. فلو افترضنا أن المثلثين اتخذوا اللثام سنة وشعاراً منذ مجيئهم من المشرق، فإننا لا نجد ما نبرر به تخلي إخوانهم الذين استقروا في شمال المغرب الأقصى عن استعماله. قد يعترض على هذه الحجة بالظروف المناخية التي تميزت برطوبتها في الشمال، لكننا نعلم أن صنفاً من الجنوب رغم دخولهم المغرب والاندلس التي يسودها مناخ معتدل، لم يتخلوا قط عن اتخاذ اللثام.

ويعلل كل من ابن الأثير^(٥)، وابن خلكان^(٦) وغيرهما من جبهة المؤرخين^(٧) أسباب اتخاذ اللثام كزعي رسمي للمرابطين برواية مؤداها أن طائفة من لمتونة خرجت غازية، غير أن العدو خالفها إلى ديارها التي لم يكن يوجد بها إلا الشيوخ والصبيان والنساء. فلما تأكد المشايخ أنه العدو، أمروا النساء أن يرتدين ثياب الرجال ويجعلن اللثام ويضيقنه حتى لا يعرفن ثم يحملن السلاح، ففعلن ذلك تمويهاً على العدو الذي حسبهن رجالاً، فأثر سوق النعم والغنائم والرحيل عنهم. لكن رجال لمتونة

(١) المغرب... ص ١٧٠.

(٢) نهاية الأرب... ج ٢٤ ص ٢٦٤.

(٣) مؤلف مجهول: الحل... ص ١٨ - ١٩.

(٤) تاريخ السودان ص ٢٥ - ٢٦.

(٥) الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٧٦.

(٦) وفيات الأعيان ج ٧ ص ٣٧.

(٧) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ٣٥٦ - أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ص ١٧٥ - الباقمي: مرآة الجنان... ص ١٦٥ - ابن المسكر: الخبر المغرب... (مخ) ص ١٧٤. وانظر كذلك المشرقي: الحل البهية... (مخ) ص ٧١ - الناصري: م.س. ج ٢ ص ٣ - ٤ - حركات: المغرب عبر التاريخ ج ١ ص ١٦٥.

عادوا في اللحظة المناسبة فوضعوا المعتدين بين فكي كماشة، وبطشوا بهم. ومنذئذ اتخذوا اللثام سنة يلزمونها ويتبركون بها.

ويخيل إلينا أن هذه الرواية كذلك لا ترقى إلى مستوى الحقيقة التاريخية، لأن استعمال اللثام كوسيلة للخدعة في إحدى المعارك يستلزم تغيير «التكتيك» الحربي في المعارك الأخرى اللاحقة للإيقاع بالعدو، وليس الاستمرار في لباسه. كما أن عدم استعماله من قبل النساء واتخاذ سنة يلزمها، رغم أن الانتصار تحقق بفضل تلتهم، يدعو إلى الشك في صحة أصل هذه العادة.

وثمة تعليل آخر فسر به أحد الشعراء^(١) ظاهرة اللثام، إذ ذكر أن المرابطين تلتهم من كثرة الحياء والحشمة والشجاعة والاستعداد لخوض الحروب^(٢). لكن هذا التعليل يندرج في سياق المدح الذي جبل عليه الشعراء بما يقتضيه ذلك من اختلاق الفضائل والشمائل رجاء في نيل الهبات والانعامات.

ويطالعنا العمري^(٣) بتعليل آخر لا يتماشى مع المنطق التاريخي إذ ذكر وهو بصدد الحديث عن رجال مسوفة أنهم يتلثمون لإظهار الحزن على المهدي بن تومرت! وهذا تعليل لا يحتاج إلى تعليق؛ بينما أكد بعض المؤرخين^(٤) على عامل المناخ حين فسروا اتخاذ المرابطين للثام بشدة الحر. وهذه نقطة تتطلب وقفة ومناقشة.

قدم دلافوس Delafosse^(٥) فرضية أساسها أن تغير المناخ بالصحراء من الرطوبة إلى الجفاف لم يسفر عن انتقال السكان المقيمين بها، بل غيروا أسلوب العيش، فتحولوا من مزارعين إلى رعاة. وللحفاظ على وجوههم وشفاهم من لفح الرياح والرمال التي تسبب العطش اتخذوا اللثام.

لكن تفسير هذه العادة بعوامل مناخية لا يمكن أن تسلم كذلك من بعض الانتقاد. فلو أن ظروف الصحراء دفعت المرابطين إلى اتخاذ اللثام، فلماذا ظلوا متشبثين به رغم نزوحهم إلى المغرب والاندلس حيث المناخ يختلف كلياً عن مناخ الصحراء.

والملاحظ أن اجتهادات الدارسين المحدثين تباينت بخصوص الموضوع، فمنهم من عزا عادة اللثام إلى أن المرابطين اتخذوا في أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب^(٦)، أو أنهم لبسوه اتقاء من شر

(١) هو الشاعر الفقيه الكاتب أبو محمد بن حامد الذي قال بهذا الخصوص:

ملك شرف العلا من حمير وإن انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا أحواز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلتهموا
انظر: ابن أبي زرع م.س. ص ١٢٧.

(٢) ابن خفاجة: ديوان ابن خفاجة ص ٢٤٦ ويقول بهذا الخصوص:

من أسرة يتلثمون إلى الرغوى يوم الحفيظة بالمعجاج الأقم

(٣) مسالك الأبصار... (مخ) ج ٣ ق ١ ص ٧٤.

(٤) العيني: م.س. (مخ) ج ٢٠ ق ٤ ص ٥٩٩ - ابن خلكان: م.س. ج ٧ ص ١٢٩ - النويري: م.س. ص ٢٦٢ -

اليافعي: م.س. ص ١٦٦. عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والاندلس: عهد يوسف بن تاشفين.

بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٥، ص ١٢.

(٥) Les relations du Maroc avec le soudan à travers les âges. Hes. 1924. T. IV 2ème tri. p. 156.

(٦) اشباح: تاريخ الاندلس... م.س. ص ٦٢.

العين^(١)، وهي عادة مأخوذة من زنوج أفريقيا^(٢) بينما ردها البعض إلى أصول دينية سحرية قديمة^(٣)، في حين رأى البعض أن الصنهاجيين تلمثوا حتى يمتاز شيخهم من شابههم ونساؤهم من رجالهم استعداداً لرد أي عدوان^(٤). غير أن هذه التفسيرات تبقى مجرد تخمينات تموزها النصوص أحياناً، وتناقضها أحياناً أخرى.

ما يمكن إضافته إلى هذه الاجتهادات، فتوى لابن رشد^(٥) تلقي أضواء جديدة على هذه المسألة. وأهميتها تكمن في عدم مسابقتها للروايات التي قدمها المؤرخون، إذ ترجع سبب تلمث المرابطين إلى العادة والعرف، ثم تربطها ببداية الدعوة الإصلاحية. فعندما سئل الفقيه الأندلسي عن «زي المرابطين من التلمث هل واجب عليه لزوماً أم يستحب أو يكره» أجاب بأن «تلمث المرابطين زيهم الذي اختاروه لأنفسهم نشأوا عليه وتوارثوه خلفاً عن سلف». فهو يفسر تلمث المرابطين بالعادة المتوارثة، إلا أنه يضيف بأنهم اتخذوا ذلك شعارهم في أول أمرهم حين بدأوا دعوتهم الدينية، فهل معنى ذلك أن المرابطين لم يتلمثوا إلا بعد ظهور حركتهم الإصلاحية مع عبد الله بن ياسين؟

قد نجد تكاملاً بين نص ابن رشد الأنف الذكر، ونص أبي الفدا^(٦) الذي ذكر أن المرابطين «كانوا يتلمثون على عادة العرب. فلما ملكوا ضيقوا لثامهم ليميزوا به». ويغلب على الظن أن ما يقصده ابن رشد من كونهم اتخذوا اللثام شعاراً يتميزون به عن غيرهم ليس هو اللثام في حد ذاته، لأن كثيراً من القبائل كانت تتلمث، بل كان يقصد الشكل الجديد الذي اتخذته المرابطون في طريقة تلمثهم، وهي طريقة مغايرة لعادة العرب. فإذا كان هؤلاء قد استعملوا لثاماً واسعاً، فإن المرابطين تميزوا عنهم وعن سائر الأمم كما يؤكد ابن رشد بتضييقه، لكن هذا الأخير لا يفسر لنا كيفية هذا التضييق. ولحسن الحظ فإن البكري^(٧) يكمل ما أغفله الفقيه، فيشير إلى أنهم كانوا يلبسون نقاباً فوق اللثام، ولا يبدو من وجوههم غير محاجر أعينهم، ومعنى ذلك أن تضييق اللثام شمل إضافة نقاب آخر على الرأس، وبهذا الشكل الجديد تميزوا عن سائر القبائل العربية والصحراوية التي كانت تتخذ اللثام.

فإذا صحت هذه الظنون كما يبدو من تكامل النصوص الأخيرة، فإننا نخرج بهذه النتائج:

- ١ - سمي المرابطون باللمثمين لا بسبب اتخاذهم اللثام، لأن معظم القبائل العربية وغيرها من قبائل السودان كانت تتخذه، ومع ذلك لم يطلق عليها هذا الاسم، بل لأن شكل لثام المرابطين اختلف

(١) جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة. تونس، الدار العربية للكتاب ١٩٧٨. ج ٢ ص ١٠٤ - عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، ١٩٦٩ (ط ٢) ص ٢٩٩.

(٢) الببادي: الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين م.س. ص ٤٩ - في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٩.

(٣) شعيرة: المرابطون: تاريخهم السياسي م.س. ص ٢١ - إبراهيم زغروت: الجيش في عهدي المرابطين والموحدين. رسالة ماجستير (مرقونة) ص ٧١.

(٤) ابن عثمان المراكشي: الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة الرباط ١٩٣٧، ص ١٣.

(٥) وردت عند البزلي. م.س. ص ٣٢.

(٦) المختصر في أخبار البشر ص ١٧٧.

(٧) المغرب... ص ١٧٠. ويسمي العمري النقاب بالبرقع مبيناً أن لونه كان أزرق. انظر: مسالك الأبصار... (مخ)

ج ٣ ق ١ ص ٧٤.

عن شكل اللثام الذي اعتادته مختلف القبائل: وقد أبرز البكري هذا الشكل الجديد حين كشف انهم اضافوا إلى اللثام نقاباً، وهو ما يبرر صحة فتوى ابن رشد القائلة بأنهم ارادوا ان يتميزوا به عن سائر الأمم، اي انهم اضافوا نقاباً إلى اللثام للتمييز عن سائر القبائل.

٢ - إن المرابطين قبل دخولهم الإسلام لم يكونوا يتنقبون، بل إن هذه العادة في اللباس لم تبدأ إلا مع بداية حركتهم الإصلاحية، كما تنص فتوى ابن رشد، وتعدها رواية أبي الفدا القائلة بأنهم «لما ملكوا ضيقوا لثامهم ليميزوا به».

ولا يجد الدارس صعوبة في تفسير استمرار المرابطين في التزيي باللثام إبان مرحلة بسط نفوذهم على المغرب والأندلس، فقد أصبح هذا الأخير دالاً على الفئة الحاكمة^(١)، ومعبراً عن الجاه والنفوذ: نجد مصداقاً لظنوننا عدم السماح لغير المرابطين باستعماله^(٢)، وتنعكس الرسالة التي كتبها ابن أبي الخصال عن الأمير علي بن يوسف إلى حامية بلنسية هذه الحقيقة^(٣)، ومما يؤكد ذلك أيضاً أن بعض عبيد المرابطين تزَيَّوا باللثام للظهور بمظهر السلطة والنفوذ، فروعوا الناس واكلوا أموالهم، الشيء الذي يسمح بالقول أن اللثام كان خاصاً بأرستقراطية المرابطين، ثم أخذ العامة والعبيد يتناولون عليه متشبهين بهم رغبة في السطوة والنفوذ. وهذا ما أثار غضب واستنكار ابن عبيدون^(٤)، فطالب «ألا يلثم إلا مرابطي». فاللثام إذن عكس القنوات التي يحملها المرابطي، والطموح الذي كان يحدو كل الشرائع الاجتماعية لتحسين وضعيتها وفرض وزنها داخل المجتمع.

ومما يعزز القول بأن اللثام أصبح تعبيراً عن وضع اجتماعي متميز، أن أبا إسحاق بن يحيى المسوفي التقى بأحد مشايخ الصوفية وسأله عن كيفية الالتحاق بأهل الزهد والمريدن، فأمره الشيخ بإزالة اللثام عن وجهه كدليل على تواضعه، وإزالة ما في نفسه من كبرياء وترفع عن الناس^(٥)، كما أن كثرة الأمداح التي قبلت في المرابطين، خصصت للإشادة بلثامهم^(٦)، مما يعكس أهميته كقيمة ورمز لطبقة مترفعة في المجتمع.

ويبدو أن نوع القماش الذي كان يلثم به المرابطون قد تغير بعد استيلائهم على السلطة إذ

(١) ابن قزمان: م.س. ص ٤٥٤ زجل ٧٠. ويعبر عن ذلك بقوله:

بالذي يعطيك رضا الأمير ايك تلثم إلا كبير

(٢) ابن عبيدون: رسالة في القضاء والحسبة (نشرة بروفنسال) القاهرة، المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، ١١٥٥.

ص ٢٨. Cornevin. Histoire de l'Afrique T1, p.321 - Margais. LaBerberie Musulmane, p.244.

(٣) «ما جاء فيها: فلولاً من لدينا من ذويكم وضاعتكم إلينا فيكم لالحقناكم عجلًا بصحرائكم. وطهرنا الجزيرة من رخصائكم، بعد أن نوسعكم عقاباً ونجد أن لا تلثوا على وجه نقباء». انظر حسن مؤنس: «نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين: ١١٢٦/٥٢٠ إلى ١١٤٥/٥٤٠». مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٥٥ م. ١ ع ٣، ص ١١٨.

(٤) ابن عبيدون: م.س. ص ٢٨.

(٥) ابن الزيات: م.س. ص ٢٥٤. ترجمة ابن يوغان.

(٦) ابن خفاجة: م.س. ص ١٢٦. ومما قاله في القائد أبي الطاهر تميم.

وروجه وضيئه شف عنه لثامه كما شف رقرق الفصام عن البدر
انظر امداحاً أخرى وردت في اللثام في المصدر نفسه ص ١٧٠ - ٢١٤.

صاروا يستعملون ثوباً ليناً رقيقاً يدعى الربط أو نوعاً آخر يسمى السابرية^(١) كما تغير لون اللثام من اللون الأزرق الذي ساد قبل بداية الدعوة المزابية^(٢) إلى اللون الأسود، وهو شيء بديهي إذا علمنا أن المزابيين اتخذوا كل رموز العباسيين بما في ذلك اللون الأسود، ويؤكد من ناحية أخرى أن ارتباط المزابيين بالعباسيين بدأ منذ البداية الأولى لحركتهم، مما يعزز فكرة سيولة المدالسن في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً.

وعلى كل حال، فإن عادة لباس اللثام ظلت غريبة على الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس، واعتبرت شذوذاً وخروجاً عن المألوف، بل عيباً كبيراً استغله ابن تومرت لتلوّث سمعة المزابيين^(٣) وتشبيههم بالنساء^(٤).

— إلى جانب اللثام الذي انفرد المزابيون بلباسه، تمدنا المصادر بأنواع الأزياء التي اعتادت مختلف الشرائع الاجتماعية على ارتدائها. وقد تنوعت حسب وضعيتهم المادية وبيئتهم الحضرية أو البدوية.

يتجلى أثر الوضع المادي واضحاً في اختلاف الأزياء من طبقة لأخرى. فعلى الرغم من دعوة الحضرمي^(٥) إلى الاعتدال في اللباس، فإن طبقة الخاصة ابت إلا أن ترتدي أفخر الثياب. وقد سبق القول أن الإنتاج الصناعي كرس للصناعات الكسالية بما فيها الأزياء الفاخرة لازدياد طلب الأرستقراطية عليها، لذلك تنوعت ملابسها، وتعددت أشكالها حسب المناسبات والطقس السائد. ذكر ابن عبد الملك في ترجمة أحمد بن يحيى العبدري (ت ٥٦٦ هـ) أنه «عمد إلى أزياء الملابس التي جرت عادة المترفين باستعمالها في فصل شدة القر كالقرا وثياب الملف والقباطي والبرانس»^(٦). ولم تفت ابن قزمان الإشارة إلى لباس الفراء والإعراب عن أمنيته في الحصول عليه لعدم قدرته على شرائه^(٧). ويقدم لنا من خلال أزجاله صوراً متعددة عن أنواع الأزياء التي شاعت بالأندلس خلال العصر المرابطي، وعلى الخصوص الملابس الباهظة الثمن مثل اللاذ الذي هو نوع من الحرير والقز، واللاس وهو صنف من اللاسة المصرية أو Raso القشتالية، وهما معاً من المنتجات الغالية، فضلاً

(١) يظهر ذلك من خلال هذه الأبيات التي مدح بها أحد قضاة المرية المزابيين:

إذا لثموا بالسريط خلت وجوههم أزاهر تبدو من فتوق كسائم
وإذا لثموا بالسابرية أظهروا عيون الأقاعي من جلود الأراقم
انظر ابن دحية: م.س. ص ٩١ - ابن عبد الملك: ج ٤ ص ٩. الربط أو الرباط مفرد ما ربطة وهي ثوب رقيق لين يشبه المنديل كان يتلثم به المرابطون. والسابرية ثوب رقيق جيد ينسب إلى سابور إحدى مدائن فارس كان يتلثم به المرابطون أيضاً.

(٢) العمري: م.س. ص ٧٤.

(٣) البيهقي: م.س. ص ٢٧. ويذكر أن ابن تومرت دخل جامع علي بن يوسف. فوجد الأمير المرابطي ملثماً فوصفه بالجارية.

(٤) انظر: أعز ما يطلب... ص ٢٤٧ - ابن القمان: م.س. ص ٤٦. الفبريني: عنوان الدراية... طبعة الجزائر ١٣٢٨ هـ. ص ٣٤. ترجمة ٢.

(٥) الإشارة في تدبير الإمارة ص ٦٨.

(٦) الذيل والتكملة ج ١ ق ٢ ص ٥٥٦.

(٧) انظر ديوانه، زجل ١٣١.

عن الغفائر وعمائم الديبقي^(١)، والسوسية، وهو ثوب كان يستورد من مدينة سوسة بأفريقية^(٢). كما ذكر بعض الملابس الخاصة بالمناسبات والأعياد، والتي كان البعض يفضل خياطتها حتى تأتي في الجودة والأناقة حسبما يريدها صاحبها. ويذكر من جملتها البرون أو ما يعرف بالفوقية التي تلبس فوق القفطان، ثم المنديل المخروط الأكمام، والقباطي غير المكعبة^(٣). والراجح أن البرانس ذات اللون الأبيض خصصت للفقهاء^(٤)، بينما خصصت العمائم الخضراء للقضاة والكتاب ورؤساء الجند كزي رسمي. بينما لم يكن عامة الأندلسيين يتعممون أصلاً^(٥). ويتضح أثر البيئة في اختلاف الأزياء إذا قارنا لباس أهل الأندلس مع أهل المغرب الأقصى. ذلك أن التأثير الإفرنجي في الزي الأندلسي ظهر واضحاً^(٦)، وعلى الخصوص في الملابس الحريرية المطرزة والقلانس^(٧). وفي هذا الصدد ذكر ابن الخطيب عن ابن مردنيش أمير شرق الأندلس إبان العصر المرابطي الأخير، أنه «مال إلى اتخاذ زي الروم»^(٨). كما أكد مؤرخ آخر أن أمراء وأجناد الأندلس غالباً ما تزيّوا بزي النصارى^(٩). وعند حديثه عن أنواع الأزياء التي شاعت خلال العصر المرابطي، وخصوصاً الباهظة الثمن، يشير إلى اشتراك الأندلسيين - نصارى ومسلمين - في صناعته من جلد القلنية^(١٠)، مما يدل على التأثير النصراني في هذا اللباس الفاخر. ومن البراهين الأخرى التي نسوقها للدلالة على التأثير الإفرنجي في الزي الأندلسي أن مصطلح «فشطان» عرف في اللغة العامية، ويعني «ثياب الروم»^(١١).

وقلما وجد أندلسي يسير دون طيلسان، وهو ثوب موصول بغطاء الرأس. إلا أن الأعيان وحدهم كانوا يضعونه على رؤوسهم. أما العامة فيلقونه على الكتف^(١٢)، ويلبسون غفائر الصوف ذات اللون الأحمر والأخضر. بينما ظل اللون الأصفر خاصاً باليهود، وإن كانت النصوص تذكر أن ابن قزمان لبس غفارة صفراء، ولكنه لم يسلم من الانتقاد والتعيير^(١٣).

(١) المصدر نفسه ص ٥٠٠ زجل ٨٧ ويقول فيه:

وانا الش (أي بنفسه) منذ كنت لباس
وغفائر ملاح على اجناس وعمائم ديبقي تساوي مال

(٢) المصدر نفسه ص ٨٤٤ زجل ١٢٣.

(٣) المصدر نفسه، زجل ٩٨.

(٤) العمري: مسالك... (تحقيق) ص ١٤١ - ١٤٢.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة... ج ١ ص ١٤٢.

(٦) غنية: تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى م.س. ص ٢٩١ - غني: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها م.س. ج ٣ ص ١٣٨. حركات م.س. ج ١ ص ٢٢٦.

(٧) السامرائي: علاقات المرابطين بالملك الإسباني بالاندلس وبالذول الإسلامية م.س. ص ٤٠٧ - برونسال:

حضارة العرب في الأندلس م.س. ص ٨٦.

(٨) أعمال الإعلام - تحقيق برونسال ص ٢٦١.

(٩) المقرئ: نفح... ج ٢ ص ١١١ (طبعة مصر).

(١٠) المصدر نفسه ص ٦٢.

(١١) الأمواني: الفاظ مغربية من كتّاب ابن هشام اللخمي م.س. ج ٢ ص ٣٠٢.

(١٢) العمري: م.س. (تحقيق) ص ١٥٩.

(١٣) السيوطي: نزهة الجلساء من أشعار النساء ص ٩٩ - ١٠٠ ويذكر أن نزهة بنت القلاعي عندما رأت ابن قزمان =

وكان للفصول أثرها في تغيير الملابس. ففي الشتاء جرت العادة أن يلبس الجوخ، بينما تلبس في الربيع أثواب الخزدون بطائن ولا أكمام، في حين تميزت ثياب الصيف بخفتها^(١) ولونها الأبيض، وشكلت من الكتان والحبر والقطن والأردية الأفريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشقوقة^(٢).

وعلى العموم، اشتهر الأندلسيون بالنظافة والتأنق في اللبس. فعند حديثه عن سكان مدينة شريس، يذكر المقرئ أن «لأهلها هم وظرف في اللباس»^(٣) كما يذكر الذهبي في ترجمة خلف بن إبراهيم (ت ٥١١ هـ) أنه كان «جميل المنظر والملبس»^(٤). لذلك لا غرابة أن تثير الأقمصة الأندلسية إعجاب بعض الكتاب الذين أطلقوا عنان أقلامهم لوصفها والإشادة بها^(٥).

وفي الوقت ذاته، اتقن الأندلسيون ترتيب الأزياء واختيار الألوان. فالثوب الأزرق تناسبه الغفارة الخضراء^(٦)، والخلد الرمان يلبس تحت القميص^(٧). واستحسنوا أن تتخلل الملابس طروز، وأن تجعل لها ذبول تسدل بشكل مستو يزيد اللباس روعة وأناقة^(٨).

وثمة ظاهرة لاحظها ابن باجة^(٩)، وتتعلق ببعض الناس الذين كانوا يلبسون الملابس الأنيقة فوق الملابس الخشنة إخفاء لوضعهم الاجتماعي الحقيقي، ومحاولة للتقرب من الأعيان.

أما أزياء أهل المغرب الأقصى، فقد اختلفت نسبياً عن لباس الأندلسيين. فالزى الرسمي للمرابطين تمثل في ملابس سوداء عبرت عن تعلقهم بالعباسيين^(١٠). بينما كان الجند يرتدون الغفائر القرمزية، والعمائم ذات الذؤابات^(١١)، وحسبنا أنهم شوهوا بعمائمهم في معركة الزلاقة^(١٢). وكانت هذه العمائم مثار انتقاد واستهزاء من قبل الأندلسيين الذين لم يعتادوا على لباسها، لذلك صورتها أمثالهم بكثير من السخرية^(١٣). وانتقد المعتمد بن عباد المعتصم بن صمادح حين تزيى بالعمامة تزلفاً للمرابطين، بل إنه أغرق جارية غنت أبياتاً فيها ذكر لعمائمهم^(١٤).

= يلبس غفارة صفراء قالت له: «أصبحت كبقرة بني إسرائيل ولكن لا تسر الناظرين». انظر الرواية نفسها عند: ابن سعيد: رايات... ص ٦٠ - المقرئ: نفح... ج ٤ ص ٢٩٦.

- (١) المعري: م.س. ص ١٥٩.
- (٢) القلقشندي: م.س. ج ٥ ص ٢٧١ - ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ١٢٦.
- (٣) نفح... ج ٢ ص ٣٥.
- (٤) معرفة القراء الكبير ج ١ ص ٢٧٨.
- (٥) ابن خاقان: مطمع الأنفس... ص ٣٠٨. انظر وصفه لقميص - الأصفهاني: م.س. ق ٤ ج ٢ ص ٤٩٧.
- (٦) انظر: ابن قزمان: م.س. ص ١٨٠ زجل ٢٤.
- (٧) المصدر نفسه، ص ١١٧ زجل ١٦.
- (٨) المصدر نفسه، ص ١٨٠ زجل ٢٤.
- (٩) كتاب تدبير التوحيد... ص ٧٦ - ٧٧.
- (١٠) ابن خلدون: م.س. ج ٦ ص ٨٩ - حركات... م.س. ج ١ ص ٢٣٦.
- (١١) ابن غازي: الروض البهوت... ص ٣.
- (١٢) ابن الخطيب: أعمال... ج ٣ ص ٢٤٤.
- (١٣) قالت أمثالهم: «طالع هابط، بحال عمام في رأس مرابط». انظر الزجالي: م.س. ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠.
- (١٤) مما جاء في قصيدة هذه الجارية:

حملوا تلويب الأسد بين ضلوعهم ولجوا عمائمهم على الأقمار
انظر: المقرئ: نفح... ج ٦ ص ١٢.

أما الفقهاء فقد اعتادوا على ارتداء غفارات بقبو^(١) وعمامات تسمى العنثون، وتصنع أحياناً من الحرير^(٢)، وتوضع تحت الحنك. وجعلوا على رؤوسهم أحياناً قلنسوة^(٣)، أو كرزية، وهي عبارة عن عمامة نسيج مستطيل الشكل مصنوع من صوف. وبها تزياً ابن تومرت عندما رحل إلى المشرق^(٤).

ويستشف من خلال الهدية التي أهداها يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه أبي بكر بعض الأزياء الرفيعة الخاصة بأعيان القبائل وذوي الوجاهة، وتتمثل في العمامات المقصورة والثياب السوسية، والبرانس ذات اللون الأسود والأحمر، والأكسية البيضاء والمصبوغة، والقبطية، وإشكرلاط الملف الرفيع^(٥)، وأكسية الملف والسوسية^(٦).

أما العامة فأكثر لباسهم تشكل من الصوف والبرانس الكحل^(٧) والمغاربة على العموم أقل اعتناء بمظهرهم من الأندلسيين وأكثر تواضعاً. وفي هذا الصدد ذكر ابن صاحب الصلاة^(٨) عن عبد المؤمن بن علي أنه «ما لبس قط إلا ثياب الصوف عن قميص وعن سراويل وعن جبة تواضعاً لله تعالى وزهداً». ويمدنا ابن الزيات^(٩) ببعض الأزياء السائدة في الأوساط الشعبية كالجبة التي كانت تلبس عادة تحت الجلابية، والعباءة^(١٠)، والبرنس والشاشية^(١١) والسلهامة^(١٢) التي هي شبيهة بالبرنس. جاء في إحدى الروايات أن الشاعر أبا بكر البكي الذي عاش في الفترة موضوع الدراسة سافر من فاس إلى تلمسان، وتوقف بإحدى الحانات، فدخل عليه رجل «وعلى وجهه سلهامة قد سترته» مما يدل على أنها كانت تغطي حتى الرأس خاصة في الأيام المطيرة حسبما ورد في الرواية المذكورة^(١٣)، وهذا ما يفسر قول القاضي عياض^(١٤) في ترجمة عبد العزيز السوسي بأنه «لبس برنساً

(١) ابن رشد: م.س. من ١٤٤ - ابن القاضي: م.س. ق ١ من ٢٥٢ - المقرئ: أزمار ج ٤ ص ٤. وعن مصطلح القبو، انظر: الأماوني: م.س. ج ٢ ص ٣٠٠.

(٢) ابن الحاج: م.س. ج ٢٩١.

(٣) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ٤٢ - مؤلف مجهول: كتاب في الفقه (مخ) م.س. ص ١٤٠ وقد نقل نازلة عن ابن رشد. انظر كذلك: الأماوني: م.س. ج ٢ ص ٢٩٢.

(٤) ابن القطان: م.س. ص ١٧ - مؤلف مجهول: م.س. ص ١٠٥ - البليدي: م.س. ص ٤١.

(٥) يقول محقق كتاب الحلل الموشية أن إشكرلاط الملف نوع من الثياب الصوفية قرمزية اللون تخاط منها الأكسية والأردية. وإن من المرجح أن أصل كلمة «الملف» مشتق من كلمة أما لفي اسم إحدى دويلات إيطاليا في العصور الوسطى. انظر هامش ٤١ ص ٢٧ من فوامش المحقق. أما «القبطية» فنرجح أن الاسم يعني أثواباً مستوردة من مصر.

(٦) مؤلف مجهول: الحلل... م.س. ص ٢٧، والأكسية السوسية هي الثياب المستوردة من سوسة - أنريقية (البلاد التونسية الآن).

(٧) ابن خلدون: م.س. ج ٦ ص ١١٦.

(٨) رواية ابن القطان: م.س. ص ١٣٢.

(٩) القشوف... ص ٣٦٨. ترجمة أبو زكريا يحيى بن داود.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢١٦.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(١٣) ابن ظافر: بدائع البدائع ج ١ ص ٩٣ - ٩٤.

(١٤) المدارك ج ٨ ص ١٦٨.

يقطع رأسه». ولمقاومة الأمطار كان العوام يلبسون برانس من الجلد^(١).

وأكد الفقيه أبو بكر الطرطوشي^(٢) أن «التقنع بالشوب على الرأس شائع في بلاد المغرب». وهو ما أشار إليه القلقشندي^(٣) حين تحدث عن تأثير المغاربة في السودانيين من ناحية اللباس فأكد أنهم «يرتدون عمائم بحنك مثل المغرب، وملبسهم شبيه بلبس المغاربة، جلباب ودراريع بلا تفريج». أما الأطفال فكان بعضهم يرتدون دراعيات من الصوف^(٤). ويبدو أن عادة توسيع الثياب والأكمام انتشرت، حتى أن الفقهاء اعتبروها بدعة^(٥).

لكن الأزياء اختلفت حسب المدن المغربية، فأهل ازكي من بلاد الصحراء «يلبسون مقندرات ثياب الصوف، ويسمونها بلفتهم القداور»^(٦). بينما جرت العادة لدى سكان سوس بارتداء أكسية من الصوف يلفونها على رؤوسهم، ويحترمون في أوساطهم بمأزر، ويسمونها أسفاقس^(٧). في حين اشتهرت لمتونة في الصحراء بأثواب الصوف والعمائم المعروفة بالكرازي^(٨). وشاعت بمدينة نول البسة تسمى السفسارية، فضلاً عن البرانس^(٩).

أما أزياء سكان فاس، فنستشف بعضها من خلال ترجمة وليها المشهور علي بن حرزهم الذي كان يلبس في الصيف دراعة قطن مصبوعة وطاقيّة ومزراً قصيراً، بينما يزيد في الشتاء دراعة ثانية من قطن^(١٠). ويزودنا القاضي عياض^(١١) بنص هام يكشف النقاب عن بعض أزياء الفاسيين، فعندما أسند يوسف بن تاشفين منصب القضاء لابن عبد الرحيم الكتامي، أجبرهم هذا الأخير على لباس «السراويلات نساءً رجلاً ولم يكونوا يلبسونها قبل». ولعل هذه العادة استمرت إلى عصر مرمول بدليل قوله وهو يصف لباس نساء مراكش «وليس لهن سراويل كالفاسيات»^(١٢). والواقع أن هذا الجغرافي قدم أوصافاً دقيقة لأزياء مدينتي فاس ومراكش، غير أنها - للأسف - بعيدة عن المرحلة التي تهمنا، وإن كانت بعض الملابس قد استمرت كالعمائم ولباس الاحذية المرصعة شتاءً، والنعال الخفاف صيفاً^(١٣)، وكذلك الجباب والقمصان والقلانس^(١٤).

ومن خلال ترجمة أبي العباس السبتي. يمكن الوقوف على بعض أزياء سكان مراكش الذين

(١) ابن سميذ: كتّاب الجغرافيا ص ١٤١.

(٢) كتّاب الحوادث والبدع ص ٦٦.

(٣) صبح الأعيى ج ٥ ص ٢٨١.

(٤) ابن القاضي: م.س. ق ١ ص ٣٣٦.

(٥) البرزلي: م.س. ص ٣٣.

(٦) الإدريسي: م.س. ص ٦٠.

(٧) المصدر نفسه ص ٦٢.

(٨) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٩) المصدر نفسه ص ٧٥ (ت.ص).

(١٠) الكتاني: زهرة الأس... (مخ) ج ١ ص ٦٩.

(١١) المدارك... ج ٨ ص ١٧٥ - ابن القاضي: م.س. ج ١ ص ٢٥٣.

(١٢) إفريقيا... ج ٢ ص ٥٧.

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٧٥ - ١٧٦.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٥٧.

اعتادوا على لباس البرانس والعمامات والسراويل^(١)، وجبات من جوخ ملونة تصل إلى الأرجل، وقطماً صغيرة مفصلة على شكل القرن كأنصاف سترات من فوق شملة رقيقة أو من خيوط الحرير والصوف، وقمصان وقلنسوات قرمزية^(٢).

وفي منطقة الريف، تجلت عادة السكان في اللباس في ارتداء اثواب الصوف، ووضع جلموس غليظ على الرأس وحزام عرف بالحزام التلمساني وعمامات بيضاء، فضلاً عن سراف، وهو عبارة عن سكين كبيرة كانوا يتقلدونها ويضعونها في أحزمتهم^(٣).

وعرف سكان حاحة بلباسهم ثياباً صوفية لا تقل خشونة عن غطاء الفراش، ويضعون على جلدهم إزاراً من الثوب نفسه يستريحون من الحزام إلى نصف الساق، ويغطون رؤوسهم بعمامات من صوف عرضها زهاء نصف قدم يلفونها خمس أو ست مرات^(٤). ولم يعتادوا على لباس القميص لانعدام الكتان عندهم، ولا يتأتى ذلك إلا لأثريائهم^(٥).

وتجلى لباس سكان جزولة في معاطف صغيرة أو قمصان من صوف ضيقة جداً، قصيرة لا تصل إلى الركبتين، ليس لها أكمام ولا أطواق، يضعون فوقها سترة من القماش الخشن^(٦).

ويمكن استخلاص أزياء النساء من خلال نصوص معاصرة للحقبة المرابطية رغم شحتها. فمن المعلوم أن المرأة المرابطية لم تتخذ القناع^(٧)، وإذا صحت شهادة ابن تومرت^(٨) رغم ما يبدو فيها من مبالغة، فإنها كانت تلبس لباساً يشف عن جسمها، وتجعل شعرها في غطاء على رأسها يشبه «سمن الجمل». وهذا الغطاء عبارة عن قطعة من النسيج الرقيق يبلغ طوله نحو ذراع تعصب به المرأة رأسها، ويرتفع ويلتف على شكل سمن الجمل بنحو ربع ذراع^(٩).

أما خارج الوسط المرابطي، فإن بعض النساء كن يغطين رأسهن بخمار من ثوب الحرير أو الكتان^(١٠)، ويجعلن تحت مقنعتين صفاقاً تطلق عليه العامة اسم كنبوش^(١١)، ويلبسن الجوارب والأخفاف في أقدامهن^(١٢). وقد أثارت امرأة إعجاب الشاعر ابن خفاجة وهي تلبس ثوباً معصفاً^(١٣)، ومنع الفقهاء النساء من لباس الثوب الرقيق الذي يشف عن جسمهن^(١٤). ويرى ديفورك

(١) ابن المؤقت: تعطير الأنفلس...، ص ٥١.

(٢) مارمول: م.س. ج ٢، ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) البادي: م.س. ص ٥٩. ترجمة محمد بن دوناس.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٢. ترجمة الشيخ علي بن محمد المراكشي.

(٥) مارمول: م.س. ص ٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧٠.

(٧) ابن خلدون: م.س. ج ٦، ص ٣٠٣.

(٨) عز ما يطلب...، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٩) دندش: الأندلس في نهضة المرابطين ومستهل الموحدين م.س. ص ٢٢٠.

(١٠) الأهواني: م.س. ج ١، ص ١٥٦.

(١١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٩. الكنبوش: برقع يغطي به الوجه.

(١٢) الونشريسي: م.س. ج ٢، ص ٢٥٠.

(١٣) ابن بسام: م.س. ق ٢، ص ٦٢٢.

(١٤) البرزلي: م.س. ص ٢٢.

Dufourcq^(١) أن النساء في العائلات الوجيهة بالاندلس كن يلبسن البرنس عندما يمتلئين البقال. ويصف أحد الجغرافيين^(٢) لباس نساء فاس فيذكر أنهن لا يرتدين في فصل الصيف غير قميص يحزمه بنطاق لا يخلو من قبح، بينما يلبسن في الشتاء ثياباً عريضة الأكمام مع سراويل طويلة تستر سيقانهن، وخماراً يغطي رأسهن. أما نساء مراکش فكن يلبسن ثياباً من الحرير والقماش يستترهن حتى الأقدام. وإذا خرجن من الحمام يخفين وجوههن عن أنظار الرجال بخمار^(٣). في حين كانت الاندلسيات يرتدين عند خروجهن من البيت سراويل طويلة متموجة الساق وينتعلن بأحذية من الجلد الناعم المطرز بالحرير الملون، كما كن يتخذن بعض الأساور في أرجلهن فوق العقب^(٤).

واختلفت أزياء أهل البادية عن ملابس سكان الحواضر. فقد ورد عند ابن سعيد^(٥) أن أبا إسحق الزويلي دخل على ابن زهر وقد أسنَّ «وعليه زي البادية»، وهو نص يفصح عن خصوصية لباس البدو، فضلاً عما اعتادوا عليه من حمل سلاح وعصي. فابن الزيات^(٦) لا يترجم لبعض رجال البادية دون ذكر العصي التي يصحبونها معهم، وقد أطلق عليها العامة اسم «أكدال» باللهجة البربرية^(٧). ومعلوم أن ابن تومرت كان يصحب معه عصاه أينما حل وارتحل^(٨).

ثالثاً: الاحتفالات والمواسم

تميزت العادات الاجتماعية في المغرب والاندلس خلال الحقبة المرابطية بالإسراف في إقامة مظاهر الاحتفالات بالأعياد ومختلف المناسبات. ومن هذه الأعياد ما له صبغة دينية، ومنها ما له صبغة فلاحية بحكم الطابع الزراعي للمجتمع، ومنها ما جاء انعكاساً للتسامح الديني مع المسيحيين.

فبالنسبة للأعياد والمناسبات الإسلامية، جرت العادة أن يكون يوم الجمعة يوم راحة أسبوعية. فالكتاب القرائية والدروس المسجدية تعطل ابتداء من زوال الخميس^(٩). كما تتوقف مختلف المرافق الإدارية، وتغلق المتاجر استعداداً لأداء صلاة الجمعة. ونظراً لما يكتسبه هذا اليوم من صبغة دينية، فإن الرعاية خصصته للتطهر والذهاب إلى الحمامات، وارتداء الثياب النظيفة، والابتعاد عن المنكرات والفواحش. وبهذا الخصوص أورد ابن ليون قول أحدهم وقد دعي إلى مجلس أنس في يوم جمعة: «اليوم يوم جمعة، وربنا قد رجحه، والشرب فيه منكر، فهل ترى أن ندعه»^(١٠).

(١) La vie quotidienne dans l'Europe Medievale sous la domination Arabe p.111.

(٢) الحسن الوزان: م.س. ج ١ ص ١٩٧. ورغم أنه عاش بعيداً عن الفترة فهناك بعض الأزياء التي لم تتغير.

(٣) مارمول: م.س. ج ٢ ص ٥٧ وتنطبق عليه الملاحظة السابقة نفسها.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٥) المقتطف من أواخر الطرف ص ٢٥٨.

(٦) انظر على سبيل المثال: التشوف... ص ١٣٢. ترجمة أبو محمد بن ياجان الزناتي.

(٧) الأهواني: م.س. ص ١٤٤.

(٨) ابن خلكان: م.س. ج ٥ ص ٤٦ - الناصري: م.س. ص ٧٩.

(٩) ابن عربي: رسالة القدس: ص ٣٦. ترجمة ١٤.

(١٠) لمح السحر... (مخ) ورقة ١٦٦.

وجرت العادة في هذا اليوم أن يخرج المحسنون الصدقات، وهذا ما يفسر إقبال المتسولين على المساجد لاستدرا رحمة المصلين^(١). أما الزوال فيخصص لزيارة الأقارب، أو اجتماع الشعراء أو يخصص للنزفة والاسترخاء كما سنفصل في حينه.

ومن المناسبات الدينية المعظمة لدى أهل المغرب والأندلس شهر رمضان. ويعكس أدب الحقة المرابطية المكانة التي احتلها هذا الشهر في نفوسهم، وما أملوه فيه من خيرات وبركات وهداية^(٢). لذلك غالباً ما بدأوا في الاستعداد لاستقباله بشراء لوازمه ومتطلباته. وفي هذا الصدد يخبرنا ابن قزمان^(٣) أن أصحابه اشتروا ما يلزمهم، أما هو فلم يتمكن من ذلك لفقره وتراكم الدين عليه. ولم يأل القضاة جهداً في مراقبة طلوع هلال رمضان بإرسال الأئمة وأهل الثقة التماساً لرؤيته، فإن ثبت، بعث القاضي في نواحي بلده بالنداء والإخبار، واستعملت الخيالة في سبيل ذلك^(٤). واتبعت طريقة إيقاد النار من طرف أهل القرية التي شوهد فيها الهلال لإعلام القرى المجاورة ببداية الصيام^(٥).

ويستشف من إحدى الروايات المنقوبة بعض العادات المتبعة في هذا الشهر، إذ يتم الإنفاق في أول ليلة من رمضان، حيث تشتري المأكولات للسحور، وتوقد القناديل في تلك الليلة. فقد أمرت امرأة ابنها ببيع غزل صوف وشراء خبز وزيت «لأن هذه أول ليلة من رمضان ليلة مباركة»^(٦). ويشتري الأغنياء ومتوسطو الحال الثياب لأبنائهم، ويصحبونهم معهم لصلاة القيام، وتقديم الصدقات للفقراء، ويكرم الأيتام في هذا اليوم^(٧). وجرت العادة أن يستدعي البعض أصحابه أو جيرانه لمشاركتهم في مائدة الإفطار^(٨).

واتبع معظم الرعايا ما يناسب هذا الشهر من سلوك حسن، وربما انقطعوا عن الممارسات العادية في حياتهم اليومية، وانصرفوا للعبادة والتزام المساجد التي تصبح مكانهم المفضل. ذكر ابن الحاج أن أباه كان «يقوم في مسجده في رمضان بقيام أهل المدينة، وكان يختم فيه ختمتين ليلة الخامس والعشرين من رمضان، وليلة التاسع والعشرين»^(٩). وكان أبو الفضل بن النحوي يقرأ في كل يوم من رمضان جزءاً من كتاب الأحياء^(١٠) أما أبو عبد الله محمد بن عمر اللمطي فكان «إذا

(١) ابن عيدين: م.س. ص ٢٤.

(٢) انظر بعض الخواطر التي نسبها ابن الخطيب لابن قزمان تجاه شهر رمضان، ومما جاء فيها: «سلام على انس المجتهدين وراحة المجتهدين، وراحة أعين المهتدين، والذي زين الله به الدنيا وأعز به الدين... الإحاطة... ج ٢ ص ٤٩٨. وانظر كذلك الرسالة التي كتبها أبو الحسن علي بن جرودي إلى أبي الزهرتي والتي جاء فيها: «قد أن أعز الله أن يهدي من ظل لهذا الشهر المعظم الذي قد أظل على ما خيلت ببركته وقرباته».

(٣) انظر ديوانه ص ٨٦٦.

(٤) البرزلي: جامع الأحكام ص ١٧١.

(٥) الوشرسي: المعيار... ج ١٠ ص ١٤٩.

(٦) مؤلف مجهول: مناقب الشيخ أبي العباس السبتي. ورقة ١٠٣ أ.

(٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٨) ابن الزيات: م.س. ص ١٢٩ ترجمة مجهول.

(٩) نوازل ابن الحاج: م.س. ص ٢١٦.

(١٠) ابن الزيات: م.س. ص ٩٦. والمقصود هنا كتاب أحياء علوم الدين للغزالي.

دخل شهر رمضان، سد عليه بابه وختم القرآن كل ليلة، فباته أهل الجاهات فيصلون بصلاته،^(١) . فضلاً عن صلاة التراويح التي كانت تقام في المساجد كل ليلة^(٢). ويعكس الأدب المرابطي هذه الظاهرة^(٣).

واعتبرت ليلة ٢٧ من رمضان ليلة معظمة لدى الأندلسيين والمغاربة، ففيها يختم القرآن في المساجد^(٤). وبهذا الخصوص ذكر المؤرخون أن الأمير المرابطي تاشفين بن علي رغم محاصرته من طرف الجيوش الموحدية في وهران، قصد ربوة عالية يتجمع فيها المتعبدون في هذه الليلة، فصعد إليها في نفر من أصحابه «قصد التبرك بحضور ختم القرآن»^(٥). وكانت النساء يشاركن أيضاً في حفل الختم. وفي الوقت ذاته، يحتفل الناس بهذه الليلة بشراء الحلوى، وهو ما اعتبره الطرطوشي بدعة^(٦). وحسب هذا الفقيه، فإن كثرة الإزدحام في هذه الليلة أدى أحياناً إلى ارتكاب بعض المناكر^(٧).

وتتضمن نوازل الحقة المرابطية عدة فتاوى أجاب بها الفقهاء الرعايا حول عجز بعضهم عن الصيام بسبب أمراضهم، أو حول الأخطاء التي وقعوا فيها خلال هذا الشهر^(٨).

ويعد نهاية شهر رمضان، اعتاد الناس على الاحتفال برؤية هلال شهر شوال حيث كانت تفرع الطبول احتفالاً بليلة العيد، وترفع الراية فوق صومعة جامع يوسف بن تاشفين علامة على الابتهاج^(٩)، وتقدم التهاني^(١٠).

وفي صبيحة العيد تخرج الزكوات، وتلبس الرعية الثياب الجديدة، ثم تتجه نحو المصلى^(١١). وقد وصف ابن قزمان كل هذه الترتيبات بقوله متحدثاً عن عيد الفطر: «مشى الناس فيه مثنى الجباب، ولبسوا أفضل الثياب، وبرزوا إلى مصلاهم من كل باب»^(١٢). وتحدث ابن خاقان عن اختيال

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٤.

(٣) قال يسكر موسى الجوراني (ت ٥٧٨ هـ).

لا تجعل رمضان شهر فكاهة تلهيك فيه من الحديث فنونه
واعلم بانك لا تنال ثوابه حتى تكون تصوم وتقوم
انظر: ابن القاضي: م.س. ج ٢ ص ٥٦٣ - المقرئ: نفح... م.س. ج ٢ ص ٥٢٥.

(٤) ابن عبد الملك: م.س. ج ٥ ق ١ ص ٩٩.

(٥) ابن الوردي: م.س. ج ٢ ص ٢٧ - أبو الفدا: م.س. ص ٢٢٢ - النويري: م.س. ج ٢٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٦) كتّاب الحوادث والبدع ص ١٤١.

(٧) المصدر نفسه، ص ٤١، ٤٢، ٦٩.

(٨) انظر ما نقله الزياتي عن ابن رشد وابن الحاج: الجواهر المختارة... ص ٥٥ وكذلك مؤلف مجهول: نوازل في الفقه ص ١٣.

(٩) مارمول: م.س. ج ٢ ص ٥٤.

(١٠) انظر تهنته الأعمى التطيلي للفقهاء الهرزني، ويقول فيها:

فأهناً بعيد لها الأفراد فيه إذا لم يهناوا غير عقر الظان والإبل

ديوان الأعمى التطيلي ص ١٤٢ قم ٤٧.

(١١) الضبي: بغية الملتبس... ص ٨٦.

(١٢) رواية ابن الخطيب: الإحاطة... م.س. ج ٢ ص ٥٠١.

الناس بزينتهم وثيابهم وحلامهم بعد انصرافهم من المصلى يوم العيد ^(١) . كما وصف أحد الشعراء المعاصرين ^(٢) رجلاً في عيد الفطر وهو يجر ثيابه الجديدة مزموماً مختلاً.

ولم يخف ابن قزمان رغبته في لبس الثياب الجديدة يوم العيد، لكنه لم يستطع لضيق ذات اليد ^(٣)، لأن المستلزمات التي تتطلبها مثل هذه المناسبة كانت مكلفة، يصعب على غير الموسرين تحملها ^(٤). فإلى جانب اقتناء الملابس، جبل الناس على شراء أشياء جديدة وإصلاح المنازل وتزيينها بالتحف ^(٥).

وشكل عيد الفطر مناسبة لتبادل الزيارات بين الأصدقاء والأقارب، وتقديم التحيات والتهناتي مباشرة بعد صلاة العيد. فقد ورد على أحد الفقهاء نازلة حول عادة الناس بعد انقضاء صلاة العيدين نحو تقبيل الرأس واليد والمنتكب والمعانقة ^(٦).

وفي هذه المناسبة كذلك تزار القبور، وهو ما نستنتج من زيارة الشاعر أبي بكر بن عبد الصمد قبر المعتمد بن عباد وسط جموع من الناس جاؤوا بدورهم لزيارة قبور ذويهم في عيد الفطر ^(٧). وقد انتقد ابن قزمان هذه الظاهرة التي تختلط فيها المسرات بالأحزان ^(٨).

ويقبل الناس في هذا اليوم كذلك على مشاهدة ألعاب الفروسية ^(٩). وغالباً ما يستغل الشبان هذه المناسبة لمراودة النساء اللاتي يخرجن مزيّنات للفرجة والاستمتاع ^(١٠).

أما عيد الأضحى فالنصوص ضافية حول كيفية الاحتفال به في العصر المرابطي، وعلى الخصوص القصائد الزجلية لابن قزمان. فمن خلالها نستخلص ما كان يسود الأسواق من زحام حين يقترب موعد عيد الأضحى بأربعة أيام، حيث يهرع الناس للبحث عن خروف جيد وبشمن رخيص، فيتم الاختيار والمساومة. لكن الضغط الذي يسببه قرب حلول موعد العيد لا يسمح بذلك.

(١) قلائد العقيلين... ص ٢٤.

(٢) أبو إسحق الألبيري: ديوانه ص ١١٩.

(٣) انظر ديوانه ص ٦٢٢ زجل ٩٨ وفيه يقول:

| | | | |
|-------|---------|--------|------------------------|
| مشاكل | جديد | محشواً | كنريد نلبس في ذا العيد |
| وكامل | التربيع | واسع | حسن التفصيل مليح جيد |

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٠، زجل ١٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٩٠، زجل ٧٦ ويقول فيه:

| | | | | |
|--------|--------|-----|----|-------|
| العيد | من | قرب | ذا | العيد |
| وتجديد | بإصلاح | | | |

(٦) الشاطبي: م.س. ص ٢١٢.

(٧) ابن خاقان، قلائد... م.س. ص ٨٤ - ٨٥ (تحقيق ابن عاشور).

(٨) انظر ديوانه ص ٢٢٦ زجل ٤٨، ويقول فيه:

| | | | | |
|--------|---------|---------|---------|-------|
| احتفال | بالقابر | على | الأحباب | بمرا |
| | الفجائع | فاحتفال | | المرا |

(٩) ابن سلمون: العقد المنظم للحكام... (مخ) وينقل مسألة من مسائل ابن الحاج حول الفرسان الذين يلعبون في الملاعب في الأعياد إذا أصاب أحدهم الآخر بجرح أو قتله، ورقة ١٠٥ ب.

(١٠) ابن عبدون: م.س. ص ٢٧.

لهذا ينصح ابن قزمان بالتفكير في شراء الاضحية منذ عاشوراء^(١). ويصور في موضع آخر مستلزمات العيد من قدور وصحيفات وقلل ومخالب، فضلاً عن مصاريق الحمال والجزار، ومتاعب تشويط رؤوس الغنم التي كانت تقام في حفر تحفر في بعض الحارات^(٢). ورغم هذه المتاعب، فإن الفقراء لم يتخلوا عن شراء الاضحيات مهما كلفهم ذلك من ثمن^(٣).

والواقع أن اضحية العيد كانت مكلفة جداً، لذلك غالباً ما أثارت نزاعات داخل العائلات الفقيرة. ذكر ابن الزيات^(٤) أن امرأة دفعت إلى زوجها غزلاً ليبيعه ويشتري بثمنه اضحية، غير أن الرجل لقي في طريقه امرأة تخاصم زوجها بسبب امتناعه عن شراء خروف العيد لعدم قدرته. لذلك اضطر البعض للالتجاء إلى السرقة من أجل تحقيق رغبة عياله^(٥). وهناك من ابتسم له الحظفأهديت له الاضحية^(٦). أما العائلات الوجيبة فقد تنافست في شراء الخرفان السمان^(٧). لذلك انتقد الفقيه الطروش^(٨) من يتنافسون في شراء الاضحيات من أجل التباهي وليس اتباعاً للسنة أو طلباً للأجر.

وجرت العادة أن يتم ذبح الناس اضاحيهم بعد ذبح إمام المسجد. فقد أشارت فتاوى ابن رشد إلى وجوب إخراج اضحيتهم إلى المصل حتى يشاهده الناس ولا يذبحون قبل انصرافه إلى منزله^(٩).

ويعطينا ابن قزمان صورة مكتملة عن المتاعب التي لقيها وهو يذبح كبشه ويسلخه، وعيناه تدمعان وقلبه ينفر من هذه العملية ليجد في الاخيران كبشه مزيل ومريض^(١٠). ويذكر في موضع آخر أنه علق خروفه ليستمتع بشواء لحمه في اليوم الثالث من ايام العيد^(١١)، وهي عادة لا زالت ماثلة للعيان إلى اليوم في المجتمع المغربي. بل إن البعض فعل ذلك مباهاة وافتخاراً^(١٢). وفضل بعض الناس ادخار لحم العيد، فجعلوه على شكل قديد مملح حتى يستمر مدة طويلة صالحاً للاستهلاك^(١٣)، فيما

(١) انظر ديوانه ص ٥٢٢ - ٥٢٤ زجل ٨٢، ص ٤٥٨ زجل ٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٦ زجل ٤٨.

(٣) عبرت العامة عن ذلك بقولها: «سليخة ودم وزيل الهم، وكذلك: «يا ترى يا كبشي، اي ترعي واي تمشي». انظر الزجالي: م.س. ج ١، ص ٢٢٨.

(٤) التشوف... م.س. ص ٢٧٤. ترجمة أبو عبد الله التادلي - الصومعي: المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى (مخ) م.س. ورقة ١٠٢ ب.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٤. ترجمة أبو وكيل ميمون بن تاميموت.

(٦) انظر: المعزى: م.س. ص ١١٤.

(٧) ابن بسام: م.س. ق ٢ م ٢ ص ٦٢٨. وقد أورد قول ابن خفاجة في كبش املح:

«ألا حبذا عيد تلاقست به المنى فجدد من عهد الشباب مشيب»
(٨) كتاب الحوادث والبديع م.س. ص ١٤٢.

(٩) نوازل ابن رشد: م.س. ص ٥٠ - الوشرسي م.س. ج ٢ ص ٣٢ - ٢٣.

(١٠) انظر ديوانه ص ٧٧٠ زجل ١١٨. وفيه يقول:

في عذاب كنت ماع إذ ينسلخ عيني تدميع وقلبي يعمل ا خ
(١١) المصدر نفسه، زجل ٨٩.

(١٢) الشاطبي: م.س. ص ٢١٤.

(١٣) ابن قزمان: م.س. ص ٣٢٦ قص ٤٨.

تبادل البعض لحوم اضحياتهم مع الأقارب والجيران^(١).

وعلى غرار عيد الفطر، اعتاد الناس على تبادل الزيارات فيما بينهم^(٢)، ولباس الثياب الجديدة واتخاذ كل أشكال الزينة^(٣)، ثم الخروج إلى الشوارع للفرجة. وكانت النساء الأندلسيات يخرجن إلى المتنزهات، فيراودهن الرجال أو يعتدون عليهن أحياناً، ولا غرو فإن أحداث قرطبة سنة ٥١٤ هـ بدأت بسبب اعتداء عبد من عبيد المرابطين على امرأة خرجت للتنزه في عيد الأضحى، فمد يده إليها، فتطور الأمر إلى أحداث خطيرة^(٤)، وإن كانت أسباب ذلك أعمق من هذا الحدث البسيط.

ويأتي يوم عاشوراء ضمن الأعياد الإسلامية المحتفل بها في المغرب والأندلس. تتجلى مظاهر هذا الاحتفال في تقديم الأطعمة والفواكه في هذا اليوم^(٥)، حتى أن ابن الحاج فقيه المرابطين اعتبر ذلك بدعة. ومع ذلك لم تتخل العامة عن الاحتفال به^(٦) بل إن أحد المتصوفة اعتاد على جمع المريدين في يوم عاشوراء من كل سنة، والإنفاق عليهم والإكثار من الطعام، ولو اضطر إلى الاستدانة^(٧).

كما يتم الاحتفال كذلك بـ «شعبانية» التي جرت العادة فيها أن يشتري الآباء الفقير لابنائهم للعب به والنفخ فيه، فتسمع الأصوات من بعيد في جل الأحياء ويكثر الضجيج والصخب^(٨).

أما الاحتفال بعيد المولد النبوي، فيبدو أنه لم يتخذ صبغة رسمية في المغرب والأندلس إلا في أواخر القرن ٧ هـ (العهد العزفي). لكن من المحتمل أن يكون الرعايا قد احتفلوا به بطريقة تلقائية^(٩).

وكان الحج مناسبة أخرى تقام لتكريم الحاج والاحتفال بمقدمه. وقد بلغت نفقات الحج حوالي ٦٠ ديناراً مرابطية^(١٠). ويذكر أحد المؤرخين أن قبيلة جدالة استقبلت يحيى بن إبراهيم لما عاد من حجة بمعية عبد الله بن ياسين بنوع من الحفاوة^(١١). وقد اختلط الحج أحياناً بالرغبة في التجارة، وحسبنا أن بعض الحجاج كانوا يرافقون القوافل التجارية المنطلقة من سبلماسة مروراً بمصر^(١٢).

غير أن فرض الحج أسقط في أواخر الدولة المرابطية بسبب انعدام الأمن، وإفتاء الفقهاء بتفضيل الجهاد عليه كما يتبين ذلك من خلال استفتاء علي بن يوسف للفقهاء ابن رشد^(١٣).

(١) ابن الزيات: م.س. ص ٣٦٥. ترجمة أبو مالح وطيل.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٩. ترجمة أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي.

(٣) ابن قزمان: م.س. ص ٣٢٦ زجل ٤٨.

(٤) التويري: م.س. ج ٢٤ ص ٢٧٥.

(٥) الزجاجي: م.س. ج ١ ص ٢٣٨ مثل رقم ٣٦٤.

(٦) الوشرسي: م.س. ج ٢ ص ٤٨٩.

(٧) ابن الزيات: م.س. ص ٢٧١. ترجمة أبو عبد الله البيهقي الكماش.

(٨) الزجاجي: م.س. ج ١ ص ٤٣٨ مثل ١٩١٧ وكذلك ص ٢٤١. ولا يزال الاحتفال بهذه المناسبة يخلد في بلاد المغرب، خاصة في الأوساط التقليدية بالخشوع والعبادة ليلة ١٥ من شعبان وصيام هذا اليوم. وكذلك الأمر في المشرق العربي حيث تقام في هذا اليوم حلقات تتخللها أدعية وأناشيد دينية وتوزع فيها حلوى من نوع الزلابية.

(٩) العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، م ١٥ سنة ١٩٧٠ ص ١٤٨.

(١٠) الضبي: م.س. ص ١٥٧. ترجمة أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان الخزومي.

(١١) ابن أبي زرع: م.س. ص ١٢٣.

(١٢) المنيجي: رسالة في تحقيق اتجاه قبلة الصلاة بالمغرب (مخ) ورقة ٧٤ ب.

(١٣) فوازل ابن رشد ص ٤٩.

وشاع في المغرب والأندلس كذلك حفل إغذار الأطفال فقد جاء في ترجمة أحد المتصوفة أنه أعد ثوراً لإطعام جيرانه بمناسبة اختتان ولده^(١). ونعلم من خلال بعض النصوص أن الحجاج هو الذي كان يتولى إغذار الأطفال^(٢).

أما الاحتفالات الموسمية للفلاحين، فقد ارتبطت بالنشاط الزراعي، وأوقات جني المحصول، ومن أهمها الاحتفال بفترة العصور التي تكون في فصل الخريف، ويحتفل بها الأندلسيون على الخصوص، إذ يخرج أهل القرية إلى الحقول والأودية المجاورة ويقضون عدة أيام وليالٍ يستغلونها في جني العنب، ويخرج معهم معظم الأندلسيين للفرجة والنزهة^(٣). ويستغل بعض المدرسين الجو البديع ليصبحوا معهم طلبتهم إلى هذا العالم الفسيح للترويح عن النفس^(٤). وقد استمر الاحتفال بفترة العصور في غرناطة حتى عصر ابن الخطيب^(٥).

ثمّة موسم آخر يتم الاحتفال به وهو موسم صباغة الحرير، ففيه يخرج الأندلسيون لجمع القرمز، ويقيمون خيامهم في بطون الأودية والحقول، ويصحبون معهم آلاتهم الموسيقية ويقضون أوقاتهم في الغناء والرقص^(٦).

إلى جانب الاحتفال بالأعياد الإسلامية والمواسم الفلاحية شارك أهل المغرب والأندلس إخوانهم المسيحيين في أعيادهم خاصة عيد ينيّر الذي يقام في كل سنة جديدة، وتقدم فيه التهاني^(٧)، وتصنع فيه أصناف كبيرة من الحلوى تسمى المدائن، وهي على شكل مدن ذات أسوار أثارت إعجاب أحد الشعراء، فشبّها بالعروس، وذكر المواد التي تصنع منها^(٨). كما أن ابن عبد الملك^(٩) قدم بدوره وصفاً دقيقاً عن كيفية صناعتها، مشيراً إلى أنها كانت تقدم في هذا العيد للأطفال، إدخالاً للسُرور عليهم، وتوسيعاً في الترفيه لأحوالهم وتيسيراً بخصب عامهم، وتفاولاً لبسط الرزق فيه.

وحسبما يستشف من أزجال ابن قزمان^(١٠)، فإن المسلمين - بفضل تسامحهم - لم يجدوا غصاصة في لباس أجمل الثياب في هذا العيد المسيحي، واستدعاء الأحاب والاصدقاء لقضاء الليل كله في الاحتفال والسمر، فتملأ الموائد بأصناف الحلويات والفواكه المجففة مثل التين والبلوط

(١) ابن الزيات: م.س. ص ٢٨١.

(٢) الوزان: م.س. ص ٧٧ - مارمول: م.س. ج ٢ ص ٦.

(٣) ابن قزمان: م.س. ص ٤٨٩. ويقول في قصيدته الزجلية رقم ٧٨:

بلغ عني المنازه سلاسا كثير

مضت أيام النزه وتم العصور

(٤) انظر نموذجاً لهؤلاء المدرسين: الضبي: م.س. ص ٥٩، ترجمة محمد بن حسين بن احمد.

(٥) انظر الإحاطة... م.س. ج ١ ص ٣٧، ٣٨ - العبادي: م.س. ص ١٤٠.

(٦) المقرئ: نفح... م.س. ج ١ ص ١٧٢.

(٧) عن عيد ينيّر انظر: ابن قزمان: م.س. زجل ٧٢. ومعلوم أن عيد ميلاد المسيح تحتفل به الكنيسة الشرقية بعد اسبوع من الكنيسة الغربية التي تحتفل به في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر. هذا ولا يزال سكان المغرب، خاصة في المنطقة الشرقية يحتفلون بعيد ينيّر في ١٢ من شهر كانون الثاني/ يناير من كل سنة، ويطلقون عليه اسم «النايّر».

(٨) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٢٩٤.

(٩) الذيل والتكملة م.س. ج ١ ق ٢ ص ٥٦٥.

(١٠) انظر ديوانه ص ٢٨٤ زجل ٤٠.

وغيرهما^(١)، وكان بائعو الفواكه اليابسة يطرقون أبواب الناس لبيع ما تستلزمه هذه المناسبة^(٢).

ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد ما عرف لدى الأندلسيين بالتماشيل المعروفة بالنصبات. وهي عبارة عن موائد كبيرة يضع عليها الباعة اشكالاً هائلة من الحلوى والفواكه. وقد بلغت بعض النصبات ما يربو على السبعين ديناراً لما حوته من السكر والفانيد وضروب التين والتمر والجوز والقسطل والنانج والليمون^(٣).

وتضمنت أمثال العامة عدة إشارات حول الاحتفال بعيد النيروز^(٤)، وهو عيد السنة الفارسية. مما يدل على تجذر هذه العادة في الأوساط الشعبية. بل ثمة ما يصور حرصهم على الاحتفال به وحسبنا دليلاً هنا ما ذكره ابن مسعود القرطبي في إحدى قصائده حول ما طلبته منه زوجته من لوازم هذا العيد، وهددته بأسوأ الجزاء إذا لم يحضر لها ما رغبت فيه^(٥).

وبالمثل، شاع في الأندلس والمغرب عادة الاحتفال بعيد العنصرة^(٦) الذي يقام بعد خمسين يوماً من عيد الفصح. وهو يمثل عند المسيحيين ذكرى نزول الروح القدس على حواربي المسيح الإثني عشر. ويعتقد العامة - وهما - أن لهذا العيد علاقة بالنبي يحيى بن زكريا^(٧). ويتميز هذا العيد بشعلة النار التي تسمى العنصرة بالعامية^(٨). ونظراً لتعلق العامة بهذا العيد انعكس في أمثالها فصورت ما يقام فيه من احتفالات وأفراح^(٩). وسجل الأعمى التطيلي ما جرت به العادة في هذا اليوم من لباس الثياب الجديدة والعباب الفروسية^(١٠).

ومن الأعياد النصرانية الأخرى المحتفل بها في الوسط الأندلسي على الخصوص نذكر الاحتفال بعيد ليلة العجوز، وهي ليلة آخر السنة الميلادية^(١١). وتتصل بها مناسبة أخرى عرفت بخميس

(١) المصدر نفسه، ص ٤٦٤ زجل ٧٢.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها. ولا زالت عادة شراء الفواكه اليابسة موجودة إلى الآن في المغرب، خاصة في المنطقة الشرقية، حيث يشتري الناس الفواكه اليابسة في عيد ينير المذكور ويحتفلون به مع تناول أطعمة أخرى وذلك طيلة ليلة هذا العيد.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها. الفانيد: أنواع من الحلويات التي يتناولها الأولاد وأحياناً حتى الكبار.

(٤) قالوا في أمثالهم: «من ماع ترنج، لينير يرفعها، مثل رقم ١٤١٢، انظر الزجالي: م.س. ج ١ ص ٢٢٨. انظر أيضاً: ابن خاقان: مطمح... ص ٢٨٤. ويذكر قصيدة لأبي بكر عبد المعطي الذي عاصر هذه الحقبة يهنئ فيها أحد أصدقائه بمناسبة عيد النيروز:

| | | | |
|------------------------|---------|--------|-----------|
| هو النيروز أمك للتهانئ | وللبشرى | بمقبيل | الزمان |
| فهناك المهين ما حياه | ويحيوه | على | نماء ودان |

(٥) ابن بسام: م.س. ج ١ ق ٢ ص ٧٨ - ٧٩.

(٦) ابن خلكان: م.س. ج ٧ ص ٢٢٧.

(٧) إن ما يُعرف بضريح النبي يحيى بن زكريا في الجامع الأموي في دمشق هو في الواقع ضريح يوحنا المعمدان St. Jean Baptiste. ويمكن سبب وجود هذا الضريح في الجامع الأموي في احتفاظ الأمويين بالكنيسة التي كانت في الموضع نفسه وضمها إلى الجامع.

(٨) ابن سميذ: م.س. ج ٢ ص ٢٨٢.

(٩) قالوا: الكبش المصوف ما يكرر العنصرة، مثل رقم ٢٧٢. انظر الزجالي: م.س. ج ١ ص ٢٤١.

(١٠) انظر: بنشرية في تحقيقه لأمثال العوام ج ١ ص ٢٤٠.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

أبريل التي تميز بها الأشبيليون على الخصوص بإظهار أفراسهم، وجرت عاداتهم أن يشربوا في هذه المناسبة المجينات والاسفنج^(١).

وإذا كان الرعايا قد شاركوا المسيحيين في أعيادهم بما ينم عن روح التسامح، فإن الفقهاء اعتبروا ذلك خروجاً عن السنة. فالطروشي اعتبر من البدع «...إقامة نير بابتياح الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة وخميس أبريل بشراء المجينات والاسفنج»^(٢).

يضاف إلى الأعياد المذكورة، بعض الاحتفالات التي كانت تقام بمناسبة عرض عسكري، إذ جاء في أحد النصوص أن يوسف بن تاشفين استعرض جيشه إبان جوازه للأندلس سنة ٤٧٩ هـ «قبلاً بعد قبيل. وهو في أحسن هيئة وتنظيم»^(٣). وبالمثل فإن الانتصار في المعارك أتاح مناسبة أخرى للاحتفالات، فبعد معركة الزلاقة، عمت الفرحة والاحتفالات جميع ربوع المغرب والأندلس، واعتق العبيد، وتصدق البعض بأمواله حمداً لله على هذا النصر، ودقت الطبول ابتهاجاً بهذه المناسبة وهو ما لخصه ابن أبي زرع بقوله «فعمت المفرحات في جميع بلاد إفريقية وبلاد المغرب والأندلس»^(٤).

رابعاً: وسائل الترفيه وبعض العادات الاجتماعية الشاذة

اعتاد المغاربة والأندلسيون على الاستمتاع بأوقات فراغهم بشتى وسائل التسلية والترفيه. ومن بين هذه الوسائل ارتياد الحدائق والمنتزهات، وسماع الموسيقى والطرب والإقبال على الملاهي ومجالس الخمر، الشيء الذي تمخض عنه أحياناً عادات شاذة جاءت إفرازاً لمرحلة التفسخ التي بلغها المجتمع في مرحلة الهرم، بسبب الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالدولة المرابطية.

وغير خاف أن العوامل الطبيعية ساعدت على وجود منتزهات كان يقصدها العامة والخاصة. فمدينة شاطبة «لها منتزهات منها البطحاء والغدير والعين الكبيرة»^(٥)، فضلاً عن باب الشمارين التي تطل على ساقية ومناظر طبيعية تخلب النفوس^(٦). واشتهرت غرناطة بمنتزهها المعروف بحور مؤمل^(٧)، فضلاً عن أنهارها وجناتها التي استغلها السكان «فلاهلها بهذه الجنات كلف، ولذوي البطالة فوق نهره أريك من دمث الرمل وحجال من ملطف الدوح»^(٨).

وعرف جبل غمارة بالغياض والأودية، والمنتزهات التي لا توجد في غيره من الأماكن^(٩)، لذلك لم

(١) ابن سميذ: اختصار القدر المعلق... م.س. ص ١٥٦. ويُعرف هذا العيد عند المسيحيين بالجمعة العظيمة التي ترمز إلى تاريخ صلب المسيح (أو تاريخ رفعه إلى السماء حسب القرآن) وتجري الصلاة في الكنائس مساء الخميس.

(٢) كتاب الحوادث والبدع م.س. ص ١٤١.

(٣) الحميري: م.س. ص ٢٨٩.

(٤) الأنيس المطروب ص ١٤٩.

(٥) أبو الفدا: تقويم البلدان ص ١٦٨.

(٦) ابن طاهر: م.س. ج ٢ ص ١٤٥.

(٧) ابن قزمان: م.س. ص ٩٠٠ زجل ١٤٤.

(٨) ابن الخطيب، الإحاطة... م.س. ج ١ ص ١٢٣.

(٩) مؤلف مجهول: الاستبصار... م.س. ص ١٦٠.

يكن غريباً أن تثير هذه المتنزهات إعجاب شاعر كابن خفاجة الذي عرف بتعلقه بالطبيعة، وإحساسه المرهف بجمالها^(١).

ناهيك عما عرفت به جل المدن الأندلسية والمغربية من غابات أشجار تلتف اغصانها، ووديان تنساب مع سفوح الجبال. فنهر إشبيلية يمتد على أكثر من ١٤ ميلاً بين الخضرة والمياه والطيور. وحسبنا قول الشقندي بصدده «وقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مسرة، وإن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكراً»^(٢)، فضلاً عما عرفت به مدينة شريس من متنزهات وملاهي. فلا ترى بها إلا عاشقاً ومعشوقاً^(٣).

واشتهرت مدينة بسطة بطيب هوائها ومروجها الخضراء وأنهارها المتدفقة، وهذا ما يفسر تقاطر الأهالي عليها طلباً للفرجة والاستمتاع بمناظرها الطبيعية الساحرة^(٤).

ولم تخل مرسية من غابات وبساتين ونواعير استقطبت كل من رغب في الفرجة أو الاستجمام^(٥)، كما تعددت البساتين بمدينة بلنسية حتى أنها عرفت «بمطيب الأندلس». وعدت رصافتها أحسن المتنزهات، وفيها البحيرة الكثيرة الضوء والرونق يسبح فيها الجميع^(٦). ويتبين من خلال بعض القصائد الرجزية أن الأندلسيات كن يسبحن ويستحمن في الأودية والأنهار^(٧).

علاوة على ذلك، اعتاد الأندلسيون على الخروج إلى الحمّات والعيون طلباً للاستشفاء كما سبق الذكر، ولكن أيضاً للترفيه والترويح عن النفس. وهذا ما يفسر كراهم بيوتاً بهذه الحمّات بمبلغ ثلاثة دنائير مرابطة في الشهر^(٨). بينما كان الخاصة والوجهاء يصحبون معهم قواربهم فيتلون بصيد الأسماك، أو يعاقرون الخمرة على ضفاف الأنهار، في حين فضل البعض قضاء أوقات فراغهم في القنص وسط الغابات^(٩).

أما في فصل الصيف فقد استحسن الرعايا الاستحمام في شاطئ البحر، وتنصيب الخيمات للإقامة بها طيلة هذا الفصل^(١٠) في حين يبقى الفلاحون في أراضيهم للقيام بعمليات الحصاد والدرس استعداداً للموسم الفلاحي الجديد.

والجدير بالذكر أن العصر المرابطي عرف كثيراً من الألعاب الترفيهية التي ترجع إلى عصور سابقة نذكر منها لعبة الشطرنج. فرغم نهى الفقهاء عنها، واعتبارها من شغل البطالين^(١١)، عرفت

(١) انظر وصفه للمتنزهات في ديوانه ص ١٠٠.

(٢) رواية المقرئ: نفع... م.س. ج ٣ ص ٢١٢.

(٣) المصدر نفسه والصيغة نفسها.

(٤) ابن الخطيب: معيار الاختيار... م.س. ص ١٠٩.

(٥) المقرئ: م.س. ج ٣ ص ٢٢٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢١.

(٧) انظر: ابن قزمان: م.س. زجل ٢٨.

(٨) الإدريسي: القارة الأفريقية وجزيرة الأندلس (مقتبس من نزهة المشتاق...) تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر

١٩٨٣ ص ٢٩٣.

(٩) الأصفهاني: م.س. ق ٤ ج ٢ ص ٦١١ - ٦١٢.

ابن الزيات: م.س. ص ٢٣٤. ترجمة أبو محمد عبد السلام بن أبي عبد الله محمد بن أمغار.

(١١) الباجي. وصية الشيخ أبي الوليد الباجي ص ٢٩.

انتشاراً واسعاً، خصوصاً بين طبقة الخاصة. فقد عرف أبو بكر ابن زهر بأنه «جيد اللعب بالشطرنج»^(١)؛ كما اشتهر الفقيه أبو بكر بن العربي بمهارته في هذه اللعبة^(٢)، في حين كان للشاعر أبي الصلت بن أمية الأندلسي «في الشطرنج يد بيضاء»^(٣)، وترك ابن قزمان وصفاً لطريقة لعب بها^(٤). وانتشرت أيضاً ألعاب النرد والقرق^(٥) والأزلام. وقد حاربها ابن عبدون^(٦) واعتبرها قماراً تلهي عن الفرائض.

واشتهرت الأندلس كذلك بالألعاب الفروسية التي كانت تقام في ساحات عمومية وخاصة بمدينة غرناطة في ساحاتها المشهورة كساحة باب الرملة أو ساحة باب الطوابين أو قلعة الحمراء وداخل إحدى هذه الساحات تقام دائرة خشبية في الهواء تدعى الطلبة يقذفها الفرسان برماحهم^(٧).

وعرفت كذلك المبارزات الفردية والجماعية التي تشبه معركة حقيقية قد يكون ضحيتها بعض الأشخاص. ولا نستبعد أن تكون بعض القرى المغربية قد عرفت بدورها ألعاب الفروسية لاشتهار أهلها بذلك. وقد وصف الإدريسي أهل قرية أم الربيع بأن «الغالب عليهم الفروسية»^(٨).

وانفردت غرناطة بلعبة مصارعة الثيران رغم أن Jose Maria Cassio أغفل ذكرها في الموسوعة الكبرى التي ألفها عن الثيران. وزعم أن هذه اللعبة لم تظهر بإسبانيا إلا بعد انتهاء الحكم الإسلامي فيها. بينما الواقع يخالف ذلك إذ أن ابن الخطيب أشار صراحة إلى وجودها في عصره. ولا يستبعد أن تكون قد سادت كذلك في عصر المرابطين، وكانت على طريقتين: الأولى عبارة عن حرب بين الثور والأسد، وقد شاهدها بنفسه. أما الثانية فهي صراع بين الثور والإنسان وقد ذاعت بين وجهاء

(١) ابن أبي أصيبعة: م.س. ج ٢ ص ١١٠.

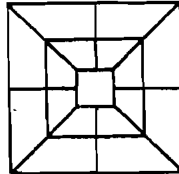
(٢) المقرئ: م.س. ج ٢ ص ٦٨ - الطالب: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ص ٢٠.

(٣) ابن خلكان: م.س. ج ١ ص ٢٤٦.

(٤) انتظار ديوانه ص ٧٨٦ زجل ١٦١.

(٥) القرق: لعبة عند الأطفال كانت معروفة لدى العرب قديماً، ومؤداها أنهم يخطون في الأرض خطوطاً، ويأخذون حصيات فيصفونها. قال ابن أبي الصلت:

وأعلاق الكواكب مرسلات كجبل القرق غايتها النصاب
شبه النجوم بهذه الحصيات التي تصف وغايتها النصاب أي المغرب الذي تغرب فيه وقيل إن القرق لعبة كان يلعبها أهل الحجاز وتكون على شكل رسم خط مربع، في وسطه خط مربع، في وسطه خط مربع، ثم يخط من كل زاوية من الخط الأول إلى الخط الثالث وبين كل زاويتين خط فيصير أربعة وعشرون خطاً، فحسب هذا الوصف يكون رسم اللعبة المذكورة على الشكل التالي:



(٦) رسالة في الحسبة ص ٥٣.

(٧) العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، مدريد، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية مج ١٥ سنة ١٩٧٠.

(٨) ص ١٤١.

(٨) وصف إفريقيا الشمالية م.س. ص ٧٠ - ٧١.

غرناطة^(١). ويبدو أنها اللعبة نفسها التي استمرت في فاس حتى القرن ١٦ م. وقد أمدنا مارمول^(٢) بوصف دقيق عنها، مشيراً إلى أنها كانت من وسائل ترفيه الطبقة الحاكمة. وأورد ابن الأبار^(٣) لعبة مشابهة يكون أبطالها أربعة أسود ونمرين، وتعد آية في الفرجة والمتعة.

أما على الصعيد الشعبي، فقد انتشرت عدة ألعاب جاءت أسماؤها في أمثال العامة مثل «لعبة عبد الخالق» وهي تقليد ساخر للراهب^(٤)، و«لعبة القلياني» التي وردت عند ابن قزمان^(٥). ورغم أنه لم يفصح عنها، فإنه أوضح بأن بطلها كان يلبس عكازاً أو قصبه خضراء وقلنسوة. وهناك لعبة «خيال الظل» التي أشار إليها ابن بسام^(٦)، فضلاً عن لعبة «الخميسة»^(٧)، و«لعبة الغبار» التي تضمنتها بعض الأمثال العامة^(٨). وبالمثال شاعت لعبة الزهان بالخيال التي استقتني حولها ابن رشد^(٩)، بالإضافة إلى لعبة المقارع التي اعتاد عليها الأطفال، وكانت تحدث الهرج والصخب بالأزقة والشوارع، لذلك نهى عنها ابن عبدون^(١٠).

ومما ميز الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس كذلك عادة شرب الخمر. فرغم التحفظ الذي يمكن أن يسجل حول مصداقية زعم ابن تومرت بانتشار الخمر وبيعها علناً في الأسواق^(١١)، نظراً لمعاداته الصارخة للمرابطين، لا يمكن إلا أن نسلم بشيوعها استناداً على نصوص أخرى لا تعكس وجهة النظر الموحدة، بل ثمة نصوص مرابطة تؤكد ذلك، فقد كتب الفتح بن خاقان^(١٢) رسالة إلى أحد القضاة يناشده العمل على الحد من انتشار هذه العادة الذميمة التي عمت كل المنازل، ولم يسلم منها هو نفسه. وحسبنا أن القاضي عياض أقام عليه الحد حين دخل إلى مجلسه مخموراً^(١٣). وتعكس إحدى الرسائل المرابطة الرسمية الموجهة إلى أهل بلنسية هذه الحقيقة، ولا غرو فقد تضمنت أمراً بقطع مادتها وإراقتها ومنع ذيوها بين الناس^(١٤).

لكن هذه الأوامر لم تكن من الحزم والشدة التي تسمح باستئصال شافة هذه العادة التي

(١) العبادي: م.س. ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢) أفريقيا م.س. ج ١ ص ٧٦.

(٣) الحلة السيرة م.س. ج ٢ ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٤) الزجاجي: م.س. ج ١ ص ٢٥٤.

(٥) انظر ديوانه، زجل رقم ١٥٣.

(٦) الذخيرة... م ١ ق ٢ ص ١٥٤ وما بعدها.

(٧) وردت كذلك عند ابن قزمان: م.س. ص ٤٢ زجل ٤٢ حيث قال: «اشبه نيزليك بنعيسه».

لسة الشطرنج تلعب الخمسة

(٨) قالت العامة: «صاحب فرد عين ما يلعب الغبار» مثل رقم ١٥٩١. وكذلك قالوا: «أعش يلعب غبار» مما يدل على أن هذه اللعبة كانت تتطلب الدقة في النظر. انظر الزجاجي: م.س. ج ١ ص ٢٥٦.

(٩) نوازل ابن رشد م.س. ص ٣٦٢ - ٣٦٤.

(١٠) رسالة في الحسبة م.س. ص ٥٢.

(١١) السبكي: طبقات الشافعية ج ٤ ص ٧٢ - الذمعي: م.س. ج ٤ ص ٥٩ - الناصري: م.س. ص ٨٤.

(١٢) محمود مكي: وثائق تاريخية جديدة. م.س. ص ١٨٩.

(١٣) محمد بن عياض. م.س. ص ١١٢ - ابن عبد الملك: م.س. ج ٥ ق ٢ ص ٥٢٠ - المقرئ: ازهار... م.س. ج ٥ ص ٩١ - الونشريسي: م.س. ج ٢ ص ٤١٠ - ٤١١.

(١٤) مؤنس. نصوص سياسية م.س. ص ١١٢. والرسالة مؤرخة بالعشر الأولى من جمادى الأولى سنة ٥٣٨ هـ.

تجذرت، وأصبحت ظاهرة اجتماعية مألوفة. ذكر التميمي^(١) في ترجمة أبي خزد يخلف بن خزد الأوديبي أن أحد جيرانه مر عليه «بقلة من شراب مسكر» دون أن يخشى لومة لائم. وإذا كان شهر رمضان يتيح فرصة الابتعاد عن هذه الآفة الخطيرة، فسرعان ما تتم العودة إليها مباشرة بعد انتهائه. في هذا الصدد يخبرنا ابن قزمان - من خلال أزجاله - أنه بمجرد ما انقضى شهر الصيام، عاد إلى عريشته وخمرياته المعهودة^(٢).

وكانت عادة شرب الخمر منتشرة في الوسط الأرستقراطي بشكل يسترعي الانتباه، وحسبنا أن المعتمد بن عباد لم يتورع عن معاقرة الخمر حتى في أخرج اللحظات حين كان بسببته يستنجد بيوسف بن تاشفين^(٣). ويذكر ابن خاقان^(٤) أن مجموعة من الوزراء اجتمعوا في ليلة أنس، ولما لعبت الخمرة بعقولهم، جرد أحدهم السيف للقتل لولا أن الحاضرين «سكنوه بالاستئصال»، وثنوه عن ذلك النزال، ووالوا الكؤوس في وداده. ويقدم أحد الشعراء^(٥) أوصافاً رائعة حول مجالس الانس والشراب، وما فيها من قبائح يسقين الخمر ويزدن المجلس فتنة وسحرًا. ولم يجد محمد بن سعد أمير شرق الأندلس غضاضة في منادمة كبار الأبطال ومشاهير الفرسان، في وقت كانت الفوضى والفتن تلقي بثقلها في طول بلاد الأندلس وعرضها^(٦).

وإذا كانت معاقرة الخمر من قبل الخاصة والوجهاء ترمز إلى حياة البذخ والترف والتفسيخ الأخلاقي الذي وصلوا إليه، فإن طبقة العامة لم تفعل ذلك إلا لتغطية المشاكل والصعوبات التي اعترضتها في حياتها اليومية. فعندما استفسر القاضي ابن حمدين أحد السكارى الذي القي عليه القبض عن سبب شربه الخمر علناً، علل ذلك «بفساد الزمان ومجافاة الإخوان»^(٧)، وهو نص بقدر ما يبرر حالة من حالات القفز على الواقع، فإنه يوضح أيضاً أثر الأزمة في تجذر مثل هذه العادات. غير أن الأمير عبد الله بن بلكين لم يساير هذه الفكرة الشائعة لدى العوام، فأكد أن الخمر «لا يسلي الهموم بقدر ما يهيجها»^(٨).

وعلى كل حال، سجلت الروايات عدة حالات ضبط فيها أعوان الشرطة بعض العوام يحملون زجاجات الخمر. فقد عثروا على رجل متلبس ساقوه إلى القاضي أبي بكر بن العربي، وادعى الرجل أنه يحمل الخمر لخدمة رومية توجد عنده بالمنزل، فاكتمى القاضي بلعنه^(٩). ولعل أقصى ما وصلت إليه عقوبة شارب الخمر تمثلت في جلده بعد رجوعه إلى رشده، وهو ما يزيكه قول ابن عبدون^(١٠) إنه

(١) كتاب المستفاد... من ٣٧ - الشراط: م.س. ورقة ١١٥ أ.

(٢) انظر ديوانه من ٧٧٤ زجل ١١٩.

(٣) ابن ظافر: م.س. ج ١ من ١٧٢.

(٤) مطلع الأنس... من ٢٨٢.

(٥) ابن حمديس: م.س. من ١٩٢، ٢١.

(٦) ابن الخطيب: أعمال... (تحقيق بروفنسال) م.س. من ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٧) الوثرسي: م.س. ج ٢ من ٤١٠.

(٨) التبيين... م.س. من ١٨٧.

(٩) مؤلف مجهول: طبقات الملكية (مخ) م.س. من ٢٠٨ - الشراط: م.س. ورقة ٢٠١ أ.

(١٠) رسالة في الحسبة م.س. من ٥٠.

«يجب ألا يجلد سكران حتى يفيق». وأحياناً أقيم الحد بإرافة كل ما وجد من الخمر كما فعل القاضي عبد الحق بن معيشة عندما عينه علي بن يوسف قاضياً على فاس سنة ٥٢٩ هـ^(١). وتشدّد الكرسيفي في منع القمارين والخمارين والسكران من دخول الأسواق، وطالب بتأديبهم^(٢).

ومع ذلك لم تغلج جهود السلطة في اقتلاع جذور هذه العادة، إذ استمر صنع المسكرات داخل المنازل سواء من عصير العنب^(٣) أو من الرب الذي أمدنا ابن خير الأشبيلي^(٤) بالطريقة التي كان يهيا بها ليصبح خمراً، مما جعل الخليفة الموحي يعقوب المنصور يأمر في وقت لاحق بقطعه كلياً^(٥).

أما أهل سوس فقد صنعوا شراباً عرف بلفتهم باسم أنزير وهو شراب «يفعل بشاربه ما لا تفعله الخمر لمثانة وغلظ مزاجه»^(٦)، ويتم صنعه من عصير العنب الحلو، ويطبخ بالنار إلى أن يذهب منه الثلث، ويزال عن النار، ويرفع ويشرب ولا يمكن تناوله إلا إذا خلط بقدر يناسبه من الماء^(٧).

ولم يدخر ابن تومرت وسعاً في محاربة عادة تناول الخمر «بضرب الناس بالأكمام والنعال وعسف النخل»^(٨) بل خصص كتاباً مستقلاً من مؤلفه أعز ما يطلب لتبيان مضارها^(٩)، مما يعكس طموحه في اجتثاث جذورها^(١٠) ولا نعدم من الدلائل ما يبين أن بعض الأشخاص اقلعوا عن هذه العادة بمحض إرادتهم^(١١).

وغني عن القول أن شرب الخمر أسفر أحياناً عن نتائج وخيمة على مستوى الأسرة إذ أدى سكر الزوج أحياناً إلى تطليق زوجته^(١٢).

يضاف إلى عادة شرب الخمر عادة اجتماعية لا تقل عنها خطورة، وهي عشق الغلمان التي انتشرت في أوساط الخاصة، دون إنكار وجودها في أوساط العامة، لكن في حدود ضيقة، مما يعكس أثر الوضع الاجتماعي على العادات والأخلاق. فرغم ما عرف عن أبي عبد الله بن عائشة من زهد وورع، فإنه ظل يعشق فتى ويهواه^(١٣). وتتردد عادة عشق الغلمان من طرف أعلام الحقبة المرابطية وفقهاها بكثرة في كتب السير والتراجم^(١٤). ووصل الحد بأحدهم إلى أنه هوى غلاماً «فكان لا يتصرف إلا في

(١) ابن القطان: م.س. ص ٢٢٤.

(٢) رسالة في الحسبة م.س. ص ١٢٢.

(٣) ابن الزيات: م.س. ص ٢٤٣. ترجمة أبو إبراهيم إسحاق بن محمد الهزجي.

(٤) كتاب في الفلاحة م.س. ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٥) بروفنسال: رسائل موحديّة من إنشاء مجموعة من كتاب الدولة الموحديّة. الرباط المطبعة الاقتصادية، ١٩٤١ ص ١٦٧.

(٦) الإدريسي: م.س. ص ٦٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٨) المراكشي: المعجب... ص ٢٨٣.

(٩) انظر: أعز ما يطلب... ص ٢٤٧ وما بعدها.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(١١) كان ابن خفاجة من الشعراء الذين عاشوا في هذه الحقبة ومن تركوا شرب الخمر، انظر: ديوانه ص ١٥٥.

(١٢) ابن رشد: م.س. ص ٧٦.

(١٣) ابن خاقان: مطمح... م.س. ص ٢٤٦.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٧. انظر ما ذكره عن الأديب أبي الحسن البرقي الذي كلف بأحد الغلمان، انظر أيضاً:

المقري: أزهار... م.س. ج ٥ ص ١٥١ - ١٥٢.

صقلته ولا يلف إلا بعرفاته ولا يؤدقه إلا جواه^(١). ولم يخف ابن قزمان ولعه وهيامه بأحد الفلمن^(٢).

ويتبين من إحدى النوازل أن دور الخاصة والاعيان اكتظت بهم، وأنهم كانوا يورثون كما تورث الأشياء^(٣) : وإذا كانت هذه الظاهرة النفسية الاجتماعية تعزى بالنسبة للعامة إلى الحرمان الجنسي، فمن الصعب تفسيرها بالنسبة لطبقة الخاصة. ويرى بعض الباحثين^(٤) أن السبب يعود إلى البحث عن وسائل جديدة للمتعة. ومع ما يتضمنه هذا التفسير من أهمية، فإنه لم يربط الظاهرة بالعوامل البيولوجية الموروثة المتمثلة في الشذوذ الجنسي الذي يبرز بحدة إبان الأزمات. لكن الغريب بالنسبة للاندلس أنهم اعتبروها شيئاً عادياً ومألوفاً بمن في ذلك حتى الفقهاء المعروفون بحرماتهم ووقارهم^(٥).

إلى جانب ذلك، انتشرت مجالس اللهو والغناء في الأندلس على الخصوص حيث اشتهرت بعض المدن بكثرة الملاحم وأماكن الدعارة^(٦) مثل برشانة^(٧) وأبذة التي عرفت بملاحمها وراقصاتها^(٨). كما أن إشبيلية كانت مضرب الأمثال في الخلاعة^(٩). وهذا ما جعل بعض المحتسبين يحاربون الملاحم^(١٠)، لكن محاولتهم ظلت صحيحة في وادٍ لأن بعض الأمراء المرابطين أنفسهم شغفوا بمجالس اللهو. وحسبنا أن يوسف بن تاشفين رغم تقواه كان يسمع الغناء ويطلب له، بل إنه أهدى المعتمد بن عباد جارية حسنة الصوت، جيدة الغناء^(١١). أما ابنه علي الذي فتن بمباهج الحضارة الأندلسية، فقد تعلق أحياناً بمجالس الطرب. تجل ذلك في مجلس أنس حضره فأنشد بيتين بر فيهما حضوره المجلس^(١٢). ولم تكن مدن المغرب الأقصى بمعزل عن هذا المناخ العام. فقد أكد البيهقي عند حديثه عن الطزني التي سلكها ابن تومرت في طريق عودته إلى مراکش أنه شاهد «الحوانيت مملوءة دفوفاً»^(١٣).

(١) المصدر نفسه ص ٣٦٩. وانظر عن عشق ابن باجة لأحد الفتيان: ابن ليون: م.س. ورقة ٢٤ ب.

(٢) انظر ديوانه ص ١٤ - ١٦ زجل ٢، وكذلك ص ٨٨٠ زجل ١٤٠.

(٣) محمد بن عياض: مذاهب الحكماء... (مخ) م.س. ورقة ٥٨ ا.

(٤) دنش: م.س. ص ٢٤١.

(٥) انظر: المقرئ: م.س. ج ٢ ص ٥٦.

(٦) ابن قزمان: م.س. ص ٩٠ زجل ١٢، ومما جاء فيه:

ولولو: معناها زغردوا / قحيش معناها عاهرات
ومر مريم، عيش
ابنكم اهتزوا
بالذي يهدتكم

(٧) مما قاله ابن الخطيب في هذه المدينة: «للمجون بها سوق، وللفسوق ألف سوق» انظر: معيار الاختيار... م.س. ص ١٠٦.

(٨) المقرئ: نفع... ج ٣ ص ٢١٧.

(٩) المصدر نفسه، ج ١ ص ٣١١.

(١٠) ابن المنصف: قنبيه الحكماء... (مخ) ص ٢١.

(١١) حسن محمد: قيام دولة المرابطين ص ٤٤٢.

(١٢) المقرئ: م.س. ج ٤ ص ٢١٦، ٢١٧. ويقول في هذين البيتين:

لا تلمني إذا طهرت لشجو يبعث الأنس فلكريم طروب
ليس شبق الجيوب حق علينا إنما الحق أن تشق القلوب

وقراقر ومزامر وعبداناً وروطاً وأربية وكتيارات وجميع اللهو^(١)، وهو ما حمل المصلح الموحي على تكسيرها، وتخريب ما بقي منها رغم ما تحمله هذه الرواية من تعصب^(٢).

في هذه البيئة الفاسدة التي صاحبت مرحلة هرم الدولة وتفسخها، بات بديهيّاً ان تنتشر عادات اجتماعية شاذة مثل القطم واللواط خاصة في بعض الاحياء المعروفة كدرب ابن زيدون بقرطبة^(٣)، فضلاً عن استئثار الفساد والزنا الذي صار مشكلة اجتماعية حطت بثقلها على المجتمع، وطُرحت على انظار الفقهاء. فقد اشارت إحدى النوازل إلى حالة امرأة «حملت من زنى مرتين وأنها قتلت ما ولدت»^(٤)، وأصبح إسقاط الجنين من بطن الزانية مسألة تتردد في كتب الفتاوى^(٥) ولعل شيوع الدعارة والزنا مما جعلها تنعكس في أمثال العامة^(٦).

كما كثرت الوسيطات اللائي كن يسفرن بين الرجال والنساء تشجيعاً منهن للدعارة^(٧). وفي هذا المعنى وصف أحد المؤرخين^(٨) نساء برشانة بأن «لهن بالسفارة في الفقراء علاقة». وجاءت أمثال العامة انعكاساً أميناً لهذه الظاهرة الاجتماعية^(٩). وتلوث المصادر بالصمت عن عادة تناول الخشيش التي لم تظهر إلا في أواخر القرن السابع الهجري، بمعنى أن المغرب والاندلس خلال عصر المرابطين ظلا بمنأى عن هذه الآفة الاجتماعية الخطيرة^(١٠).

خامساً: الشؤون الصحية: الأمراض ووسائل العلاج الشعبية

رغم وجود عدد من الأطباء في الفترة موضوع الدراسة وخصوصاً المهرة منهم كإبي العلاء بن زهر الذي «كان ينتسخ الأدوية لمن يستفتيه من المرضى»^(١١) ورغم اقتناع بعض الناس

- (١) أخبار المهدي... م.س. ص ٢٢ - ٢٤.
- (٢) رغم هذا التعصب فإن جل المؤرخين تناقلوا هذه الرواية. انظر: ابن الخطيب: أعمال... م.س. ج ٢ ص ٢٦٧ - ابن أبي ديثار: م.س. ص ١٠٨ - ابن أبي زرع: م.س. ص ١٧٢، ١٧٤.
- (٣) ابن سعيد: المغرب... م.س. ج ١ ص ١٧٢. القطيم هو الرجل المخنث أو المتأنث ويطلق على من هو على صورة الرجال وأحوال النساء.
- (٤) ابن الحاج: م.س. ص ٨٧ - ابن رشد: م.س. ص ٦٩، ٦٨.
- (٥) عياض: مسائل الشيخ عياض (مخ) ص ٢١٢ - ابن الحاج: م.س. ص ٢٩٥.
- (٦) مما يشير إلى كثرة العامرات في بلاد الأندلس هذا المثل: «قحاب شرشر، طُلبُ وحد تجد عشره مثل رقم ١٨٤٤. انظر: الزجالي: م.س. ج ١ ص ٢٦٠.
- (٧) ورد في ترجمة أبي جعفر بن سعيد الذي ثار والده على المرابطين بقلعة بني سعيد أنه قال في إحدى القوادات: قوادة تفخر بالعار أقود من ليل على سار انظر: المقرئ: م.س. ج ٤ ص ١٨٤.
- (٨) ابن الخطيب: معيار الاختيار... م.س. ص ١٠٦.
- (٩) قالوا: «إذا كانت القويد رشيقة، تلك قبل العشيق». وقالوا أيضاً: «المزأ المذيد، ما تحتاج لقويده». انظر: الزجالي: م.س. ج ٢ ص ٣٢، ١٦.
- (١٠) العبادي: م.س. ص ١٤٦. وقد تحدث ابن الخطيب عن هذه الآفة في عصره في نفاضة الجراب. القاهرة ١٩٦٨ م ص ١٢٨.
- (١١) ابن أبي أصيبعة: م.س. ج ٣ م ١ ص ١٠٥.

بقية علم الطب^(١)، فإن السواد الأعظم من الرعية اعتقدوا اعتقاداً جازماً في نجاعة الطب الشعبي، ففضلوا الاستشفاء بالأعشاب والعقاقير التي اشتروها من العطارين، أو من أصحاب الحلقة الذين منعهم ابن عبدون^(٢) من بيع أدويتهم بسبب فسادها، بينما أثر البعض الالتجاء إلى الأولياء والمتصوفة وزيارة قبور الموتى لعلاج الأمراض المستعصية.

وقيل ذكر العادات المتبعة في الاستشفاء، من المفيد الإشارة إلى بعض الأمراض الشائعة إبان الحقبة المرابطية كمظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية. فقد تحدث البكري عن داء الحميات والطحال المنتشرة بين سكان أودغشت^(٣). كما أشار الإدريسي^(٤) إلى شيوع أمراض العيون بين سكان سجلماسة، فضلاً عن مرض الجذام الذي عرف انتشاراً في بعض المدن الأندلسية والمغربية^(٥)، ولا غرو فقد خصصت حارة للجذمي في ضاحية مدينة فاس^(٦). وكانت الأمطار التي تسقط أحياناً في شهري يوليوز وغشت (تموز وأب) تسبب الحمى الويائية للسكان^(٧)، بينما نتجت أمراض أخرى بسبب خلل في النظام الغذائي أو بسبب الإكثار من بعض أنواع الفواكه الجافة كما حدث لابن زهر الذي لم يظن - رغم باعه الطويل في ميدان الطب - إلى خطورة تناول التين باستمرار، حتى أصابته نفلة بين كتفيه لقي حتفه بسببها^(٨).

وبالمثل، انتشرت بعض أمراض الأطفال كالقروح التي تصيب رؤوسهم، وداء الحية الذي كان يتسبب في سقوط الشعر، وكذا داء السعفة^(٩) وهو عبارة عن قروح تخرج براس الصبي ووجهه. وفضلاً عن ذلك، شاع مرض الخذر الذي توفي بسببه عدد هام من أعلام الفترة موضوع الدراسة^(١٠) وكذلك مرض الزمانة الذي أصاب عدداً من الفقهاء، ناهيك عن الأمراض الأخرى التي عمت مجموع السكان كالطاعون وداء الجرب^(١١)، والبرص^(١٢) والفالجية^(١٣)، والشنجان^(١٤)، والنفثة

(١) ابن بسام: م.س. ق ١ م ٢ ص ٨٩٢. وما ذكره الشاعر السميسر عن أهمية علم الطب:

| | | | | | |
|---------|-------------|-----|------|---------|------|
| كل علم | ما خلا الشر | ع | وعلم | الطب | باطل |
| غير أن | الأول للطب | على | رأي | الأرائل | |
| هل تمام | الشرع إلا | أن | يكون | الجسم | عامل |

(٢) رسالة في الحسبة م.س. ص ٤٦.

(٣) المغرب... م.س. ص ١٥٨.

(٤) وصف أفريقيا الشمالية م.س. ص ٦١. وفيه إشارة إلى مرض عشب العيون.

(٥) ابن رشد: م.س. ص ٢١. وقد وردت عليه نازلة من مرسية حول رجل مجذوم. أيضاً، ابن الحاج: م.س. ص ٧٢.

(٦) المقرئ: أزهار... م.س. ج ٢ ص ٨٦.

(٧) مارمول: م.س. ج ١ ص ٢١.

(٨) ابن أبي أصيبعة: م.س. ج ٢ م ١ ص ١٠٨ - ابن دحية: م.س. ص ٢٠٢ - المقرئ: نفح... م.س. ج ٢ ص ٢٤٥.

(٩) ابن زهر، جامع أسرار الطب ص ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٦.

(١٠) انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار ج ١ ص ٤١٢. ترجمة محمد بن الحسن بن محمد - ابن القاضي: جفوة

الافتقاس... ق ٢ ص ٤٨١. ترجمة علي بن عبد الله المتبطي الأنصاري - ابن بشكوال: م.س. ج ١ ص ٨١.

ترجمة ابن حديد - ابن عبد الملك: م.س. ج ٦ ص ١٦٦. ترجمة محمد بن الحسن الأموي - ابن الأبار:

التكملة... م.س. ج ٢ ص ٤٧٦ - ٤٧٧ الترجمة السابقة.

(١١) ابن قزمان: ديوان ابن قزمان ص: ٧٤.

(١٢) ابن رشد: م.س. ص ١٤٥.

(١٣) ابن الأبار: م.س. ص ٢٥٩.

(١٤) ابن أبي أصيبعة: ج ٢ م ١ ص ١٠٨.

التي تصيب العنق^(١)، والصداع والشقيقة والبرنسام، وهو مرض يصيب الدماغ، والطفرة التي هي عبارة عن لحم عصبي ينبت في إفاق العين، والقلاع والسلاق التي تعم الفم واللسان، والذبحة التي اعتبرت أخطر الأمراض، والرية والسعال، وسدد الكبد^(٢)، ومرض الفواق الذي توفي منه أحد القضاة حسبما يذكره ابن القطان^(٣)، فضلاً عن مرض الإسهال^(٤)، والنزلة الباردة^(٥)، وداء البطن^(٦)، والرتق^(٧)، والرمد^(٨)، والعقم^(٩)، ناهيك عن بعض الأمراض النفسية كداء الصرع والجنون^(١٠).

ويرى ابن خلدون^(١١) أن الأمراض الناتجة عن النظام الغذائي تنتشر بين أهل الحضر أكثر من أهل البوادي، معللاً ذلك بكثرة أكلهم، وتنوع أصناف الأغذية، وعدم تنظيم أوقات تناولها، وخلطها بالتوابل، في حين تكون أطعمة سكان البادية قليلة في الغالب، وتتميز بندرة أدمها.

ولا سبيل إلى الشك في أن كثرة الأمراض، وقلة مدخول السواد الأعظم من الرعايا، فضلاً عن عجز الأطباء على معالجة بعضها، جعل طرق الاستشفاء البدائي تعرف رواجاً كبيراً. ولا غرو فقد تضمنت إحدى فتاوى ابن رشد حالة عطار من مدينة سبتة «يعقد الأشربة ويعمل المعاجين بيده»^(١٢). وهو نص ينهض دليلاً على الإقبال الكبير من طرف المغاربة والاندلسيين على الطب الشعبي^(١٣). وقد حاول ابن عبدون محاربة هذه العادة عبثاً. يتجلى ذلك في قوله: «لا يبيع الشراب ولا المعجون ولا يركب الدواء إلا الحكيم الماهر ولا يشتري ذلك من عطار ولا شراشي، فإنهم حرصاء على أخذ الثمن بلا علم فيفسدون الفتوة ويقتلون الأعداء لأنهم يركبون أدوية مجهولة مخالفة للعمل»^(١٤).

وقد حصر ابن خلدون هذا النوع من الطب في البيئة البدوية، لكنه يتفق مع ابن عبدون في أنه مبني على تجربة قاصرة وأنه «ليس على قانون طبيعى»^(١٥).

-
- (١) ابن عربي: رسالة القدس م.س. ص ٥٤.
 - (١٢) ذكر كل هذه الأمراض ابن زهر الذي عاصر الحقبة المرابطية. انظر: م.س. ص ٢٩، ٤٤، ٤٧، ٧٨، ٩٠، ٩١، ٩٩.
 - (١٣) ١١٦، ١١٨، ١٢٣، ١٤٦.
 - (٣) نظم الجمان... م.س. ص ١٨.
 - (٤) ابن عبد الملك: م.س. ج ٦ ص ١٥١. ترجمة محمد بن أبي جعفر بن أحمد بن خلف.
 - (٥) ابن رشد: م.س. ص ٩.
 - (٦) ابن دحية: م.س. ص ٤٥.
 - (٧) ابن الحاج: م.س. ص ٧٠.
 - (٨) ابن حمديس: م.س. ص ٢٠١.
 - (٩) مؤلف مجهول: الاستبصار... م.س. ص ٢١٩.
 - (١٠) العزني: م.س. ص ١١٣، ١١٥.
 - (١١) المقدمة ج ٣ ص ٩٤٧، ٩٤٨.
 - (١٢) نوازل ابن رشد، م.س. ص ١٤٥.
 - (١٣) أمين الطيبي: جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن ٦ الهجري من خلال رسائل «جنيزة القاهرة». مجلة البحوث التاريخية، ع ٢ حزيران/ يونيو ١٩٨٤ ص ٤٧٠.
 - (١٤) رسالة في الحسبة م.س. ص ٤٧.
 - (١٥) المقدمة ج ٣ ص ١١٠٩.

وعلى كل حال، فقد اعتقدت الرعاية اعتقاداً جازماً في طرق العلاج البدائية، لا في البادية فحسب، بل في الحواضر نفسها، حيث شاع الاعتقاد «بالطب الروحاني» فالتجأ المرضى إلى الأولياء والصلحاء طمعاً في الشفاء. ففي فاس قصد ذوو العاهات والأمراض المزمنة بمن فيهم النساء الولي الصالح أبا يعزى^(١). وإذا ما صدقنا الروايات المنقوبة، فإن هذا الولي نجح في إشفاء صبية عمياء^(٢) وكان يأكل الدفلى ويمضغها ويعالج بها المرضى الذين يحجون إليه، وعلى الخصوص أولئك الذين استعصت أمراضهم على الأطباء كداء الصرع والجنون^(٣). وستزيد هذه النقطة تفصيلاً عند دراسة الدور الاجتماعي للأولياء في الفصل القادم.

واعتقد كثير من الرعايا في نجاعة ماء الحمات لعلاج بعض الأمراض كالفالج^(٤) والخذر^(٥). وتثبت في كتب التراجم أسماء العديد من الأعلام الذين حطوا الرحال في مختلف حمات المدن الأندلسية كغرناطة^(٦)، والمرية^(٧)، ودية التي عدت من أهم حمات الأندلس يخرج منها ماء حار وبارد^(٨).

ولم تكن حمة بجاعة تقل عنها شأنًا، لذلك تقاطر عليها المرضى^(٩) لأن «أكثر من يواظب عليها يبرأ من زمانته»^(١٠) وبخصوص هذه الحمة يذكر أحد الجغرافيين^(١١) ما وجد فيها من فساد قخصصت للزائرين، مشيراً إلى أن بها بيتين: أحدهما للرجال ويوجد على الحمة نفسها، والآخر للنساء يدخله الماء من بيت الرجال. ولعل نجاعة الاستشفاء بالحمات ما جعل ابن الخطيب يخلص إلى القول بأن الحمة «للصيد والحجل والصحة»^(١٢).

كما لجأ البعض إلى العيون اعتقاداً منهم في أهمية مياهها في تطهير الأبدان. فإزاء قرية باغة وجدت عين ماء «إذا شرب منه من به الحصا فتته له وبريء منه»^(١٣). وعلى أربعين ميلاً من مرسية وجدت عين أخرى يصلح ماؤها لمن علق العلق فتسقطه لحينه»^(١٤) أما قرب غرناطة فوجدت عين ماء وشجرة زيتون يخرج الناس إليها في يوم معلوم من السنة للتداوي»^(١٥).

(١) ابن الزيات: م.س. ص ٢١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٣) العزني: م.س. ص ١١٥.

(٤) ابن فرحون: الديباج المذهب... ص ٤٠. ترجمة أحمد بن محمد بن عيسى.

(٥) ابن زهر: م.س. ص ١٥.

(٦) ابن الأبار: المعجم م.س. ص ٢٥٩، ترجمة ٢٤٠.

(٧) ابن عطية: فهرست ابن عطية ص ٥٧ ترجمة ٢.

(٨) ياقوت: م.س. ج ٣ ص ١١٦.

(٩) ابن عبد الملك: م.س. ص ٦١ ترجمة سليمان بن حزم السبتي - ابن الأبار: المعجم ص ٢٠٣.

(١٠) القزويني: م.س. ص ٥٠٩.

(١١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٢) معيار الاختيار... م.س. ص ١٢٤.

(١٣) مؤلف مجهول: ذكر بلاد الأندلس وفضلاتها (مخ) ص ٢٠.

(١٤) الحميري: م.س. ص ٥٣٩.

(١٥) أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب... ص ٢٣٥.

واستعمل سكان سوس زيت الهرجان في معالجة الكلي والبول^(١)، بينما استعمل أهل انقال شحوم النعام ضد الصمم وسائر الأوجاع البدنية^(٢). وفي الريف جرت العادة أن يضع الناس الحناء على رؤوسهم كلما شعروا بصدايح أو الام^(٣). وورد في إحدى النوازل أن بعض الأندلسيين استعملوا حبة لبان لمقاومة الام الأضراس^(٤).

أما بالنسبة لمعالجة أمراض العيون، فقد أثر عن ابن زهر أنه كان يكتحل بشراب الورد لمعالجة بصره وتقويته^(٥). وكان بعض الناس يكتحلون اتقاء من الأضرار التي يتعرضون لها أثناء مزاولتهم مهنتهم^(٦).

ويذكر البكري أن أحد ملوك غانة بعث إلى أحد الأمراء دواء لمعالجة مرض العقم، عبارة عن نبات «يأكله الرجل العقيم فيولد له»^(٧). كما استغل دهن الصنوبر للاستشفاء من مرض الفالج^(٨). وبالمثل لجأ العامة إلى لحوم بعض الحيوانات كحلم السلحفاة لمعالجة داء الجذام، وذلك بتناوله سبعة أيام متتالية^(٩). كما استعملوا لحوم بعض الحيوانات البحرية للقضاء على داء النقرس والفالج والبرد^(١٠).

يتبين من حصاد النصوص السالفة أن طرق الاستشفاء تنوعت بين ما هو طبيعى، وما هو روحاني. وظل العلاج الشعبي يحتل مكانة هامة في عادات الرعايا خلال العصر المرابطي اعتقاداً منهم أنه أفضل وسيلة للعلاج والحفاظ على صحة أبدانهم، خاصة أن دخلهم الهزيل لم يسمح لهم بالتردد على الأطباء.

سادساً: الموت والتقاليد الجنائزية

من المثير للانتباه، أن هاجس الموت ظل مهيمناً على تفكير الرعايا إبان حياتهم، يشاهدونه في أحلامهم فيهيئون نفوسهم له^(١١) ويوصون - وهم على قيد الحياة - بمن يصلي عليهم بعد وفاتهم. فقد أوصى أحد الآباء ابنه بذلك^(١٢) وتتعدد في كتب المناقب نماذج كثيرة من هذا القبيل^(١٣) وفي الوقت

(١) البكري: م.س. ص ١٦٢.

(٢) الإدريسي: م.س. ص ٧٢.

(٣) البانسي: م.س. ص ٥٩.

(٤) ابن رشد: م.س. ص ٣٩.

(٥) جامع أسرار الطب ص ١٢.

(٦) ابن عربي: م.س. ص ٤٤. ويذكر في ترجمة أبي جعفر الحناوي (ت ٥٧٧ هـ) أنه كان ينخل الحناء بالاجرة وكان يكحل عينيه من أجل غبار الحناء.

(٧) المغرب... ص ١٧٤.

(٨) ابن زهر: مختصر في الأغذية (مخ) ورقة ١٥٧.

(٩) مارمول: م.س. ج ١ ص ٢٣.

(١٠) أبو حامد الفرياني: م.س. ص ٩٩، ١٠٢، ١٠٤.

(١١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٢) ابن الأبار: التكملة... م.س. ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٤. ترجمة أبو بكر محمد بن أحمد العبدري (ت ٥٣٢ هـ).

(١٣) انظر: ابن بشكوال: الصلة م.س. ج ١ ص ٢٣٥ - محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ٤١.

نفسه كان البعض يعين المكان الذي يرغب أن يدفن فيه، فقد أوصى أبو زكريا يحيى بن موسى المليحي «أن يدفن برباط شاكر»^(١). كما أن عبد المنعم بن مروان نزيل لواته «دفن برباطه عمروس على فرسخ من المدينة بوصيته ذلك»^(٢). وأوصى أحدهم أن يدفن في أسطوان داره مخافة أن يقل مشيعوه فيشتمته حسدته^(٣). وفي السياق نفسه تطلبنا المصادر بذكر خبر امرأة هيأت كفنها قبل وفاتها^(٤). بل إن أحد القضاة حفر قبره «واعده لنفسه وفيه دفن»^(٥). وكانت الرغبة في الموت يوم الجمعة وتفضيلها على كافة أيام الأسبوع لجلالة هذا اليوم وقديسيتها، أمنية معظم الناس آنذاك^(٦).

ونستشف بعض التقاليد الجنائزية من خلال الإشارات المتناثرة في المصادر. من ذلك أن الرجال يقفون لتقبل التعازي، بينما تحيط النساء بالميت يندبهن ويكبن عليه^(٧) ويصحن بأهازيج خاصة^(٨)، وهن حاسرات، كاشفات الوجه. لذلك طالب السقطي^(٩) بمنعهن من ذلك.

وعندما تخرج الجنازة يكثر الإنشاد والدعاء ورفع الأصوات، حتى أن الفقيه الطرطوشي^(١٠) اعتبر ذلك بدعة. وغالباً ما يخرج جمهور كثير للمشاركة في تشجيع جنازة الزهاد والفقهاء التقاة^(١١) وجرت العادة أن يلبس أهالي القعيد لباساً أبيض تعبيراً عن حزنهم على فراقه. وعرفت هذه العادة لدى الأندلسيين على الخصوص^(١٢) ثم تسربت إلى المغرب الأقصى، ولا زالت إلى اليوم ماثلة للعيان. ويبدو أنها شاعت منذ العصر الأموي^(١٣) وهي على كل حال تخالف عادة أهل المشرق في لبس السواد^(١٤) وفي الأوساط الأرستقراطية كانت تبعث إلى عائلة المتوفى رسائل التعازي؛ وبهذا الخصوص أورد ابن خاقان^(١٥) رسالة تعزية أرسلت إلى يوسف بن تاشفين بعد وفاة ابنه الأمير مزديلي.

-
- (١) ابن الزيات: م.س. ص ١٢٦.
 - (٢) ابن الزبير: صلة الصلة... ص ٢٤.
 - (٣) ابن الأبار: المعجم م.س. ص ٥٧. ترجمة إبراهيم بن عصام أبو أمية.
 - (٤) ابن الزيات: م.س. ص ٢٠٦. ترجمة ٧٣.
 - (٥) النباهي: الموقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. ص ١٠٠. والقاضي هو محمد بن سليمان الأنصاري المالقي (ت ٥٠٠ هـ).
 - (٦) ابن عبد الملك: م.س. ج ٥ ق ١ ص ٣٧١ - التهنيتي: نيل الابتهاج... ص ١٩٩.
 - (٧) ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقيق ص ١٠٨.
 - (٨) ابن الزيات: م.س. ص ٢٧٠. ترجمة أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الهروي.
 - (٩) رسالة في الحسبة م.س. ص ٦٨.
 - (١٠) كتاب الحوادث والبدع ص ١٤٢.
 - (١١) انظر نماذج عند ابن بشكوال: م.س. ص ١٧٣، ٢٠٠، ٢٧٥.
 - (١٢) ابن بسلام: الأخيرة ق ٣ م ٢ ص ٨١٨ - ابن دحية: المطرب من اشعار أهل المغرب ص ٨٠ - الأصفهاني: ق ٤ م ٢ ص ٦٠. ابن سعيد: رايات المبرزين... ص ١٠٧. ترجمة أبو الحسن بن علي بن عبد الله الحصري - المقرئ: نفع... ج ٤ ص ١٠٩ - أحمد أمين: م.س. ص ٨.
 - (١٣) النباهي: م.س. ص ٧٩. ويشير إلى سيادة هذه العادة منذ الفترة العامرية.
 - (١٤) المقرئ: م.س. ج ٣ ص ٤٤٠ - ٤٤١.
 - (١٥) قلائد العقيان... ص ٢٥٤ - ٢٥٥. وانظر رسالة تعزية أخرى عند ابن أبي الخصال: رسائل ابن أبي الخصال (مخ) لوحة ٥٤.

واختلفت تكاليف مراسم الدفن حسب الوضع المادي للأشخاص. فممنهم من رغب في جنازة متواضعة لم تكلف أكثر من سبعة دراهم^(١)، في حين أبى بعض أهالي المتوفى إلا أن يتأنقوا في بناء قبره وزخرفته وجعل قبة عليه، وهو ما كلفهم مبالغ باهظة وصلت أحياناً إلى ٥٠٠ دينار^(٢). واشتهر بعض المحسنين بتحبيس أواض لدفن المتوفى كما تشهد بذلك نصوص الفترة موضوع الدراسة^(٣)، وكذا عقود التحبيس الموافقة للفترة ذاتها^(٤).

وتمدنا المصادر بأسماء المقابر التي كان يتم الدفن فيها من بينها ما اكتشفه دفردان Deverdun^(٥) ضمن أبحاثه الأثرية بمراكش. غير أن الدفن في المقابر العمومية أثار أحياناً بعض المشاكل لأسباب قد تعود إلى اكتظاظ بعضها، أو عدم احترام قبور الأطفال الصغار كما تؤكد ذلك إحدى نوازل ابن رشد^(٦).

لذلك فضلت بعض البيوتات الوجيبة بناء روضات خاصة لدفن من ينتسب إليها. وحسبنا أن عمرو بن أحمد بن أسعد اللخمي «دفن بمقبرة مشكة في روضة هنالك لبعض سلفه»^(٧). كما أن أحمد بن خلف دفن بروضة أبيه^(٨). ودفن عبد الواحد بن عيسى الهمذاني بباب البيرة «بروضة سلفه»^(٩)، والشيء يقال عن الفقيه ابن رشد الذي دفن كذلك بروضة خاصة بأسلافه^(١٠) والأمثلة تطول^(١١) وتشير المصادر أن هذه العادة سادت أيضاً في وسط العائلات الأرستقراطية بالممالك المسيحية^(١٢).

ورغم أن البعض توفوا خارج مدنهم أو قراهم، فإنهم فضلوا أن يدفنوا في الأماكن التي ولدوا بها^(١٣) مما ينهض حجة على ارتباطهم بالأرض. أما بالنسبة للتجار الذين اعتادوا المرور في الطريق الممتد من نول إلى جزيرة أيونا فقد اضطروا - لصلاية أرض هذا الطريق - أن يوارو موتاهم ويستروهم بالحطام والحشيش أو يقدفوا جثثهم في البحر^(١٤).

(١) ابن الزيات: م.س. ترجمة أبو موسى الدكالي.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٧ الترجمة السابقة نفسها.

(٣) ابن رشد: م.س. ص ٣٠٠.

(٤) الجزيري: المقصد المحمود... (مخ) ص ١٧٦.

(٥) Marrakech des origines... op. cit., p.31.

(٦) نوازل ابن رشد م.س. ص ٣٠٧. وهذا نص النازلة: «وسئل رضي الله عنه عن رجل دفن أربعة من الولد في مقبرة من مقابر المسلمين فلما كان بعد عشرة أعوام من دفنه إياهم، غاب الرجل عن البلد، فجاء الحفار فحفروا على قبور أولئك الأطفال قبراً لأرادة ودفنوا فيه. ثم إن والد الأطفال جاء من سفره بعد دفن المرأة بثلاثين يوماً ولم يجد لقبور بنيه أثراً غير قبر المرأة فأراد نبشها، وتحويلها إلى موضع آخر ليقيم قبور بنيه على ما كانت».

(٧) ابن عبد الملك: م.س. ج ٥ ق ٤ ص ٤٧٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ٦٢٥.

(٩) ابن الزبير: م.س. ص ٢٤.

(١٠) إحسان عباس: «نوازل ابن رشد»، م.س. ص ٨.

(١١) انظر: مؤلف مجهول: طبقات المالكية (مخ) م.س. ص ٢٦٨ - ابن عبد الملك: م.س. ج ٤ ص ٧١ ترجمة سليمان بن عبد الله بن علي. وكذلك ج ٦ ص ٢٧٥ ترجمة محمد بن عبد الرحيم بن خلف و ص ٢٩١ ترجمة محمد بن عبد العزيز بن عتاب.

(١٢) ابن الكردوبس: تاريخ الأندلس ص ١١٥.

(١٣) الضبي: بغية الملتبس... ٢١٢.

(١٤) مؤلف مجهول: الاستبصار... م.س. ص ٢١٥.

ومن التقاليد الجنائزية التي عرفت في العصر المرابطي كذلك اجتماع أهل الميت عند قبره في صبيحة اليوم الثاني، وهو ما يعرف بالصبيحة «ومن غاب منهم وجدوا عليه كأنه ترك فرضاً معيناً»^(١). وقد أثارت هذه العادة جدلاً بين الفقهاء حيث اعتبرها الطرطوشي بدعة^(٢)، مستنداً في ذلك على أبي عمران الفاسي الذي هجر أحد أصحابه بسببها، بينما خالفه عياض^(٣). وفي بعض المناطق اقتضت العادة أن يجتمع الأهل على قبر الميت في اليوم الثالث كذلك والسابع، ثم يجتمعون بعد مرور شهر، ويعودون للاجتماع أمام قبره بعد مرور سنة على وفاته^(٤).

وبعد دفن الميت، يترحم عليه بقراءة القرآن^(٥). وقد أجاز فقهاء الحقبة المرابطية ذلك فنصروا على أن «القراءة على القبور جائزة»^(٦) لكن ابن عبيدون اشترط ألا «يكون القارئ على الموتى شاباً ولا عزباً»^(٧). ولم تقتصر عادة قراءة القرآن على الميت بعد دفنه فحسب، بل هناك من فعل ذلك يومياً^(٨).

وتؤكد النصوص أن بعض الشعراء كانوا يقرأون قصائد تأبينية عقب الترحم على الميت^(٩). وشكلت الأعياد مناسبة لزيارة الموتى واستلهم دعوات الرحمة لهم^(١٠).

واعتماد البعض على تزيين قبور ذويهم بزخرفة الرخامات التي تعلوها، وكتابة اسم المتوفى^(١١) وتاريخ وفاته عليها^(١٢) وكانت تكتب أحياناً أبيات شعرية يغلب عليها طابع الزهد والتقوى^(١٣) أو

-
- (١) الزياتي: م.س. ص ٣٠.
 - (٢) كتاب الحوادث والبدع م.س. ص ١٦٢.
 - (٣) يذكر الشاطبي أن القاضي عياض ذكر بأن أهل القيروان رخصوا بذلك رغم أنه أشار إلى كونها بدعة: انظر: فتاوى الإمام الشاطبي، طبعة تونس ١٩٨٥ (ط ٢) تحقيق محمد أبو الألفان ص ٢٠٩ - ٢١٠.
 - (٤) الطرطوشي: م.س. ص ١٦٢.
 - (٥) ابن الزيات: م.س. ص ٢٠٦، ٢٠٧. ترجمة أبو موسى الدكالي.
 - (٦) الزياتي: م.س. ص ٢٠، ٣٥ - البرزلي: م.س. ص ١١١.
 - (٧) رسالة في الحسبة ص ٢٧.
 - (٨) ابن الزيات: م.س. ص ٤٤٥ - ٤٤٦ ترجمة مجهول.
 - (٩) انظر بعض الأمثلة في: ابن الأبار: المعجم... م.س. ص ١٤٦، ترجمة أبو عبد الله بن أبي الخصال - المقرئ: أزهار... م.س. ج ٥ ص ١٦٩. ابن بسام: م.س. ق ١ ص ٢ ص ٨١٦.
 - (١٠) ابن الخطيب: الإحاطة... ج ٢ ص ١٢٠.
 - (١١) ابن بشكوال: م.س. ج ٢ ص ٥٢٨. ترجمة أبو الوليد سليمان بن عبد الملك.
 - (١٢) المصدر نفسه ص ٥٨٦. ترجمة مالك بن عبد الله بن محمد العتبي - ابن الأبار: التكملة... ج ١ ص ٨٤. ترجمة أحمد بن محمد الأنصاري.
 - (١٣) ابن ليون: لمح السحر... (مخ) ورقة ٧٦ ب، ١٧٧ - ابن عبد الملك: م.س. ج ٤ ص ٥٣ - ٥٤. ترجمة سلام بن عبد الله بن سلام (ت ٥٤٤ هـ). ويذكر الأبيات التي كتبت على رخامة قبره:
يا ذا الذي مر بي اجتيازاً سالتك الله فف قليلاً
واسمع لقولي فقيه وعظ يسوق من نوم الغفول
عشت ثمانين كاملات ناميك منها مدى طويلاً
انظر كذلك نماذج أخرى: ابن خلكان: م.س. ج ٤ ص ٤٣٦ - ابن الأبار: التكملة... ج ١ ص ٢٣٥ - المقرئ
نفح... ج ٢ ص ١٠٨.

عبارات تعرف بقيمة الفقيد وورعه وزهده^(١). وقد أصبحت عادة الكتابة على رخامات القبور شائعة، مصداق ذلك قول ابن الأبار أن الناس فيما يكتبون على القبور كثير مستجاد^(٢). كما جرت العادة عند البعض أن يغرسوا بعض الشجيرات والأزهار فوق قبر الميت^(٣).

وثمة نصوص فقهية تبين أن بعض الناس شيدوا جدراناً وسقائف على قبور موتاهم^(٤)، رغم أن الفقهاء نهوا عن ذلك. بل وصل الحد بهم إلى الأمر بهدمها، ونصوا على أن لا يترك منها إلا ما أباحه أهل العلم من الجدار اليسير لتمييز به قبور الأهلين والعشائر^(٥). وغالباً ما تم بناء القباب والأضرحة للأولياء والصلحاء^(٦).

غير أن ارتفاع بعض أبنية القبور أثار أحياناً بعض المشكلات. يتبين ذلك من خلال ما ذكره ابن رشد^(٧) عن صاحب فندق اشتكى من ارتفاع بناء قبر بدعوى أنه يستر باب فندقه ويمنع مسرح النظر للجالس في أسطوانه.

إلى جانب التقاليد الجنائزية وجدت معتقدات شعبية، نابعة من ملاحظات الفرد للظواهر الطبيعية، غير أنها امتزجت بالفكر الخرافي. وقد ارتبطت جميعها بضرورة تأمين العيش. وبما أن النشاط الأساسي للرعية ارتكز على الزراعة، فإن معظم الأفكار النابعة من صميم هذا المجتمع ارتبطت بالظروف الطبيعية من جفاف وخصوبة وأمطار ووفيات، وإليك جدولاً نرى أنه يوضح بعض المعتقدات الشعبية لما يحدث خلال السنة في ارتباط مع الظروف الطبيعية حسب ما يذكره مؤلف عاش في الحقبة موضوع الدراسة^(٨).

يضاف إلى هذه المعتقدات المرتبطة بالطبيعة معتقدات أخرى جاءت إفراراً لظروف الحياة العامة وماجس الأمراض والموت. فقرب قاس، وجدت عين ساد الاعتقاد أنه كلما رغب المريض في معرفة شفائه أو موته، حمله أهله إليها فأغطسوه فيها ثم أخرجوه. فإذا ظهر دم على فمه، كان ذلك

= وما أوصى ابن زهر بكتابه على رخامة قبره:

ترحم بفضلك يا واقفاً وأبصر مكاناً دفننا إليه
تراب الخريح على صفحتي كاني لم امش يوماً عليه
أداوي الأنام حذار المنون فما أنا قد صرت رهنأ عليه
وانظر كذلك وصية المعتد بن عباد بكتابة أبيات شعرية على قبره لما أحس بالموت: ابن بسام: م.س. ق ١ م ١
ص ٥٧ وكذلك ابن الخطيب: الإحاطة... ج ٢ ص ١١٩.

(١) الشراط: الروض العاطر الأنفلس... ورقة ١٦٢ ب، ورقة ١٨١ أ.

(٢) المقتضب من تحفة القادِم ص ٦٨.

(٣) ابن الأبار: الحلة السراء... ج ٢ ص ٢٦٧.

(٤) ابن رشد: م.س. ص ٣٠٦.

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها - البيهقي: م.س. ص ١٧٠.

(٦) مؤلف مجهول: الاستبصار... ص ٣٠٦.

(٧) نوازل ابن رشد، ص ٣٠٨.

(٨) انظر هذا الجدول الذي اقتبسناه من نصوص الطنبري: زهرة البستان ونزهة الأذهان (مخ) ص ٣٧ - ٣٩. في الملحق رقم ١٢ في آخر الكتاب.

علامة أنه سييرا من مرضه ويستمر في الحياة، وإذا لم يظهر أيقنوا بهلاكه^(١).

وهناك بعض المعتقدات الغيبية التي أصبحت من العوائد الراسخة في بعض المناطق. ففي ضواحي مدينة طنجة وجدت عين ماء تسمى برقال، اعتقد الأهالي أن ماءها يحدث الحمق لشاربه^(٢).

وفي قبائل غمارة لا يتم إكرام الضيف إلا عن طريق إيناسه بنسانهم الأياض منهم. حيث جرت العادة عندهم أن يسمح الرجل لأخته أو بنته أو من لم تكن ذات زوج من أهله بالمبيت مع الضيف^(٣). ومن عاداتهم كذلك ألا يتركوا رجلاً ذا عاهة يستقر ببلدهم بدعوى أنه يفسد النسل^(٤).

ويخبرنا أحد الجغرافيين^(٥) عن عادة انتشرت بإحدى جهات المغرب الأقصى دون تحديدها، وهي أن الرجل إذا أحب امرأة ورغب في الزواج بها ولم يكن كفواً لها، عمد إلى بقرة حامل من بقر أبيها. وقطع من ذنبها شيئاً من الشعر ثم يهرب. فإذا أخبر الراعي أهل المرأة بذلك خرجوا في طلبه، فإن وجدوه قتلوه، وإن لم يظفروا به يمضي على وجهه، فإن وجد أحداً قطع ذكره وأتى الأهل به قبل أن تلد البقرة فيزوجونها منه ولا يمكنهم الامتناع البتة، وإن ولدت البقرة ولم يأت بالذكر المقطوع، يبطل عمله ولا يمكنه الرجوع إلى أهلها، فإن رجع قتلوه.

ومن العادات الأخرى التي نستشفها من خلال بعض المصادر، عادة إعطاء الألقاب لبعض الأشخاص. وتكون هذه الألقاب مستقاة من عادة اشتهروا بها أو سلوك تميزوا به. فأبو القاسم المنيشي لقب ببعض الأعمى لأنه كان يقود الأعمى التطيلي الشاعر المشهور في الحقبة المرابطية^(٦). كما أن ابن المرخي لقب بهذا الاسم كناية على فتور كان يغلب على فصاحته^(٧). ولقب بعض الناس بأسماء الحرف التي اشتغلوا بها كما سبق الذكر^(٨).

وجرت العادة كذلك، أن يؤرخ الناس بالأحداث الكبرى في التاريخ المرابطي، فأرخوا بعام الزلافة^(٩)، وبعام النواظر (٥٣٢ هـ)، وهي السنة التي كان عبد المؤمن بن علي يصارع فيها علي بن يوسف في النواظر أحد الجبال العالية في الريف، وكانت سنة حاسمة في الصراع المرابطي الموحد، لذلك أرخ بها الناس^(١٠).

٤ سابعاً: السحر، الكهانة والتنجيم:

لا يتأتى فهم المعتقدات الغيبية بمعزل عن خلفيتها السوسيو - اقتصادية، والنسيج الثقافي،

(١) الجزنائي: جني زهرة الأس ص ٢٨ - مؤلف مجهول: الاستبصار... ص ١٨٤ - الحميري: م.س. ص ٤٣٥.

(٢) الحميري: م.س. ص ٣٦٩.

(٣) مؤلف مجهول: الاستبصار... م.س. ص ١٩٢.

(٤) البكري: م.س. ص ١٠٢.

(٥) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد م.س. ص ١٦٤.

(٦) ابن سعيد: رايقت... ص ٢٣.

(٧) ابن عذاري: م.س. ص ٥٧.

(٨) سبق أن تعرضنا لهذه النقطة في الجزء الثاني من الأطروحة المرقونة، ص ٥٢٧.

(٩) أحمد أمين: م.س. ص ١٧٣.

(١٠) النويري: م.س. ص ٢٩٠.

والمناخ السياسي الذي أفرزها. فالخوارق، وعمليات السحر وانتحال النبوة والكهانة، وغيرها من المظاهر الاجتماعية التي شهدتها العصر المرابطي، تعد تعبيراً عن مواقف، ووسائل لتجاوز المشاكل والازمات التي زخر بها هذا العصر. وقد حاولت كل واحدة من هذه الظواهر أن تجعل الإنسان سيداً على الطبيعة، يذلل الصعوبات ويقتحم المستحيل، عن طريق تخطي المالكوف والشائع. وللأسف فإن الحوليات التاريخية تلون بالصبغ هذه القضايا، إلا أن المصادر الجغرافية ترمم بعض الثغرات، وتمكن الباحث من استجلاء هذا الجانب المطموس.

وإذا كانت العوامل الاقتصادية والسياسية والإيديولوجية قد أثرت في عقلية المجتمع، فما هي تجليات هذه العقلية الغيبية؟

إن دراسة الأحوال الاقتصادية للمجتمع المرابطي تكشف وجود تفاوت في ملكية وسائل الإنتاج من أرض وماشية ورؤوس أموال، مما سمح بظهور تفاوت اجتماعي استفادت منه طبقة الخاصة، بينما أقفلت أبواب الرزق أمام طبقة العامة، وسدت أمامها كل القنوات والطرق الممكنة لتحسين وضعها الاجتماعي، وهو ما جعلها تلجأ إلى الفكر الغيبي للتعبير عن طموحاتها وأمانيتها، وتؤسس عالماً مخيالياً تختزن فيه كل توجهاتها وتطلعاتها.

وبما أن الدولة المرابطية ظلت - سياسياً - منفصلة عن الرعايا، ممارسة عليهم كل أشكال الابتزاز الجبائي والضغط في المرحلة الأخيرة على الخصوص، ونظراً لعجز هؤلاء على مجابهتها، فقد التجأوا إلى الفكر الغيبي كوسيلة من وسائل المناهضة والاحتجاج. وبما أن الدولة لم تقدم لهم حلولاً على المستوى العملي، فإنهم حاولوا بناء عالم خاص لحل معضلاتهم، فأقاموا في ضوء هذا الواقع مجموعة من المعتقدات الخرافية. ومن المعلوم أن الفكر لا يخلق في الغيب إلا عندما يعجز عن حل مشكلات الواقع.

وتدخلت عوامل أخرى لتساهم في تكريس هذه المعتقدات الغيبية، منها سرعة تصديق العامة لها، بل حتى الإيمان بها. فمن خلال استقراء الماضي، يتضح أن ثمة ديانات وثنية ومعتقدات شعبية متنوعة طغت على عقلية السكان، بعضها محلي، وبعضها وافد من الشرق. وتماخض عن هذه الترسبات القديمة اعتقادهم بوجود أرواح الجن داخل مختلف العناصر الطبيعية من عيون وأنهار وأحجار وجبال وأشجار. ولا تزال بعض القبائل - إلى الآن - تعظم هذه العناصر، وتقيم لها مواسم سنوية^(١).

كما أن سذاجتهم ساهمت في تصديقهم لأشكال الفكر الأسطوري، وترسيخ جذوره. فمنذ البدايات الأولى للعصر المرابطي نسبوا إلى عبد الله بن ياسين قدرته على تفجير الماء من قلب الصحراء القاحلة^(٢). كما صدقوا حدث انقطاع نقيق الضفادع بمجرد اقترابه من إحدى البرك بمعنى أنصاره^(٣). وبالمثل، جبّلوا منذ القديم على سرعة إيمانهم بكل من هب ودب، فانتحل نبوة أو تزعم دعوة

(١) بن منصور: قبائل المغرب ج ١ ص ٢٨٧.

(٢) البكري: م.س. ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ - ابن الخطيب: أعمال الأعلام م.س. ج ٣ ص ٢٣١ - ابن أبي زرع: م.س. ص ١٢٢.

دينية^(١). وهذا ما يفسر سهولة استغلال المهدي بن تومرت هذه العقلية الساذجة لتمرير مخططاته. وإنجاح دعوته، من ذلك اتفاقه مع عبد الله الوشرسي بأن يتظاهر بمظهر رجل أمي أبلي، ويكتم ما عنده من علوم وفصاحة حتى يحين وقت الدعوة، فيظهر حقيقته دفعة واحدة ليقوم ذلك مقام المعجزة. ونجح المهدي في مسعاه، وصدقه الناس «فانقاد له كل صعب القياد، عجبوا من حاله وحفظه القرآن»^(٢).

وتخبرنا المصادر كذلك أنه أوهم العامة بوجود بئر تنبعث منه أصوات ملائكة شهدت بصدق «معجزة» الوشرسي^(٣). ولما قتل هذا الأخير في إحدى المعارك مع المرابطين، دفنه الخليفة عبد المومن بن علي سراً، وزعم أن الملائكة رفعت، فانطلقت حيلته عليهم^(٤). ناهيك عن تمويتها أخرى تنهض كلها دليلاً على سذاجة الرعايا وخصوصاً سكان الجبال^(٥). ولعل من الأمثلة الصارخة على سذاجتهم، اعتقادهم بأن ابن تومرت إمام لا يأكل ولا يشرب^(٦)!

ومن مظاهر سرعة تصديق العامة للخرافات تقبلهم الشائعات، كحقيقة غير قابلة للجدل. ففي سنة ٥١٠ هـ حسبما يذكر ابن عذاري «أرجف العوام بأنه سيكون في شهر رمضان خطب عظيم وحادث كبير، وقطع على الدولة شديد، وأن السلطان سيموت فيه»^(٧). إذا ربطنا هذا النص بالواقع السياسي والاقتصادي، تبين العلاقة الحميمة بينهما. ففي ظل دولة المغازي التي اعتمدت على أسلوب الاستبداد كما فصلنا ذلك في الفصول السابقة، تبرز الإشاعة كمحاولة للانعتاق من ربطة السلطة. كما أن هذه السنة نفسها، تمثل بداية التراجع الاقتصادي في شتى مجالاته. فذيعوع الإشاعات إذن لا يخلو من مغزى دفين، فهي إعراب عن موقف فئة مقهورة ترغب في الخلاص، عن طريق مزج الواقع بالخيال، والتحريض المسترلناهضة الوضع القائم.

وليس غريباً أن تنتشر في وسط مجتمع ذي بنية ثقافية غيبية مثل المجتمع المرابطي المزاعم الشعبية superstitions كالاتقاد في أرواح الجن. فقد جاء في إحدى النوازل المعاصرة مسألة رجل «عنده كتب بها جلب الجن وأموالهم والعفاريات، ويعزم فيصرع المصروع»^(٨). لذلك لا عجب أن تتردد في أمثال العامة مثل هذه الخرافات^(٩). بل إن الأمير عبد الله الذي نفاه يوسف بن تاشفين إلى أغمات

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام (ط ٥) بيروت ١٩٦٩ ج ٣ ص ٦٨.

(٢) ابن خلكان: م.س. ج ٥ ص ٤٨، ٥٢.

(٣) التويري: م.س. ج ٢٤ ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٨.

(٥) مؤلف مجهول: نبذة من تاريخ المغرب الأقصى (مخ) ص ٢١٨، ويذكر أنه أخذ قوماً من أتباعه فدفنهم أحياء، وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره وقال لهم إذا سئلتهم فقولوا وجدنا ما وعدنا ربنا من مضاعفات الثواب على جهاد الموتى، لكنه كان بعد ذلك يرد عليهم تراب القبر حتى يموتوا اختناقاً. ويذكر عبد الودود بن عمر هذه الرواية أيضاً، ويضيف إليها رواية أخرى مؤداها أن ابن تومرت صنع شجرة مجيلة وحركة مجوفة من النحاس وهي شجرة هائلة عظيمة على أغصانها طيور مصورة بهندسة وحركة تحته أن حركها ودسها خفية تكلمت الطيور على الأغصان. وانظر: فرقة الأخيار المرضيين... (مخ) ص ١٤٤ - ١٤٦.

(٦) البليدي: م.س. ص ٢٣.

(٧) البيان المغرب... م.س. ج ٤ ص ٦٢.

(٨) البرزلي: م.س. ص ٤٠.

(٩) قالت أمثالهم: «جن رجا، أسود مغبر». انظر: الزجالي: م.س. ج ١ ص ٢٦٢ مثل رقم ٣٦٥.

أشار في مذكراته إلى مسألة الجن^(١) وفي كثير من تراجم ابن الزيات^(٢) ما يكشف عن اعتقاد الرعية بوجودهم داخل المنازل نفسها.

ومن المزايم الشعبية كذلك اعتقاد الأندلسيين في شجرة أدعوا أن أوراقها وثمارها تنمو في يوم واحد^(٣). ولا يخفى ما للشجرة من أهمية في الفلاحة. كما اعتقدوا في سارية زعموا أنهم إذا رغبوا في المطر أقاموها فتنمطر جهتهم^(٤)، وهو معتقد لا يمكن فصله عن هاجس الجفاف الذي ظل يهيم على فكر كل الرعايا. كما ساد الاعتقاد لديهم بأن صنم قادس يمنع الريح من الهبوب في البحر المحيط^(٥)، وأن الطلسم الموجود بها، مملوء بالأموال. غير أن ظنهم خاب تماماً عندما هدموه سنة ٥٤٠ هـ فلم يجدوا به درهماً^(٦). ومهما كان وزن الخرافة في هذا المعتقد، فإنه ظل مرتبطاً بهذا الحافز المادي المتمثل في الأموال التي ظنوا أنها توجد بداخله.

كما انتشرت في أوساطهم بعض العادات المعبرة عن التفاؤل أو التطير، نذكر منها على سبيل المثال كسر قدح أو «زلاقة» مرة كل سنة على سبيل التفاؤل، وهي عادة ظلت سائدة في بعض جهات المغرب إلى وقت قريب^(٧).

ولا سبيل إلى الشك في أن مثل هذه الظواهر عبرت عن عجز الإنسان في معاركة ظروفه الاجتماعية والاقتصادية المحيطة به. غير أنها استندت إلى سلطان الدين لتكسب مشروعيتها، وتحظى بتأييد الجمهور، أو تتحقق حتماً بفضل الوظيفة النفسية التي يلعبها الدين. وحسبنا دليلاً على ذلك ما ذكره أحد المؤرخين عن رجل من قرطبة ظل يعاني من مرض مزمن. ولما ينس من العلاج كتب رسالة إلى قبر الرسول عليه السلام «فبريء من زمانته»^(٨).

وبناء على هذه الوظيفة النفسية، انتشرت ظاهرة التبرك بالصالحاء والأولياء^(٩)، إما رجاء في الاستشفاء، أو لقضاء أغراض دنيوية^(١٠). وظل التبرك بقبورهم والتماس الدعاء منهم مسألة شائعة^(١١). وحسبنا أن قبر عبد الله بن ياسين ظل مزاراً لفئة عريضة من الناس^(١٢).

(١) انظر: كتاب التبيين... ص ١٩٢.

(٢) انظر: كتاب التشوف... ص ١٩٩ ترجمة أبو عبد الله عثمان بن عبد الله السلاحي، ص ٢٢٢ ترجمة أبو محمد عبد الخالق بن ياسين الدغوي، ص ٢٧٥ ترجمة أبو عبد الله محمد الصباغ.

(٣) المقرئ: نفح الطيب... م.س. ج ٢ ص ٧٢.

(٤) المصدر نفسه ص ٧٤.

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها. صنم قادس: هو مجرد أسطورة بدأت تظهر في المصادر العربية عند ذكر فتح الأندلس.

(٦) ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص ٢٩٠ - ٢٩١.

(٧) قالت العامة: «أكسر قدح، يكون أملي». مثل رقم ٤٢٥. وانظر تعليق المحقق، الزجالي: م.س. ج ٢ ص ٩٦.

(٨) المقرئ: أزهار الرياض... ج ٤ ص ٢٩ - ٣١.

(٩) جعلت العامة من ابن تومرت رجلاً صالحاً فهرعت إليه للتبرك به. انظر: البيدق: كتاب الانساب في معرفة الأصحاب ص ٤٢ - الذمعي ج ٤ ص ٦٠.

(١٠) ابن الزيات: م.س. ص ٢٠٨.

(١١) المصدر نفسه ص ٩٤ ترجمة امرأة مجهولة، ص ٢٠٨ ترجمة أبو سهل القريشي: انظر كذلك: ابن عبد الملك: الخليل والتكملة... ج ٥ ق ١ ص ٢٩٨.

(١٢) البكري: م.س. ص ١٦٨.

وانتشرت هذه العادة بين النساء على الخصوص حتى أن ابن عديون^(١) طالب أن تغلف الكوى المصنوعة من القصاب، وكذا الغرف والأبواب المطلّة على جهة المقابر حتى لا تكشف النساء اللاتي جئن بكثرة للتبرك بقبور الصالحين.

ومن البديهي أن يقف الفقهاء موقفاً معارضاً من عادة التبرك بقبور الأولياء. فقد أكد الفقيه أبو بكر بن العربي «أنه لا يزار قبر لينتفع به غير قبر النبي»^(٢). ومنع ابن الحاج وهو معاصر كذلك للمرابطين تقبيل القبر، معتبراً ذلك بدعة^(٣).

إلى جانب المعتقدات الأنفة الذكر، شاعت في المغرب والاندلس ظاهرة السحر. والواقع أن هذه الظاهرة لم تكن سوى تعبير مقنّع ومضمر، يعبر عن خفايا المجتمع، ويشكل القطاع المكبوت في الفكر والسلوك، ويحاول طرح «بديل» ضروري للمحافظة على التوازن الاقتصادي، والاستقرار مع الحقل الاجتماعي.

وقد فطن ابن خلدون إلى هذه الحقيقة حين ربط السحر والأشعوذة بالعجز عن المعاش الطبيعي فذكر أن «الذي يحمل ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل، إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة»^(٤). كما أفاض في الحديث عن السحر، فقسم النفوس الساحرة إلى ثلاثة مراتب^(٥).

وقبل الاستطراد في ذكر مظاهر السحر التي انتشرت في الحقبة المرابطية، من المفيد الإشارة إلى أن الظاهرة نفسها سادت في المشرق الإسلامي في الفترة ذاتها، مما يؤكد مقولة سيولة التاريخ الإسلامي. ولا غرو فقد ظهر سنة ٤٩٩ هـ بنهاوند رجل ادعى السحر والنجوم فتبعه خلق كثير^(٦). وفي سنة ٥٠١ هـ، ظهرت ببغداد صبية عمياء تتكلم عن أسرار الناس^(٧).

وفي الاندلس أشارت أمثال العوام إلى المشتغلين بالسحر والتنجيم^(٨)، والحروز والتعاويذ^(٩). ويتضمن مخطوط ریحان الألباب رسالة كتبها أبو بكر بن عبد العزيز إلى أبي عبد الله بن أبي الخصال حول رجل يدعي السحر ومعرفة الغيب، ويستعمل في ذلك النار والتعاويذ^(١٠).

وعرفت زينب النفزاوية باسم «الساحرة»، وهو مصطلح يحمل معنيين: إما أنها سميت كذلك لجمالها وفطنتها، أو بسبب ممارستها للسحر وهو الأرجح، لأن بعض الأميرات المرابطيات لم يكن

(١) رسالة في الحسبة م.س. ص ٢٧.

(٢) الزياتي: م.س. ص ١٧.

(٣) انظر: الوشيري: م.س. ج ٢ ص ٤٩٠.

(٤) المقدمة ج ٣ ص ٩٠٢.

(٥) المصدر نفسه ص ١١١٣ - ١١١٥.

(٦) ابن تفرج بردي: النجوم الزاهرة.. ج ٥ ص ١٩٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

(٨) قالوا: «ضاربة الخفيف: المفرغ والتكثيف». مثل رقم ١٦٣٢، انظر الزجالي: م.س. ج ١ ص ٢٦٣.

(٩) قالوا: «حروز خطاب». مثل رقم ٨٤٢. وقالوا أيضاً: «حزب أبي دجاجة». مثل رقم ٨٤٤ انظر: المصدر نفسه والصنعة نفسها.

(١٠) المواعيني: ریحان الألباب... (مخ) ص ٩٢ - ٩٣ - ٩٤.

أقل منها جمالاً وفطنة، ومع ذلك لم يلقين بهذا الاسم^(١). ومما يعزز هذا الظن رواية تذكر أنها ادخلت يوسف بن تاشفين إلى كهف مظلم لإمداده بالأموال والكنوز، لذلك لم يكن غريباً أن يصفها أبي عذاري بقوله: «وكان لها أخبار مستطرفة غريبة كمثل أخبار الكهنة، فبعض يقول أن الجن يكلمها وبعض يقولون هي ساحرة»^(٢).

ونظراً لاعتقاد الناس بالسحر، وما يجلب من شر وعواقب وخيمة، فإنهم فكروا في طريقة لإبعاد تأثيره، فخيل إليهم أن أكل الفجل المزوج بالعسل يعمل على دفعه وإبطاله^(٣).

واشتهرت منطقة غمارة على الخصوص بممارسة السحر والشعوذة، فعلى الرغم من مرور قرن على حركة حاميم وأخته وعمته الساحرتين، فإن أثره استمر في القرن اللاحق إذ خلفه ابنه في مزاوله هذا العمل. دليلنا في هذا الاستنتاج ما ذكر عنه أحد المؤرخين حين قال: «وكان لابنه عيسى من بعده قدر جليل في غمارة»^(٤)، فضلاً عن إشارته إلى استمرار السحر في غمارة إلى عصره.

ومن السحرة الذين طار ذكرهم في هذه المنطقة رجل يدعى أبو كسية كان يقيم بجبال مكسة، وله نفوذ واسع على الناس حيث لم يكن أحد يجزؤ على مخالفته. وكل من عصاه أو خالفه عاقبه بقلب كسانه الذي كان يلتحف به نحو وجهه «فتصيبه صائبة في ماله أو بدنه»^(٥). وفي العبارة الأخيرة ما ينهض حجة على ارتباط السحر بالواقع المادي، إذ هدد الساحر بتشتيت أموال كل من عصاه. ويحتمل أن تكون هذه الطريقة قد عرفت لدى بعض السحرة الصقالبة كما يميل إلى ذلك أحد الباحثين^(٦) دون برهان قاطع.

والراجع أن نفوذ هذا الساحر استمر طيلة العصرين المرابطي والموحدي بدليل قول صاحب الاستبصار وهو معاصر للموحدين بأن «لبنيه اليوم وعقبه في تلك الناحية - غمارة - مزية وحظوظ على من سواهم»^(٧).

ومن جملة الممارسات الغريبة القريبة من السحر والشعوذة ما عرف في المصادر باسم «الرقادة»، وهو مصطلح يشير إلى حالة نفسية تعتري الإنسان بسبب غيبوبة طويلة ينسلخ فيها عن الوجود مدة ثلاثة أيام عن طريق النوم العميق. وبعد اليقظة يصير المغشى عليه يتكلم بنوع من الهذيان «فإذا صحا في اليوم الموالي أتى بعجائب مما يكون في ذلك العام من خصب أو جذب أو حرب»^(٨) وتحمل هذه الرواية مغزى عميقاً يعكس كذلك ارتباط السحر بالظواهر الاقتصادية كالخصوبة والجفاف، وهي القضايا التي شكلت الهاجس الأساسي لسكان غمارة. فالشعوذة في نهاية

(١) ابن الأبار: التكملة (تحقيق كوديرا) ترجمة رقم ٢٨٧٥.

(٢) ابن عذاري: م.س. ج ٤ ص ١٨.

(٣) ابن خير: كتاب في الفلاحة ص ١٩٠.

(٤) ابن خلدون: كتاب العبر.. ج ٦ ص ٢٨٨.

(٥) البكري: م.س. ص ١٠١ - مؤلف مجهول: الاستبصار.. ص ١٩٢.

(٦) Lewicki: Profètes, devins et magiciens chez les Berbères medievax. Folio Orientalia T.VII 1965

p.23.

(٩) مؤلف مجهول: م.س. ص ٩٩٢.

(٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها - البكري: م.س. ص ١٠١.

التحليل، قراءة لأحداث المستقبل الاقتصادي، وما يرجى من ورائه.

وينفرد البكري^(١) بإبراز صورة أخرى من المظاهر السحرية التي شهدتها مدينة باديس إذ ينقل لنا رواية شفوية مفادها أنه كان بمرسى هذه المدينة رجل قصير القامة، مصفر اللون، يستنبط المياه على شكل عيون وأبار من المناطق الجافة التي يندم فيها الماء. وكانت له القدرة على معرفة قرب المياه أو بعدها عن طريق استنشاق هواء الموضع الموجود فيه. ولا يخفى ما للماء من أهمية قصوى في منطقة غمارة التي تعتمد على الرعي والكلأ لتربية المواشي، ومن ثم لا نجاري لويكي^(٢) الذي أرجع هذه العادة إلى أصول يهودية.

ويطالعنا جفراي آخر بخبر لا يخلو من مظاهر سحرية يذكر فيه أن صومعة الجامع الموجود في قسبة مراكش كانت تعلوها تفاحات من ذهب، حاول بعض السلاطين المتعاقبين على حكم المغرب إزالتها لحاجتهم إلى المال. لكن كانت تحدث لهم كل مرة حادثة غريبة تجبرهم على تركها، حتى شاع لدى العامة أن «من ركز تلك التفاحات قرأ عليها عزائم سحرية ألزمت بعض الأرواح برصدها على الدوام»^(٣).

علاوة على انتشار السحر في الأوساط الاجتماعية، شاعت أيضاً الكهانة والعرافة والتنجيم، وقد عرّف ابن خلدون^(٤) الكهانة بأنها من خواص النفس الإنسانية التي تحصل عن طريق الإنسلاخ من عالم البشرية إلى الملكة بالفطرة في لحظة أقرب إلى لمح البصر. بينما أكد أن العرافين يأخذون بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه ويدعون معرفة الغيب «وليس منه على الحقيقة»^(٥).

ومن القرائن التي تدل على ذبوع الكهانة في العصر المرابطي أن الأمير إسحاق بن علي بن يوسف كان على دراية كبيرة بعلم الحدثن حتى شاع خبره بين الناس، مما جعل الأمير علي بن يوسف يختبر أحواله عن كتب حتى تحقق من صحة تنبؤاته^(٦).

ومنذ اللحظة الأولى، أحاطت الدولة المرابطية نفسها بالمنجمين والكهنة. فعندما شرع يوسف بن تاشفين في بناء مراكش، أخبره المنجمون أنه سيخوض معارك كثيرة، فاستعان ببعض السحرة لوضع العراقيل التي تحول دون معرفة العدو مصادر الماء المجلوب للمدينة، تجنباً لقطعه عنها^(٧).

وفي عهد علي بن يوسف، كان الوزير مالك بن وهيب على رأس المنجمين والحزائين. وحسبنا أنه أول من دق ناقوس خطر بن تومرت وتنبأ بنهاية دولة المرابطين على يديه^(٨). كما أحاط يحيى بن

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٠٢.

(٢) Lewicki, op. cit., p. 25.

(٣) الرزان: وصف إفريقيا ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) المقدمة ج ١ ص ٣٦١.

(٥) المصدر نفسه ص ٣٧٣.

(٦) ابن عفاوي: م.س. ص ١٠١.

(٧) الرزان: م.س. ص ١٠٨.

(٨) الزركشي: تاريخ الدولتين... ص ٣ - الناصري: الاستقصاء... ج ٢ ص ٨٦. الحزائين: مفرد ما حازي، وهو الذي

يحاول معرفة الغيب ويتكهن.

تعيم نفسه بمجموعة من المنجمين^(١)، بل كان هو نفسه «عالماً بالنجوم واحكامها»^(٢).

وقبيل سقوط الدولة المرابطية، تحدث الكهان عن تحول وشيك الوقوع، وإن شكل السكة سيتغير من الشكل المستدير (عملة المرابطين) إلى المربع (عملة الموحدين)، عندما يقع اقتران الكوكبين العلويين^(٣). ونعت مالك بن وهيب المذكور ابن تومرت بأنه صاحب هذا القرآن^(٤).

وتمدنا المصادر ببعض النصوص التي تشير إلى تحقق أقوال الكهنة والمنجمين. فبعد أن استولى الموحدون على مالقة، نبشوا لحد القاضي ابن حمدين وصلبوه. وكان الكهان قد تنبؤوا منذ ولادته بأنه سيصلب «فصدقته الأيام»^(٥). كذا الحال بالنسبة لوالدة أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت التي توفيت فجأة «وكان بعض المنجمين قد حكم بذلك في مولدها واتفقت الأصابة»^(٦).

فضلاً عن ذلك، يزودنا ابن الخطيب^(٧) بصورة وافية عن أحد العرافين من خلال رسالة وردت في ترجمة محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن أبي الخصال. ومنها نستشف أنه كان يلبس عمامة وسبحة، ويغوص في أنواع من علوم التنجيم والحساب والناس يزدهمون عليه، وهو يخاطبهم بصوت مرتفع، ويذكر أسماء النجوم كزحل وغيرها للكشف عن الغيب.

على أن أهم طرق التنبؤ بالغيب التي شاعت في الحقبة المرابطية تتجلى في خط الرمل^(٨) الذي ورد ذكره في نوازل ابن رشد^(٩). وتميط فتوى هذا الفقيه اللثام عن الارتباط الواضح بين سيادة هذه الظاهرة الغيبية والأوضاع الاقتصادية، إذ جاء فيها أن «معرفة ما يستتر للناس به من أسرارهم، وما ينطوون عليه من أخبارهم، وما يحدثه الله من غلاء الأسعار ورخصها، ونزول المطر، ووقوع القتل وحلول الفتن وارتفاعها وغير ذلك من الغيبات إبطال لدلائل النبوات وتكذيب للآيات المنزلات، لذلك اعتبرها من «حيائل الشيطان». ومع ذلك فإن خط الرمل كما يتضح من نص ابن رشد نفسه ارتبط بمعرفة غلاء الأسعار أو رخصها، أو بالمجاعات والجفاف وما ينجم عن ذلك من فتن، وهي قضايا وظواهر برزت في أواخر العصر المرابطي مما يعكس ارتباط الفكر الغيبي بالآزمة.

(١) ابن خلكان: م.س. ج ٦ ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٢) ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار الأريقية وقونس ص ٨٨.

(٣) القلشندي: ج ٥ ص ١٩١ - ابن خلدون: العبر... ج ٦ ص ٣٠٢ - الناصري: المصدر نفسه والصفحة السابقة نفسها، عباس بن إبراهيم: الإعلام ج ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٥. Lewicki, op. cit., p. 17.

(٤) ابن خلدون: م.س. ص ٣٠٤.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الإعلام - تحقيق بروفنسال ص ٢٥٤.

(٦) الأصفهاني: م.س. ق ٤ ج ١ ص ٣٤٠.

(٧) الإحاطة... ج ٢ ص ٤٠٤ ويذكر بعض ما كان يقوله هذا المشعوذ أمام جمهور الناس المزدحمين عليه: «إننا استدركت بالأنبار فرحة الإقبال وترحة الإديار، وطالعت أقليدس فاستنيطته، وصارعت المجسطي فجسطته وارتمطت إلى الأريتماطيقي وأطلقت الأوليطيقي... وعابدت زحل حين استقر على بعيره...».

(٨) عن خط الرمل وكيفية ضربه انظر: ابن خلدون: م.س. ج ١ ص ٣٧٩ - ٣٨٠.

(٩) نوازل ابن رشد ص ٣٦١ - البرزلي: م.س. ص ٢٥١ وقد نقل عنه هذه الفتوى.

ويغلب على الظن ان هذه الظاهرة انتشرت في جنوب المغرب الاقصى حيث اشتهرت بها قبيلة ازقار^(١). ويذكر الادريسي^(٢) ان رجلاً من سجماسة خبئ له بعض الاشياء، فاستطاع بخط الرمل ان يعرف مكانها، واعيدت عليه التجربة ثانية وثالثة فنجح في العثور عليها.

وقد برع فيها كذلك ابن تومرت حتى وصف بأنه «أوجد عصره في خط الرمل»^(٣) وقد عزا المؤرخون ذلك إلى اطلاعه على كتاب الجفر^(٤) إبان تواجده بالشرق^(٥)، ووقوفه على ما تضمنته حروفه ومعانيه من رموز^(٦). وحسبنا انه استطاع من خلاله ان يتنبأ بأنه الرجل الذي سيطيح بدولة المرابطين^(٧)، وإن عبد المومن بن علي سيكون صاحب السلطة والملك في المغرب^(٨).

بموازاة مع خط الرمل، سادت أيضاً طريقة أخرى من طرق «الحظ» وهي ما يعرف بالقرعة. وقد امدنا البكري^(٩) ببعض المعلومات حولها، فذكر انه كلما وصل تاجر من التجار الغرباء كان اهل مليلة يضربون القرعة فيما بينهم لمعرفة الرجل الذي يسهر على التاجر الغريب، ويعتني به وبعملياته التجارية، مقابل هدية يقدمها له التاجر. لكنه لم يعط كثيراً من التفاصيل للوقوف بدقة على هذه الطريقة. كما ان الحميري^(١٠) الذي نقل عنه لم يضيف جديداً للموضوع. إلا ان ارتباط هذه الظاهرة الغيبية بالتجارة يحمل أكثر من مغزى.

ويفصح أحد الجغرافيين عن طريقة أخرى للتكهن ومعرفة الغيب، وهي طريقة تمكن من اكتشاف السارق وإجباره على إرجاع ما سرقه^(١١).

ويخبرنا البكري^(١٢) ان رجلاً من بني شداد في بلاد غمارة كان يحمل عدلاً مملوءة بجماجم وأنياب الحيوانات البرية والبحرية، ويجعلها في حبل على شكل سبحة، فيتقاطر عليه الناس لاستفساره حول ما سيحدث لهم. فيعلق الرجل الحبل على من استفسره ويحرك الجماجم، ثم ينزعها ويشمها قطعة قطعة إلى أن تمسك يده واحدة منها، فينبئه بكل ما سيحدثه من مرض أو موت أو ربح أو خسران.

(١) Lewicki, op. cit. p.15. ويذكر ان هذه القبيلة تمثل اجداد الطوارق الحاليين.

(٢) وصف إفريقيا الشمالية ص ٣٦ - ٣٧.

(٣) المراكشي: المعجب... ص ٢٦٥ - الذهبي: العبر في تاريخ من غير ج ٤ ص ٦٠ - ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٧١.

(٤) سمي كتاب الجفر نسبة إلى جلد الثور الذي كتب عليه وهو يتضمن تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني المروية عن جعفر الصادق. انظر التفاصيل: ابن خلدون: م.س. ج ٢ ص ٧٦٦ - ٧٦٧.

(٥) المازني: نظم السلوك... ص ٥٣. ويقول في ارجوزته بصدد كتاب الجفر الذي حصل عليه ابن تومرت:

وقد حاز كتاب الجفر من الفقيه ذي العلوم الجبر

(٦) ابن خلكان: م.س. ج ٥ ص ٤٧، ٤٨.

(٧) المصدر نفسه ص ٤٨ - السبكي: طبقات الشافعية ج ٤ ص ٧١.

(٨) ابن تغري بردي: م.س. ج ٥ ص ٣٦٢.

(٩) المغرب ص ٨٨.

(١٠) الروض المعطل... ص ٥٥٤.

(١١) الادريسي: ص ٣٦ - ٣٧. Lewicki, op. cit., p.22.

(١٢) المغرب ص ١٠١.

لاحظ - بحق - انها تنتشر في المناطق القاصية كالسوس.

وبالمثل ساد الاعتقاد في الرضى والأحلام، إذ أن بعض الرعايا كانوا يصدقونها، ويعتبرونها حقيقة واقعية. ذكر ابن الزيات^(١) أن رجلاً شاهد في المنام شخصين يحفران قبره، وفي الصباح اشترى كفنًا وأخذ يستعد للموت. ويذكر كتاب التشوف بنماذج كثيرة حول الشرائع الاجتماعية التي مالت إلى تصديق الأحلام، خاصة في الأوساط ذات المنحى الزهدي.

يتضح مما سبق أن الحياة الاجتماعية في المغرب والاندلس، تميزت بطغيان جملة من المعتقدات الغيبية والظواهر الخطيرة كالسحر والكهانة وانتحال النبوة، وسرعة تصديق المزاعم الغيبية الأخرى.

ثامناً: القيم الاجتماعية السائدة

نقصد بالقيم الاجتماعية بعض أشكال السلوك والقواعد الأخلاقية التي وجهت مشاعر الناس وتصرفاتهم واختياراتهم، وحددت مواقفهم من بعض الأمور الحياتية، وتنظمت علاقتهم بالواقع وبالأخرين. ولا سبيل إلى الشك في أن البيئة حددت مجموعة من القيم، كما أن الوضع الاقتصادي سقلها، وأعطاهما وجهها الحقيقي.

ويمكن التمييز بين بعض القيم السائدة في البادية كقيم الشجاعة والفروسية وكرم الضيافة، والخذل بالثار والبساطة والفترة والخشونة والصبر والحياء والحشمة، والتمسك بالروح الجماعية، ثم القيم السائدة في الحواضر والمتمثلة في الجري وراء الربح والكسب المادي وطغيان النزعة الفردية والانتهازية، دون إغفال سيادة بعض القيم البدوية داخل الحواضر نفسها، لكن بشكل شاحب.

فمن أهم القيم السائدة في بوادي المغرب والاندلس كرم الضيافة. وحسبنا دليلاً على ذلك شيوع مبدأ إكرام الضيف ثلاثة أيام^(٢). وقد اعتبر الحضرمي أن «الجود سائر العيوب، غارس المحبة في القلوب»^(٣). وتبرز عادة الكرم خصوصاً في بعض الحالات الخاصة كحالة المملقين الذين يضطرون إلى بيع اثاثهم المنزلي، أو رهن بعض الأشياء من أجل إطعام الضيف. ذكر ابن الزيات^(٤) أن رجلاً باع سريره وأنفقه على ضيوفه، وأن آخر رهن غزل امرأته في سمن يأتدّم به ضيفه^(٥). كما أن بعضهم اشترى أضحية ثم تصدق بها رغم فقره^(٦).

أما بالنسبة للطبقة الموسرة في البوادي فتكثر أخبار بعض المحسنين الذين وهبوا أموالهم

(١) التشوف... ص ١٦٦ ترجمة ٤٨.

(٢) عياض: مسائل الشيخ عياض (مخ) ص ٢١٢ - ابن عربي: الفتوحات المكية ج ١ ص ٦٦٥.

(٣) كتاب الإشارة... ص ١٤٤.

(٤) التشوف... ص ٢٢٧. ترجمة أبو عمران موسى بن الحاج الرجراجي الأسود.

(٥) المصدر نفسه ص ١١٧. ترجمة أبو عبد الله محمد بن محمد الهواري.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٧٤. ترجمة أبو عبد الله التاودي - التميمي: م.س. ص ٢٧ - ابن عبد الملك: م.س. ج ٦

ص ٢٨٥ - الإدريسي: م.س. ص ٢٦٦ (تحقيق حاج صادق) - ابن بشكوال: م.س. ج ١ ص ٤١، ترجمة ٧١.

وثمة طريقة أخرى استعملت للتكهن بأحداث المستقبل، وهي ما يعرف بالزائرجة التي يكشف ابن خلدون^(١) عن كيفية استعمالها، ناسباً إياها إلى المتصوف أبي العباس السبتي. وهي عبارة عن قصيدة تتألف من عدة أبيات نسب أحدها لملك بن وهيب «وهو البيت المتبادل عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزائرجة وغيرها»^(٢).

كما عرفت المرحلة الأولى من بداية الدولة المرابطية ما يعرف باللاحم، وهي أيضاً عبارة عن قصائد شعرية أو نثرية تكتب في حدثان الدول وما يتوقع من تحولات. وفي هذا الصدد اشتهرت ملحمة ابن مرانة التي تنبأ فيها باستيلاء المرابطين على سبتة وضمهم الأندلس^(٣).

وشاعت كذلك طريقة أخرى لمعرفة الغيب، وتتجلى في إمعان النظر في كثف الشاة وقراءة ما فيها من رموز، وهي طريقة برع فيها ابن تومرت كذلك^(٤).

كما وجدت لدى قبائل بني ورسيفان معتقدات غريبة تصب في هذا الاتجاه، ويتمثل أحدها في أنهم إذا أرادوا مباشرة الحرب، تقربوا بذبح بقرة سوداء للشماريخ التي تعني عندهم الشياطين، فإذا صاروا للقتال، توقفوا حتى يروا زوابع الريح، فيعتقدون أن الشماريخ جاءت لنصرتهم فينتصرون بزعمهم^(٥).

ورغم تبني الدولة المرابطية للمنجمين والكهنة، فقد اعتبرت بعضهم زنادقة^(٦).

ومما يسترعي الانتباه أن الحقبة المرابطية عرفت كذلك بعض الأشخاص الذين انتحلوا النبوة. وفي هذا الصدد يخبرنا ابن عذاري^(٧) أن رجلاً بنواحي سبتة ادعى أنه الخضر سنة ٥٢٠ هـ، وتبعه خلق كثير اعتقاداً منهم أن الخضر لا زال على قيد الحياة، لكن السلطة المرابطية تمكنت من إلقاء القبض عليه وصلبه في مراكش والتنكيل بأنصاره.

ونعلم من خلال بعض النصوص أن أثر نبوة حاميم في القرن الرابع الهجري استمر في القرون اللاحقة إذ صار ابنه عيسى من مهرة السحرة والمتحليين للنبوة، ولو أنه لم يصل إلى المستوى الذي وصل إليه أبوه، والشئ نفسه يقال عن جميل بن عاصم اليزدجومي^(٨).

ومن الأكيد كذلك، أن المهدوية ذات النزعة الشيعية ظهرت في هذه الحقبة ضمن المعتقدات الشعبية في المغرب والأندلس. ويرجع الفضل إلى ابن تومرت وابن قسي في الترويج لها في أواخر العصر المرابطي. وقد أكد ابن خلدون^(٩) أن العامة أكثر الشرائع الاجتماعية تقبلاً لفكرة المهدوية كما

(١) المقدمة ج ١ ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٧ وهذا نص البيت:

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الحد مثلاً

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٧٢.

(٤) ابن حجر التميمي: منتهى الإعلام بوفاة الصحابة وملوك الإسلام (مخ) ص ٤٧٠.

(٥) البكري: م.س. ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٦) ابن بلكين: م.س. ص ١٩٠.

(٧) البيان المغرب ج ٤ ص ٧٤ - ٧٥.

(٨) ابن خلدون: العبر... ج ٦ ص ٢٨٨.

(٩) المقدمة ج ٢ ص ٧٥٦.

للفقراء^(١)، أو خلفوا وصايا للتصدق بأموالهم على الضعفاء والمحتاجين^(٢).

وعلى الرغم من وجود قيم الكرم بالمدينة أحياناً، فإنها عمت البوادي بنسبة أكبر، وهي مسألة لا يمكن تفسيرها إلا بالظروف المعيشية داخل البادية، إذ هي ظروف غير مأمونة بسبب الكوارث والمجاعات والعزلة وانعدام ظروف الأمن، لذلك يرغب البدوي أن يجد الكرم أينما حل وارتحل. فالكرم الذي ساد في البوادي المغربية والأندلسية هو في نهاية التحليل حماية من الضياع، ونوع من التعاون المتبادل بين أهل البادية.

وبالمثل، سادت قيم الشجاعة والفروسية والبسالة والاعتزاز بالسلاح والخيول والرجولة والكبرياء. وقد اعتبر الحضرمي^(٣)، الشجاعة «من محاسن الأخلاق وغرائز الكرام»، وفضلها على الدهاء والحيلة. ووصف الزناتيون بالفروسية «والإبابة عن الانقياد»^(٤). كما نعت ابن حوقل قبيلة مسوفة بأن «فيهم البسالة والجرأة والفروسية»^(٥).

ولا يخامرنا شك في أن لقيم الفروسية علاقة بتطويع ظروف المعيشة وتأمينها^(٦). كما كان لها أثر بعيد الغور لا في حروب العصبية فحسب، بل في انتصار العصبية اللمتونية، وتوحيد محطات تجارة العبور وتأسيس الدولة المرابطة.

وارتبطت بهذه القيم كذلك عادة الثار التي مارسها الأفراد والجماعات، فبين أهل تارودانت وأهل تيويوين «القتال والفنعة وسفك الدماء وطلب الثار» كما لاحظ ذلك الإدريسي^(٧). ولم يخرج أبو بكر بن عمر عن هذه المنظومة العامة، فرجوعه إلى الصحراء وترك ابن عمه على رأس الجيوش المرابطة في المغرب لم يكن إلا بهدف الأخذ بالثار ممن اعتدوا على قبيلته وحرموها من ارتياد الطريق التجاري الصحراوي^(٨). النغمة نفسها نلمسها في رسالة كتبها ابن أبي الخصال عن صديق له يخاطب شيخاً قتل ولياً من أوليائه ويحضه على طلب الثار^(٩).

فارتباط عادة الثار بالبادية يفسر بانعدام سلطة تنصف المظلوم، وسيادة أعراف تركز هذا الاتجاه. أما في المدينة فتقل نزعة الثار لوجود مؤسسات قضائية.

إلى جانب ذلك، سادت قيم اجتماعية أخرى كالخوف من العار^(١٠)، والحياء والحشمة. فقد

(١) ابن الزيات: م.س. ص ٢٨٩. ترجمة أبو عمران موسى الصاربي - ابن الأبار: التكملة... ج ١ ص ٤٢٩ ترجمة محمد بن رزق، وكذلك ج ٢ ص ٩٣٦ ترجمة محمد عبد الله بن مسعود، انظر أيضاً: الشراط: م.س. ورقة ١١٥.

(٢) ابن رشد: م.س. ص ٢٧٢، ٢٨٠، ٢٧٦ - الجزيرة: المقصد المحمود... ص ١٤٧.

(٣) كتب الإشارة ص ١٤٧.

(٤) ابن خلدون: العبر... ج ٧ (ط ١٩٦٩) ص ٢٤.

(٥) صورة الأرض ص ٩٨.

(٦) هذا ما جعل ابن خلدون يقول عن البدو بأن «رزقهم في ظلال رملهم»، انظر المقدمة: ج ٢ ص ٤٥٤.

(٧) وصف إفريقيا الشمالية ص ٦٢.

(٨) ابن عذاري: م.س. ص ٢٠.

(٩) انظر: رسائل ابن أبي الخصال، لوحة ٦١.

(١٠) انظر ما ذكره ابن الخطيب حول أحد المرابطين الذي فجر بلاده بسبب قلعة لسان صدرت منه في حق امرأة

مرابطة متزوجة: الإحاطة... ج ١ ص ٤١٢.

عرف يوسف بن تاشفين بكثرة حياته، وهو ما جعل البعض يفسر ظاهرة اللثام لدى المرابطين بكثرة حياتهم كما اسلفنا القول^(١). والبدو عموماً مجبولون على الحشمة. ولما كانوا شديدي الحفاظ على تقاليدهم فقد لازمهم الحياء حتى بعد تحضرهم.

كما ظهرت في الحقبة المرابطية أصوات نادت بالزهد والقناعة والتقشف في العيش^(٢)، ويمثل المتصوف هذا الاتجاه^(٣). وفي الوقت نفسه برزت قيم التسامح^(٤)، وعلو الهمة^(٥) والانفة والابتعاد عن الذل^(٦). فضلاً عن القيم كإجارة اللاجئين للقبيلة، والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكارد والثبات في الشدائد^(٧)، وبر الكبير وتقدير الأولياء^(٨) وبيع النفوس من أجل نصرة الدين كما لاحظ ذلك ابن حوقل^(٩) بخصوص بربر المغرب الأقصى.

مقابل ذلك سادت في الوسط الحضري، وعلى الخصوص في أوساط الخاصة والوجهاء قيم مغايرة أساسها التهاوت على تكديس الأموال^(١٠)، والتعلق بالأمور الدنيوية، وتحقيق الربح بكل الوسائل كما لاحظنا ذلك بالنسبة للتجار والسماسرة والجلالسين. لذلك غالباً ما حل البخل محل الكرم. فساكن فاس «لا يطرق الضيف حماهم ولا يعرف اسمهم ولا مسماهم»^(١١) لقد كان الفرد في المدينة يسعى - في ظل الفوارق الاجتماعية الفاحشة - إلى تحسين وضعيته الاجتماعية في المقام الأول، ويهدف بكل الوسائل والطرق إلى كسب آجاء والنفوذ دون الاهتمام بالقيم والفضائل، لذلك بات بديهياً أن تسود الروح الانتهازية^(١٢) والوصولية^(١٣) بشتى الطرق، وتشيع روح الحسد وتدبير المكائد. كما سادت كذلك النزعة الفردية محل النزعة الجماعية^(١٤). لذلك عبر المعاصرون للحقبة

(١) ابن سعيد: المغرب... ج ٢ ص ٢٦٦.

(٢) انظر: ابن الزقاق: ديوان ابن الزقاق ص ٢٥٧.

(٣) ترجم ابن الزيات لعدد من الذين تبناوا هذا الاتجاه في كتاب القشوف... وستفصل ذلك في الفصل القادم.

(٤) انظر ابن الخطيب: م.س. ج ٢ ص ٥٠٧. ترجمة محمد بن غالب الرصافي. وانظر صيغة عقد حول غزو عن تدمية.

في الجزيرة: م.س. ص ٢٤٢.

(٥) انظر وصف ابن غالب لسكان الأندلس: فرحة الأنفس... ص ٢٨١.

(٦) يقول مثل العامة: «الربح للحرص ذلة» انظر: الزجاجي: م.س. ج ٢ ص ٥٨.

(٧) ابن خلدون: م.س. ج ٦ ص ١٢٦.

(٨) ابن الزيات: م.س. ص ٩٨، ترجمة أبو الفضل بن النحوي.

(٩) صورة الأرض، ص ٨٢.

(١٠) قال الشاعر السمسير من شعراء الحقبة المرابطية:

من بشر نحن فمن طبعنا نصب فيها المال والجاما

انظر: المقرئ: نفع... ج ٢ ص ٢٢٨.

(١١) ابن الخطيب: معيار الاختيار... ص ١٧٩.

(١٢) ينقل البكري قول قاضي تاهرت عن انتهازية أهل فاس:

اسلح عن كل فاسي مررت به في العدوتين معاً لا تبتغي أحداً

قوم غدوا للؤم حتى قال لقائلهم من لا يكون لئيماً لم يعيش رغداً

انظر البكري: م.س. ص ١١٧. وقالت العامة: «تمسكن حتى تتمكن» مثل رقم ٤٦١. انظر الزجاجي: م.س. ج ٢ ص ١٠٤.

(١٣) من بين الطرق التي تصورها أمثال العامة الرشوة كوسيلة للوصول. إذ قالوا: «اعط الكيش لمن يهينك الكرش» مثل رقم ٤١٧. وقالوا كذلك: «اعمل الثريد ونعملك ما تريد» انظر المصدر نفسه، ص ٩٤، ٢٩.

(١٤) قالت أمثال العامة: «ليس يدري أحد يحس بأحد» انظر الزجاجي: م.س. ج ١ ص ٢٦٨.

المرابطة عن تدميرهم من عصرهم، فصوروه تصويراً يعكس حدة الازمة الاجتماعية^(١)، ويكشف عن انقطاع الامل في الناس^(٢)، ومن ثم الدعوة إلى الانعزال^(٣). ولعل هذا النفق المسدود الذي وصل إليه المجتمع هو ما جعل قطاعاً من الرعايا يخرجون عن صمتهم ليعبروا عن موقفهم منه: إنهم الاولياء والمتصوفة وهو موضوع الفصل التالي.

قصارى القول أن الحياة الاجتماعية في عصر المرابطين تميزت بطفيان مجموعة من المعتقدات الخرافية والظواهر الخطيرة كالسحر والشعوذة والكهانة والتنجيم، وكلها ظواهر جاءت انعكاساً أميناً لبنية ثقافية مناهضة للتيار العقلاني، وإفرازاً لبنية اقتصادية اعتمدت على موارد الغزو أكثر من اعتمادها على تقنيات زراعية وصناعية متطورة. وارتبطت بها جملة من العادات والتقاليد التي يرجع بعضها إلى رواسب ذهنية قديمة، وبعضها مرتبط بمعطيات العصر المرابطي نفسه. فالتقاليد المتعلقة بالموت والعالم الآخر، والاعتقاد بالاستشفاء بالطرق البدائية، والعادات المتبعة في الأطعمة والأزياء، ووسائل الترفيه والاحتفالات والقيم الاجتماعية السائدة ترجع كلها إلى ماضٍ سحيق ومعطيات بيئية وحضارية قديمة. غير أن ظرفية العصر المرابطي والازمات التي عصفت بالدولة المرابطية أعطتها صورتها النهائية.

(١) انظر ما ذكره ابن عيود في هذا الصدد ص ٦٠. وكذلك الفقيه أبو بكر بن العربي: سراج المريد... ص ٥٧.

(٢) ابن حمديس: م.س. ص ٣٦٥. ويعبر عن هذا الاتجاه بقوله:

فيا سائلي عن أهل ذا العصر دعهم
إذا خلل في الحال منك وجدته
فياك والتعميل منهم على جل
وقد نسب المقرئ هذه الأبيات إلى أبي بكر بن عطية (عاش في العصر المرابطي): انظر نفح... م.س. ج ٢
ص ٥٢٥. ويحتمل أن تكون هذه النسبة صحيحة لأن الشاعر نفسه الذي قال في موضع آخر ما يشبه هذا المعنى:
كن بذئب صائداً مستأنساً وإذا لبصرت إنساناً فقرر
واجعل الناس كشخص واحد ثم كن من ذلك الشخص حذر
انظر: ازهار الرياض ج ٢ ص ٩٩.

(٣) ابن دحية: م.س. ص ٢١٢. وقد أورد قول الشاعر ابن سعيد الأوسي (ت ٥٧٥ هـ).

جفوت أنساً كنت ألف وصلهم وما بالجفا عند الصلوة من بأس
فلا تعمّلوني في انقباض فإني رليت جميع الشر في خلطة الناس

الفصل الثالث

الأولياء والمتصوفة

تعد ظاهرة الأولياء والمتصوفة، من الظواهر البارزة التي طبعت الحياة الاجتماعية في المغرب والاندلس. وقد ارتبط انتشارها بالمرحلة الأخيرة من العصر المرابطي حين نضبت موارد اقتصاد المغازي، وتجذرت الأزمة في كل شرايين الحياة العامة مما جعلها تبرز كشكل من أشكال المعارضة التي ناهضت المؤسسة الحاكمة، ودعت إلى التكافل الاجتماعي، والتشبث بالقيم الإنسانية، متخذة أساليب تتراوح بين النقد المعتمد على الرمز والتمويه من جهة، والمناهضة الصريحة القائمة على العنف والثورة من جهة أخرى.

ومن نافلة القول، أن الحوليات التاريخية لم تول هذا الجانب ما يستحق من العناية، إذ لم تشر إليه سوى بتلميحات خجولة لا تكشف عن الأثر الذي تركه الأولياء في مسار تطور المجتمع إبان تلك المرحلة. غير أن كتب التصوف والمناقب تميظ اللثام عن هذه الجوانب المنسية، وترمم بعض الحلقات المفقطة من تاريخ التصوف لهذه الحقبة.

وغني عن القول أن موضوع الأولياء والمتصوفة ظل إلى فترة قريبة، قطاعاً منسياً في الدراسات التاريخية الحديثة^(١) التي اعتبرت جانباً سلوكياً وثيق الارتباط بالمجال الفكري والديني، أو الانتروبولوجي، بينما هو أيضاً نتاج اجتماعي، وإفراز لأوضاع تاريخية، وانعكاس جيد على أرض الواقع. فما هي العوامل التي أدت إلى ظهور الأولياء والمتصوفة؟ وما هو موقفهم من المجتمع والسلطة؟ ثم ما هي الأدوار التي قاموا بها، والنتائج التي تمخضت عن كل ذلك؟

أولاً: الأزمة وأثرها في ظهور التصوف

من الثابت عموماً أن التصوف يترسخ ويشتد عوده إبان الأزمات، حين يدب الضعف والوهن في كيان الدولة المركزية، وتستشري الفتن، وتحدث المجاعات والأوبئة والكوارث، فيصبح تدخل

(١) بدأ الاهتمام بهذا الجانب في الدراسات الحديثة مع طلائع المؤرخين والسوسيولوجيين والانتروبولوجيين الأوروبيين في إطار التاريخ الديني أو الانتروبولوجيا الاستعمارية التي كانت تخدم أغراضاً عسكرية. غير أننا لم نصل - حسب حدود علمنا - إلى دراسة عن التصوف في المغرب والاندلس إبان العصر المرابطي. وقد خصصت الدكتوراة عصمت دندش فصلاً من أطروحتها لدراسة التصوف في الاندلس فقط دون المغرب الأقصى، كما نوقشت مؤخراً بكلية الآداب بالرباط رسالة الباحث عبد الجليل لحمانات تحت عنوان القصور المغربية في القرن السادس هـ: مقدمة لدراسة التصوف المغربي رقم ر - ج ٢١٨.٩ ل - ج م. بينما هناك دراسات حول التصوف في المغرب في الفترة الحديثة. ودراستنا هذه تعالج لأول مرة التصوف في المغرب والاندلس معاً خلال العصر المرابطي برمت.

الأولياء آنذاك بديلاً ضرورياً لإعادة التوازن السياسي والاجتماعي. وحسبنا دليلاً على هذا الارتباط قول ابن الخطيب عن المتصوف أبي العباس السبتي انه «كان مستغافراً به في الأزمات»^(١).

وإذا كان اثر الأزمة في ظهور التصوف مسألة لا يرقى إليها الشك، فإن لفيفاً من الباحثين الأوروبيين، عالجوا الموضوع بمنظوراتهم الخاصة. فقد اعتبر لوبينيك Loubignac^(٢) أن الظاهرة الصوفية جاءت كرد فعل ضد الفشل الذي منيت به ثورات الخوارج. بينما عزا ألفرد بل A. Bel^(٣) ذلك إلى العقلية المغربية المجدولة على الاعتقاد بشنائية قوى الخير والشر، وإن كان قد أرجع في موضع آخر السبب إلى تآمر الرعية من سلوك الفقهاء وحياة البذخ والترف التي عاشوها، وإهمال المسؤولين لقواعد الدين^(٤). غير أنه فطن إلى أن نشأة التصوف ارتبطت بالمرحلة الأخيرة من الحكم المرابطي^(٥). في حين ركز فور Faure^(٦) في تحليله على الجانب السياسي والأخلاقي، فعزا هذه النشأة إلى الاضطرابات السياسية وانحطاط الأخلاق. واختزل لاغاردير Lagardère^(٧) أسبابها في معارضة بعض الشرائع الاجتماعية للفقهاء المالكين. أما بالنثيا Palencia^(٨)، فلم يكلف نفسه عناء البحث في تلك العوامل حين اعتبر التصوف في العصر المرابطي مجرد استمرار لحركة ابن مسرة التي ذاع صيتها في الأندلس منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري^(٩).

وقليلة هي الدراسات من نظرت إلى هذه الأسباب بشمولية، وربطتها بنضوب موارد اقتصاد المغازي، وما تمخض عنه من أزمة عميقة طالت جميع المجالات.

فعل المستوى الاقتصادي، تبين أن اقتصاد المغازي الذي شكل حجر الزاوية في سياسة المرابطين، اعتمد على الموارد الحربية المتكونة من غنائم المعارك والضرائب الشرعية وغير الشرعية، والجزية والخراج، فضلاً عن مداخيل تجارة السودان التي استولوا على محطاتها بالقوة. لكن هذا الاقتصاد ظل مهزوزاً، لأنه لم يرتبط بالقاعدة البشرية قدر ارتباطه بقوة الدولة. بمعنى أنه كان ظرفياً، معرضاً لهزات عنيفة، كلما ضعفت الدولة التي احتكرته لصالحها. لذلك تميز بهشاشته، وعدم استمرارية ازدهاره. وهذا ما يفسر المال الذي آلت إليه مختلف قوى الإنتاج في أواخر عهد الدولة المرابطية. فالزراعة التي ظلت خاضعة لتقنيات متخلفة، سرعان ما عرفت انحطاطاً تمخض عنه

(١) رواية التبتكي: فيل الابتهاج.... ص ٥٩.

(٢) Un Saint berbere: Moulay Bouazza. Hesp. 1944 T XXXI, p. 15

(٣) Les sufismes occidentaux Musulman au 12^e et 13^e siècle de J.C. p. 147.

(٤) Ibid, p. 145 - 146.

(٥) Coup d'œil sur l'Islam en Berberie. Extrait de La Revue des religions. Janv. - Fev. 1917, p. 23.

(٦) Le Tasawwuf et l'école ascétique Marocaine du 11^e et 13^e siècle de l'ère chrétienne. Mélanges L.

Massignon T II 1957, p. 130.

(٧) La Tariqa et la revolte des Muridun en 539H/ 1144 en Al Andalus R.O.OM N°35 (1983) 2^e sem. p. 157, 161.

(٨) تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مدريد ١٩٤٥، ص ٢٢٦.

(٩) عن هذه الحركة انظر لصاحب هذا الكتاب اثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (٢٥٠ - ٣١٦ هـ). الرباط، دار عكاظ ١٩٩٢، ص ٢٠٤ وما بعدها.

انتقباض الفلاحين عن زراعة اراضيهم^(١). ولم تكن الصناعة أكثر حظاً، إذ اقتصرَت على الصناعات البسيطة المعدة للاستهلاك، والصناعات الكمالية المرتبطة بالأمراء، فضلاً عن الصناعات الحربية التي تتماشى مع مشاريع المرابطين في الغزو والتوسع. لذلك عرفت - على غرار الزراعة - في أواخر العصر المرابطي، كساداً كبيراً تم تحديد معالمه في مبحث سابق^(٢).

ورغم ازدهار تجارة العبور في الطور الأول من حكم المرابطين، فإنها لم تسلم من المصير نفسه في أواخر حكمهم.

وبالمثل، عرف بيت المال عجزاً كبيراً بسبب انقطاع عمليات الجهاد، والنفقات الباهظة التي رصدت لردع حركة المهدي بن تومرت، وقطع دابر التحرشات النصرانية، ناهيك عن نفقات الأمراء، وإسرافهم في مظاهر البذخ والترَف، الشيء الذي أدى إلى سن سياسة جبائية مجحفة أضرت بكل شرائح المجتمع، وأدت إلى ظهور أصوات الاستنكار والإدانة، ومن بينها صوت المتصوفة.

أما على الصعيد السياسي، فقد قامت دولة المغازي على مبدأ احتكار السلطة وجعلها قاصرة على العناصر اللتوتنية والفقهاء المالكيين، وتهميش كافة القوى الاجتماعية الأخرى، مما أدى إلى ظهور هوة سحيقة بين المجتمع والسلطة، وهو أمر كان يستدعي بروز قوى المتصوفة لإعادة التوازن، وإلغاء مبدأ التهميش السياسي.

كما أن الإيديولوجية الإصلاحية التي نادى بها المرابطون آلت إلى الفشل في نهاية المطاف؛ فالمقولة الخلدونية تؤكد أن المالكية تناسب طبائع المجتمع البدوي^(٣)، وهذا ما يفسر ملامتها للعد المرابطي الذي اكتسح المغرب الأقصى، خاصة في البداية، حين كانت البداوة لا زالت الطابع المهيمن لمسلوك أهل اللثام. أما وقد اتسعت الدولة، وغزتها مدنية الأندلس، فإن الإيديولوجية المالكية لم تستطع استيعاب هذه المتغيرات التي أصبحت قوية وسريعة الإيقاع، كما عجزت عن مسايرة واقع أصبحت التجارة تشكل عصب وجوده^(٤).

وإذا كان المد السني قد بلغ نضجه في المشرق الإسلامي حين تكامل مع المذهب الأشعري، فإن المالكية في المغرب الإسلامي حافظت على أصالتها، ولم تجر محاولة تطويرها أو إثرائها^(٥)، حتى أن أحد الدراسين^(٦) فطن إلى أن تجديد المذهب المالكي لم يتم سوى في العصر المريني.

وعلى المستوى الاجتماعي، من الصعب إدراك ظهور المتصوفة والأولياء على الساحة الاجتماعية دون الوقوف على التناقضات التي طبعت المجتمع، إذ لم يكن منطقياً أن يعرف التصوف نمواً وانتشاراً دون أن يكون له طرح اجتماعي يلامس عواطف الفئات المتضررة.

وقد سلف القول أن التفاوت الطبقي ظهر واضحاً، وبرزت أشكال الاستغلال كلها حيث عانت

(١) ذلك ما توصلنا إليه في الجزء الأول من الأطروحة الذي لا زال مرقوناً، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، طبعة بيروت ١٩٧٩، ص ٢٧٥.

(٤) محمود إسماعيل: مقالات في الفكر والتاريخ، البيضاء، دار الثقافة، ١٩٧٩، ص ٩١.

(٥) Laroui: Histoire du Maghreb T I, p.155.

(٦) الجرابي: وحدة المغرب المذهبية من خلال التاريخ، البيضاء، ١٩٧٦، ص ٢٨.

طبقة العامة من الوان البؤس والفقر، فيما ازداد الرفاه المادي لطبقة الخاصة، وانعدمت الثقة في تحقيق عدالة اجتماعية.

وفي الوقت ذاته، عصفت الأمراض والمجاعات بأرواح العديد من الشرائع الاجتماعية، وعم القحط والفلاء، وارتفعت الأسعار بشكل مرعب، وصار السواد الأعظم من الرعايا يرزحون تحت نير الضرائب، ويعانون من الوان البؤس الاجتماعي والمحن^(١)، مما هيأ التربة الخصبة لبروز قوى المتصوفة والأولياء.

كما أن الدولة المرابطية لم تتمكن من تكسير القشرة القبلية وتجاوز إطارها، وبالتالي توليد طبقة اجتماعية قادرة على فرض سيادتها الاقتصادية والإيديولوجية على المجتمع الجديد الذي أقامته انطلاقاً من مفهوم الدولة الموحدة. فالدولة اللمتونية بنيت أساساً بالاعتماد على قوة القبيلة، ولذلك ظل التناقض قائماً بين السلطة والمجتمع فكان لا بد من بروز وسيط بين الجانبين.

أما على المستوى الثقافي، فقد تجلت الأزمة في محاربة التيار العقلاني، وتضييق الفقهاء الخناق على كل أشكال التعبير، وتكميم الأفواه، مما أحدث طلاقاً بين الإسلام الشعبي والإسلام الرسمي^(٢). وفي الوقت نفسه، ساهم تسرب الفكر الغزالي للمغرب والاندلس في تكوين قاعدة صلبة لنشوء التصوف^(٣).

وعلى الصعيد الأخلاقي، عرف المجتمع المرابطي أزمة خانقة لم تتردد المصادر في إبراز جوانبها حين عالجت حركة ابن تومرت^(٤). ولا غرو فقد تردت السلوكات الأخلاقية، وشاعت البدع والمنكرات، وسادت كل مظاهر الانحلال والتفسخ، واستشرت وسائل اللهو بأنواعها. ونتج عن احتكاك الجيل الثاني من المرابطين بحضارة الأندلس، انجرافهم في تيار المدنية والحضارة، وانغماسهم في ألوان الترف والبيذخ ومعاقرة الخمر، وظهر مجال المرأة في الوسط الأرستقراطي، وعم الفساد ربوع المغرب والاندلس، وكلها تجليات يقرنها ابن خلدون بهرم الدولة^(٥).

ولدينا شهادات سجلها بعض من عاشوا في أواخر الحقبة المرابطية، عبروا من خلالها عن الأزمة التي طالت المجتمع برمته. وتتضمن هذه الشهادات تعبيراً واضحاً عن الرغبة في الخلاص إما بواسطة نبي أو مصلح. ذكر ابن عبدون إن الناس قد فسدت أنفُسهم، وإنما الدنيا الفانية والزمان على آخره. وخلاف هذه الأشياء هو ابتداء الهرج وداعية الفساد، وانقضاء العالم، ولا يصلح هذه الأمور إلا نبي يأنس الله^(٦). وعلى منواله أظهر القاضي أبو بكر بن العربي تبرمه من الحالة المزرية التي آل إليها مجتمعه، فعبر عن ذلك بنوع من اليأس والقلق بقوله: «وقد عظم الخطب في هذا الزمان حتى لا يدري العبد على أي شيء يبكي، أعلى قوات دنياه أم على قوات دينه، أم على إخوانه في

(١) درسنا بتفصيل مشكل الضرائب في الجزء الثاني من الأطروحة.

(٢) Terrasse, *Conséquences d'une invasion berbère*, p.678.

(٣) انظر رواية لابن الزيات حول اقتناع ابن حزمه التام بأهمية كتاب الإحياء. انظر: *التشوف*... م.س. ص ١٦٩.

(٤) انظر: مؤلف مجهول: *الحلل الموشية*... ص ١٠٠ - ابن أبي زرع: *الأنيس المطوب*... ص ١٧٣ - ١٧٤.

(٥) المقدمة، ج ١، ص ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٦) رسالة في الحسبة م.س. ص ٦٠.

أبا مدين شعيب لقي في الحج الشيخ عبد القادر الجيلاني، فألبسه خرقة التصوف^(١). وكان عبد الجليل بن ويحلاّن قد التقى كذلك بشيخه أبي الفضل الجوهري المصري عندما رحل إليه من المغرب. واتخذ الطريقة على حقيقتها من المشرق^(٢).

ومن القرائن التي تثبت تأثير المشرق في ظهور التصوف بالمغرب أن الشيخ عبد القادر الجيلاني كان يشير كلما سئل عن قرين بضاهيه في البلاد الإسلامية إلى «عبد حبشي بالمغرب اسمه آل وكنيته أبو يعزى»^(٣). ويذكر كتاب التشوف بعدد من المغاربة الذين يمموا وجوههم شطر المشرق، وانتهروا بشيوخ التصوف هناك وأخذوا عنهم^(٤). وفي الآن ذاته، حظ بعض متصوفة المشرق الرحا في المغرب والأندلس، فساهموأ بذلك في نشر الطرق الصوفية^(٥). لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن يتسرب الفكر الصوفي الباطني إلى المغرب والأندلس، ويؤثر في مجموعة من المتصوفة وعلى رأسهم ابن قسي.

وإذا كانت العوامل الداخلية والخارجية قد ساهمت في انتشار التصوف، فلا سبيل لإغفال الرصيد التاريخي الذي سبق هذه الحقبة ومهد لها. تمثل ذلك في سيادة تيار الزهد الذي كان يدعو إلى الانعزال عن الملذات الدنيوية والاعتكاف على العبادة. وفي هذا الصدد ترجم ابن بشكوال^(٦) لجملة من الأعلام الذين عاشوا حياة الزهد، واشتهروا بأعمال الخير والصلاح مثل تمام بن عفيف بن تميم (ت ٤٥١ هـ)، وجماهر بن عبد الرحمن وحماة بن عمار ويونس بن عبد الله بن مغيث صاحب كتاب فضائل المنقطعين إلى الله عز وجل وعبد العزيز السوسي (ت ٤٧٦ هـ)^(٧) وغيرهم.

كما أن فشل كل الإيديولوجيات السابقة من خارجية وزيدية شيعية واعتزالية، فتح الباب على مصراعيه لظهور التصوف كبديل لحالة اليأس والتذمر من الأزمة التي غرق فيها المجتمع.

من ذلك يتبين أن الأزمة بتجلياتها في كل المجالات داخلياً، بالإضافة إلى عوامل خارجية، ساهمت في تأسيس الجذور الأولى للتصوف في المغرب والأندلس. غير أن تأمل الخريطة الصوفية يكشف أنه لم يكن على نمط واحد، بل تعددت التيارات والاتجاهات الصوفية.

ثانياً: التيارات الصوفية السائدة

إن التكوين الثقافي للأولياء والمتصوفة، وتنوع المشارب التي نهلوا منها، واختلاف مواقفهم تجاه المجتمع، تجعل الدارس يوظفهم ضمن اتجاهات متنوعة يجمعها تياران رئيسيان:

١ - التصوف السني الساذج: يتميز هذا التيار ببساطته، وبعده عن الخوض في القضايا الفلسفية كالقول بوحدة الوجود أو الحلول والبعيد عن التعقيدات^(٨). ويمكن تصنيفه في ثلاثة اتجاهات:

- (١) ابن سعد: النجم الثاقب... (مخ) ص ١٨٢.
- (٢) الصومعي: المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى (مخ) ورقة ٢٢ ب.
- (٣) المصدر نفسه، ص ١٠٣.
- (٤) ابن الزيات: المصدر المذكور في المتن. انظر نماذج من ذلك ص ٨٢، ٨٤، ١٠٩، ١٤٦.
- (٥) المصدر نفسه، ص ١٨٥. ترجمة أبو عيسى وزجيج.
- (٦) كتب الصلة... ج ١، ص ١٢٣، ١٥٣، ٢٢٧ - ج ٢، ص ٦٦٥، ٦٨٥.
- (٧) صيفي: المدارك... ج ٨، ص ١٦٨.
- (٨) محمد أه: الفكر الصوفي والانشغالية بالمغرب.. مجلة البيعة سنة ١٩٦٢ ق ٢، ص ٦٣، ٦٤.

اولها اتجاه صوفي نهج اصحابه نوعاً من المجاهدة النفسية والتكشف والزهد في سلوكهم اليومي. ونذكر على سبيل المثال بعض الاعلام الذين يمثلونه كإحمد بن عبد الملك بن عميرة الذي كان «إماماً في طريقة التصوف»^(١)، وأحمد بن عمر بن أفرند الذي «كان متقللاً من الدنيا»^(٢) وعبد الرحمن بن الصقر الانصاري الذي «كان مائلاً إلى التصوف وقراءة كتب الزهد والرقائق»^(٣)، فضلاً عن عدد كبير من الاعلام الذين ساروا في هذا الركب^(٤).

اما الاتجاه الثاني فيمثل مجموعة من الزهاد الذين أثروا اقتفاء أثر السلف الصالح، ورفضوا مبدأ المجاهدة النفسية، وتبنوا بدلها مبدأ المجاهدة العملية الفعلية المتمثلة في المراقبة بالثغور المتاخمة للممالك النصرانية للدفاع عن دار الإسلام والاستشهاد في معارك الجهاد. وخير مثال نسوقه في هذا الشأن الفقيه الزاهد الإمام الصدي^(٥).

تميز هذا الاتجاه بالتزامه بالقاعدة السنية وعدم المغالاة والتطرف، كما ارتبط رواده بالحصون والرباطات ومقارعة الخطر النصراني، وانصب كل نشاطهم على تصحيح الإسلام وبث المبادئ الأساسية في الدين ومحاربة البدع. وهذا ما يفسر إدراج ابن الزيات^(٦) لوجاج بن زلو صاحب مدرسة نفيس بالصحراء ضمن اعلام المتصوفة والزهاد. ولم يكن هؤلاء يملكون رؤية صوفية معينة، كما أن معرفتهم بمستجدات التصوف وفروعه وفلسفته تكاد تنعدم لديهم بالمرّة. وفضلاً عن ممارستهم التصوف بصورة تلقائية، فإنهم عاشوا تجربتهم الذاتية بمعزل عن تأثيرات خارجية واضحة.

في حين يتمثل الاتجاه الثالث فيما يمكن أن نطلق عليه اسم «الغزاليين السذج» الذين تأثروا بمبادئ الغزالي دون أن يتعمقوا فيها أو تكون لديهم رؤية فلسفية واضحة، بل إن بعضهم كان أمياً مثل أبي يعزى الذي تنعته المصادر بالولي العارف^(٧)، أو القطب^(٨). ومن اعلام هذا الاتجاه أبو الفضل ابن يوسف بن النحوي^(٩)، وأبو عبد الله الدقاق السجلماسي^(١٠) ثم تلميذه أبو مدين شعيب الذي لبس منه الخرقة^(١١) ويعلى أبو جبل^(١٢) وأبو شعيب بن سعيد الصنهاجي^(١٣).

تميز هذا الاتجاه بارتكازه على «الكرامة الصوفية» و«البركة»، والتشديد على الجانب الأخلاقي

(١) الضبي: بغية الملقب... ص ١٨١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(٣) ابن القاضي: م.س. ق ٢ ص ٤٠٩.

(٤) انظر الضبي: م.س. ص ٢٧٨ ترجمة عبد الحق بن عبد الرحمن، ص ٤٠٢ ترجمة علي بن محمد بن هذيل، ص ٤١١ ترجمة علي بن عبد الرحمن المحججي.

(٥) عياض: الغنية... ص ١٢٩ وما بعدها.

(٦) التشوف... ص ٨٩.

(٧) ابن قنفذ: شرف الطالب في اسنى المطلب، ص ٦٢ - ابن الأحمر: بيوتات فلس الكبرى، ص ٦٦.

(٨) ابن أبي ذرع: م.س. ص ٢٦٧.

(٩) انظر ترجمته في التشوف... ص ٩٥ وما بعدها.

(١٠) ابن قنفذ: انس الفقير، ص ٢٧ - ابن القاضي: م.س. ج ١، ص ٢٥٩.

(١١) الصومعي: (مخ) م.س. ورقة ٨٨ - ابن أبي ذرع: م.س. ص ٢٧٠.

(١٢) ابن أبي ذرع: م.س. ص ١٧٠.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

أكثر من الجوانب الأخرى، والنزوع دوماً إلى السلام. فهو لا يعارض السلطة معارضة صريحة، بل يميل إلى معاشتها ومهادنتها، وتأثيره ناتج فقط عن نفوذه الروحي. ويبدو أنه اكتسح مناطق شاسعة من المغرب الأقصى. فالعزبي يمدنا بكثير من التفاصيل حول العلاقة بين المنطقة التي كان يقيم فيها أبو يعزى (تاغيت) والمناطق الأخرى كآسفي وماسة وركراكة وإشبيلية وتلمسان وقسنطينة^(١).

٢ - التصوف السني الفلسفي: مثل العصر المرابطي نقلة هامة من التصوف الساذج إلى التصوف الفلسفي الذي عرف ذروته على يد ابن عربي في فترة لاحقة، ولا اعتبار البتة لما استنتجه بعض الدارسين^(٢) من أن التصوف في هذه المرحلة لم يكن ذا طابع فلسفي. صحيح أنه لم يصل إلى أوجه بسبب استئساد فقهاء المالكية في مقاومة كل أشكال الفكر الفلسفي خارج الدوائر الدينية^(٣). لكن مع ذلك بدأ التصوف في هذه الحقبة يتأثر بالتراث اليوناني كفلسفة أفلاطون وأرسطو التي ترجمت في المشرق ثم نقلت إلى الأندلس، بالإضافة إلى مؤلفات الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا ومصنفات كبار المتكلمين لا سيما المعتزلة التي دخلت عن طريق التجار أو بطرق مستترة. لذلك من الأمانة التأكيد على أن التصوف في المغرب والأندلس بدأ في هذه المرحلة ينحس نحو الطابع الفلسفي^(٤).

وعلى كل حال فقد شمل هذا التيار اتجاهين:

هناك الاتجاه المعتدل الذي تبنى أفكار الغزالي المبنية على مجاهدة النفس والميل إلى العلوم الباطنية والزهد في كل شيء بما في ذلك الزهد في «منازل» الصوفية والعطايا والمواهب الإلهية^(٥). وقد ظل هذا الاتجاه معارضاً للسلطة، ولكنه سلك طريق المعارضة السلمية الإصلاحية، ولم يتبن العنف والثورة على السلطان. لذلك اكتفت السلطة المرابطية باتخاذ موقف الترقب والحيطه والحذر من أنصاره. وتميز كذلك بارتكازه على قاعدة المذهب المالكي^(٦).

ويأتي في طليعة هذا الاتجاه ابن العريف الذي كان محتاماً في الفضل والدين، منقطعاً إلى الخير^(٧)، وكذلك أبو الحكم بن برجان الذي كان «محققاً في علم الكلام والتصوف مع زهده واجتهاده في العبادة»^(٨). وقد ألف الأول كتاب محاسن المجالس تحدث فيه عن المقامات الصوفية التي يمر منها السالك في طريقه الواصل إلى الحق تعالى، ومنها المعرفة والإرادة والزهد والتوكل

(١) Farhat et Triki, *Hagiographie et religion au Maroc Medieval*, H.T: 1986, p.30.

(٢) بونار: المغرب العربي: تاريخه وثقافته، الجزائر ١٩٦٨، ص ٢٢٥.

(٣) عفيفي: أبو القاسم بن تسي وكتابه خلع النملين، الإسكندرية، مجلة كلية الآداب، م ١١ سنة ١٩٥٧، ص ٥٣.

(٤) دندش: م.س. ص ٣٦٠.

(٥) انظر ما ذكره الغزالي عن الزهد في الدنيا: إحياء علوم الدين ج ١٢، ص ١٠٧، ١٠٨، ١١٢، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٩، ١٤٢.

(٦) انظر ما ذكره ابن الزيات عن عدد من المتصوفة العارفين بالمذهب المالكي، م.س. ص ١٩٣، ٢٦٧، ٢٤٢، ٢٤٣.

(٧) ابن بشكوال: م.س. ج ١، ص ٨٣ - الضبي: م.س. ص ١٥٢ - ابن سعد: م.س. ص ٥٤ - التنبكي كفاية المحتاج... ج ١، ص ٩٨ - ابن المؤقت: السعادة الأبدية... ص ٥٨ - الناصري: الاستقصاء... ج ٢، ص ٧٥ - ٧٦، مخلوف: شجرة النور الزكية، ص ١٣٢ - ١٣٤، عباس بن إبراهيم، الأعلام، ج ١، ص ١٦٠.

(٨) التنبكي: م.س. ج ١، ص ٢١٢.

والصبر والحزن والخوف والسخاء والمحبة والشوق^(١). غير أنه لم يأت بجديد كما لاحظ ذلك الدارسون المتخصصون^(٢)، إذ أن أغلب هذه الأفكار سبقه إليها ذو النون المصري. لكن الجديد بالنسبة له هو المنحى الباطني الذي تطورت من خلاله المعاني المنطوية عليها هذه الإصطلاحات.

أما ابن برجان، فقد تحدث عن أرباب الأحوال^(٣)، وتميز بجنوح شديد إلى الباطنية. تجل ذلك في ممارساته «لحساب الجمل»، وتطبيق ذلك على نصوص القرآن حين أخضع القيمة العددية لكل حرف من حروفه إلى عمليات حسابية مختلفة تعتمد أساساً للتنبؤ بالأحداث، خيرها وشرها^(٤).

ويندرج ابن حرزم ضمن هذا الاتجاه كذلك. فرغم أنه أحكم كتاب إحياء علوم الدين واستحسن مسأله بعد أن وجدها «موافقة للكتاب والسنة»^(٥)، فإنه كان «أميل للعلوم الباطنية»^(٦) وسلك طريق الملامية^(٧). ويبدو أنه أول من تبني مبادئ هذا الطريق، لذلك تعرض لانتقادات لازعة^(٨).

أما الاتجاه الثاني في التيار الفلسفي فهو الاتجاه الباطني المتطرف، ويمثله أبو القاسم بن قسي الذي ضمن كتابه خلع الفعلين أراؤه في الأسماء الإلهية والفيض الوجودي ومراتب الموجودات. كما تحدث عن العلوم الإلهية وقسمها إلى قسمين: علوم إخبارية وعلوم كشفية^(٩). وكان له رؤية خاصة تميل إلى العنف والثورة على أولي الأمر.

ومن الجدير بالإشارة كذلك أنه وجدت طائفة من المتصوفة اعتادت على التجمع في حلقات، واستعمال الغناء واللهو وسماع الطقطقة والتعبير^(١٠) فضلاً عن اتخاذ ألوان من الأظعمة^(١١) وقد اعتبر الفقيه الطرطوشي ذلك بدعة وخروجاً عن السنة والدين.

ومهما كان الأمر، فثمة قواسم تكاد تشترك فيها كل الاتجاهات الصوفية وتتجل فيما يلي:

١ - الموقع الاجتماعي المتواضع للمتصوفة. فاستناداً على كتاب التشوف وغيره من كتب المناقب، نستطيع تحديد مختلفة الأشراف الاجتماعية التي ينتمي إليها المتصوفة. فقد كان معظمهم

(١) انظر كتاب النفائس ومحاسن المجالس، تحقيق نهاد خياطة، مجلة المورد، ج ٤ سنة ١٩٨١، ص ٦٨٧ - ٦٩١.

(٢) نهاد خياطة: انظر مقدمة الكتاب المذكور: م.س. ص ٦٨٢.

(٣) ابن المؤقت: م.س. ص ٥٤.

(٤) نهاد خياطة: م.س. ص ٦٨٢ - مخلوف: م.س. ص ١٢٢ وعن علومه، انظر: ابن الزبير: صلة الصلة... ص ٣٢.

(٥) ابن قنفذ: انس الفقير، م.س. ص ١٢.

(٦) الشراط: م.س. ورقة ١٥ ب، الكتاني: زهرة الأس (مخ) م ١ ص ٦٨، التنبكي: م.س. ج ٢، ص ٢٥٩.

(٧) الملامية نسبة إلى الملامة وسمي أصحابها ملامتين لأنهم يظهرون ما لا يلامون عليه تسترأ لأنفسهم وطلباً للخلاص. واللامية هو الذي لا يظهر خيراً ولا يضر شراً. شربت عروقه طعم الإخلاص وتحقق بالصدق، فلا يحب أحد أن يطلع على حاله وأعماله. انظر المزيد من التفصيل: مفتاح: التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن الثامن هـ (بحث مرقون) ج ١، ص ١٦٢ - ١٦٤.

(٨) الشراط: م.س. ورقة ١٠ ب، ورقة ١١١، ابن الزيات: م.س. ص ١٦٩، ويبدو أن هذا المذهب سينتشر فيما بعد حيث ترجم ابن عربي لأحد من سلكوا هذا المذهب ويسمى يوسف الغومي، انظر: رسالة القدس، م.س. ص ١٢.

(٩) عفيفي: م.س. ص ٨٥.

(١٠) الطرطوشي: رسالة في تحريم الغناء... (مخ) ورقة ١٠٥ ب، ورقة ١٠٦ أ.

(١١) المصدر نفسه، ورقة ١١٥ أ.

(١٢) المصدر نفسه، ورقة ١١٠ أ.

من الحرفيين والمزارعين والرعاة والمدرسين البسطاء، والمغنيين في الأعراس، وقطاع الطرق^(١)، فضلاً عن بعض الذين لا أصل لهم. لكننا لا نعدم بعض الشخصيات التي وصلت إلى مرتبة القطب رغم انتمائها إلى الطبقة الوسطى^(٢)، أو بعض الذين تقلدوا الوظائف العليا في الدولة^(٣). إلا أن معظم الأولياء يرجعون إلى أصول فقيرة كما يتبين ذلك من خلال هذا الجدول المختبى من المادة المتاحة.

جدول: عينة لتوزيع المتصوفة حسب
وضعيتهم الاجتماعية ومهنتهم

| العدد | الوضعية الاجتماعية
للمتصوفة | |
|-------|--------------------------------|-----|
| ٩ | حرفيون | (١) |
| ٢ | مزارعين | (٦) |
| ٣ | رعاة | (٤) |
| ٤ | لصوص | (٥) |
| ٣ | أهل دعارة | (٥) |
| ٣ | مغنون في الأعراس | (٤) |
| ٤ | صيادون | (٣) |
| ٥ | مدرسون | ٦ |
| ٢ | دون شغل | ٦ |
| ٢ | محتسبون | ٦ |
| ٢ | أصحاب أموال | (٤) |
| ٦ | ملاكين | (٣) |
| ١ | ولاة | |
| ٣ | وظائف رسمية | |
| ١ | كتابة الوثائق | |

المصادر: ابن الزيات: كتاب التشوف. الصومعي: المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى. الشراط: الروض العاطر الأنفاس. المازوني: صلحاء وادي شلف. التميمي: المستفاد من مناقب العباد. ابن عربي: رسالة القدس. ابن الأبار: المختضب من تحفة القادم. ابن القاضي: جذوة الاقتباس. المقرئ: نفح الطيب ج ٣.

- (١) من بين الحرفيين نجد أبا عمران موسى الذي كان حلاجاً للقطن، انظر: الصومعي: م.س. ورقة ١١٥ ب. ومن المزارعين أبو عبد الله الأبرشي، انظر: المازوني: صلحاء وادي شلف، ص ٢٩٥. ومن الرعاة الشيخ أبو مدين شعيب، انظر الصومعي: م.س. ورقة ٧١ أ.
- (٢) من بين الذين اشتغلوا بوظيفة الحسبة مثلاً ابن العريف: انظر ابن الأبار: المختضب من تحفة القادم ص ٧٠.
- (٣) من الولاة الذين أصبحوا متصوفة أبو محمد عبد الله بن عبد الملك. انظر ابن الزيات: م.س. ص ٢٣٦.

— كذلك تميز المتصوفة بهامشيتهم الاجتماعية، فكثير منهم لم يتزوج ولم يندمج في المجتمع^(١).
وإذا ما تزوج كان يطلق زوجته ليتفرغ للسياحة والعبادة، كما أن عدداً منهم لم تعرف أصوله^(٢).

٢ - كثرة العبادة والتجهد: فقد اعتاد المتصوفة في المغرب والاندلس على مجاهدة النفس والتعب، فأبو عبد الله محمد بن علي كان يقضي الليل «يقراً ويردد الآية بعد الآية ويبيكي»^(٣). أما أبو زكريا يحيى بن محمد بن صالح الجرطاوي من بلد مسكورة فكان عبداً صالحاً مجتهداً كثير البكاء والخوف من الله تعالى، وما زال يبكي إلى أن سقطت عيناه من كثرة البكاء، فلما عمي ضاعف أعماله وأوراده^(٤). وكان أبو إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي «شديد الصفيرة من كثرة الصيام والعبادة»^(٥)، بينما كان متصوف آخر يقضي الليل «منتصباً في مصلاه كأنه وقد مضروب في الأرض من طول القيام»^(٦). وتذكر إحدى الروايات أن أبا الفضل بن النحوي اختل في أحد البيوت لبصلي، فأخذ ابنه السراج وأدناه من عينيه فلم ينتبه إليه ولم «يحس به لحضوره مع الحق وغيبته عن الخلق»^(٧). أما أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي فكان إذا وقف في صلاته يطيل القيام حتى سمي بأبي السارية^(٨).

٣ - المسلك التقشفي الذي عبر عنه ابن العريف^(٩) بـ «الترفع عن التلطف بقاذورات الدنيا وأهلها». والزاجح أن المتصوفة والأولياء اتبعوا في ذلك النموذج النبوي. فقد وصف الشراط^(١٠) تواضع منزل أحد الأولياء ثم علق عليه بقوله: «ولو شاء لكانت له الفرش اللينة، لكنه رحمه الله لما بلغه أن رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يأمر أصحابه بالتصبر على المكاره وعلى خشن الملابس أمر نفسه بذلك».

وبإلقاء نظرة على النصوص المتناثرة التي تخص طعامهم وثيابهم وسكناهم يتأكد هذا القول. فبالنسبة لطعامهم تجمع المصادر على تواضعه وقلته. وحسبنا أن أحد المتصوفة كان لا يأكل إلا خبز الشعير بالماء^(١١) بينما اقتصر الولي المشهور ابن حزم على أكل الخبز باللبن^(١٢)! بل إن أبا موسى الدكالي لم يعوّد نفسه سوى على أكل بعض النباتات كمساليج الكلخ^(١٣)! أما أبو يعزى فكان يأخذ أقراصاً من دقيق البلوط، ويجعل معها أوراق اللبلاب، ويطحنها ويقتات منها، فضلاً عن قلوب

(١) ابن الزيات: م.س. ص ١٦١، ترجمة ٤٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢٢، ترجمة ٤٩.

(٣) التميمي: المستفاد في مثالب العباد (مخ) ص ٢٤ - ٣٥.

(٤) الصومعي: م.س. ورقة ٩٦ أ.

(٥) ابن الزيات: م.س. ص ٢٤٢.

(٦) المصدر نفسه، ص: ٢٥٥، ترجمة ١٠٦.

(٧) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٩) كتّاب النفائس ومحسن المجالس، ص ٧٠١.

(١٠) الروض العاطر الأنفاس، (مخ) ورقة ١١ ب.

(١١) ابن الزيات: م.س. ص ١٨١.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٧. مساليج الكلخ: قضيبي لبن من الشجر. أما الكلخ فهو نبات الحلتيت

(Ferulè).

الدغل^(١) على مرارتها^(٢). ولم يكن قوت أبي عبد الله المليحي يتجاوز عصيدة الشعير بغير ملح، حتى صار جسمه كالسفود المحترق^(٣).

وعلى العموم، تشدد المتصوفة في مقاومة شهوات البطن، ولم يأكلوا إلا ما بضمن لهم رمق العيش. وحسبنا دليلاً على ذلك، أن أبا محمد بن عبد العزيز التونسي كان يقتات مداً من الشعير فقط كل اثني عشر يوماً^(٤). وعلى شاكلته اعتاد أبو يعزى أن يأخذ مما صنعه من نباتات الأرض «لقمة أو لقمتين» وهو يزار كالقاهر لنفسه ويقول لها ليس لك عندي إلا هذا^(٥).

كما حرصوا على أكل الحلال من الأطعمة. فقد رفض أحد الأولياء أكل طعام تبين له أنه من قوم لا يرتضى مكسبهم^(٦). وللغاية نفسها كان أبو محمد عبد السلام التونسي لا يأكل إلا الشعير الذي يحرقه بيده، وإذا اشتهى اللحم اصطاد السلاحف البرية فأكل لحمها^(٧). واكتفى أحد المتصوفة بالبحث عن أجباح النحل واصطياد الحوت من سواحل البحر^(٨)، بينما كان آخر يحمل قفة كبيرة فيجمع فيها بقل البرية وما يلفظه البحر من مباح الأكل فيبيعه ويشتري بثمنه خبزاً^(٩).

ولا نعدم من القرائن ما يثبت كذلك تقشف المتصوفة في الملابس واقتصارهم على الخشن من الثياب، فأبو الفضل يوسف بن النحوي «هجر اللين من الثياب ولبس الخشن من الصوف»^(١٠). واكتفى أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي بارتداء عباءة صوف^(١١). ووصف أبو حدو القاسم الإيلاني بأنه «شديد الصفرة على رأسه خرقة صوف وعلى كتفيه أخرى وعلى وسطه مثل ذلك»^(١٢). أما أبو يعزى فقد اشتهر بلباسه برونساً أسود مرقعاً إلى ركبتيه وجبة من تليس مطرب وشاشية من عزف^(١٣). وكان أبو عمران موسى بن إسحاق الوريكي «محلوق الرأس، حافي القدمين، على جسده كساء صوف بال»^(١٤). ولم يزد أحد المتصوفة على لبس دراعة قطن في الصيف، وطاقيه منزر قصير ودراعة ثانية في الشتاء^(١٥).

وظل اللباس المتواضع رمزاً لدخول الفرد طريقة التصوف مصداق ذلك قول أحد المتصوفة لرجل أراد أن يدخلها، «فأزل هذه الثياب، وانتظر في جلالية وأخرج بنفسك في طلب الصالحين»^(١٦).

(١) ابن أبي زرع: م.س. ص ٢٦٧.

(٢) العزى: دعامة اليقين.. ص ١٤.

(٣) ابن الزيات: م.س. ص ١٤٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢١٦ - ابن سعد: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب (مخ) ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٥١، ترجمة أبو محمد صالح بن عمر.

(٧) المازوني: صلحاء وادي شلف (مخ) ص ٢٢٣.

(٨) ابن الزيات: م.س. ١٨٢. وعن اقتيات بعض المتصوفة بحوت البحر، انظر. المازوني: م.س. ص ٢٢٣.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٨١.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢١٦ - ابن أبي زرع: م.س. ص ٢٦٧.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٨.

(١٥) الشراط: م.س. ورقة ١١ ب.

(١٦) ابن الزيات: م.س. ص ٣٦٧.

وفي حالة الخروج عن هذه القاعدة كان المتصوف يتعرض للانتقاد^(١).

ونستطيع من خلال التراجم المنبئة في كتب التصوف التأكيد على تواضع الأماكن التي أقام بها بعض الأولياء. فقد وصف الشراط^(٢) بيوت أحدهم بأنها لم تكن تحتوي سوى على حصير وسجادة، بينما أقام بعض المتصوفة في الكهوف أو الأشجار أو الجبال. فأبو الحسن علي الصنهاجي وكانت له خيمة من شجر يأوي فيها^(٣)، في حين لم يكن لولي آخر مكان يأوي إليه سوى ظلال الأشجار وللجدران والمساجد والشواهد وبطون الأودية^(٤). وأقامت إحدى المتصوفات بجبل درن^(٥)، في حين كان عيسى السائح يسكن الجبال ولا يأوي إلى عمارة إلا في شهر رمضان^(٦).

هذا المسلك التقشفي جلب إليهم محبة العامة وتقديرهم. فأبو محمد عبد الجليل بن ويحلان كان إذا صلى الجمعة وانصرف إلى منزله «لا يصله إلا في أول وقت العصر من كثرة ما يحبسه الناس للدعاء والتمسح به»^(٧)، حتى وصف بأنه «رجل وضع الله له القبول في قلوب الخلق»^(٨). أما الشيخ أبو مدين شعيب فقد «اتفقت القلوب على محبته». وكان الناس لفرط محبتهم لأبي العباس البرنسي يتمسحون به ويتبركون ويتوسلون به إلى الله لقضاء حوائجهم^(٩). وكان بعض الآباء يحثون أبناءهم على الذهاب إلى الأولياء التماساً لدعائهم وبركتهم^(١٠) ويوصونهم باحترامهم وتقبييل أيديهم متى لقوهم «ولو مائة مرة في اليوم»^(١١).

ويتضح وزن المتصوفة داخل المجتمع من خلال الرسالة التي بعثها الأمير علي بن يوسف إلى الشيخ أبي عبد الله محمد أمغار بعيد الفطر يلتمس منه الدعاء والبركة^(١٢) كما أن العوام كانوا بدورهم يتقاطرون على الأولياء لحل مشاكلهم^(١٣) أو التبرك بهم^(١٤). ومما يؤكد تعلق العامة بالأولياء نتيجة سلوكهم المتقشف وزهدهم في الحياة ما ذكره ابن القاضي^(١٥) عن أحد المرابطين الذي ذهب لزيارة أحد الصالحاء، فرأى الناس يزدحمون عليه ويقبلون رأسه ويده. وبالمثل كانوا يحضرون بجموع غفيرة لتشيع جنازاتهم ويتمسحون بنعوشهم^(١٦) ولا غرو

(١) انظر رواية تفيد ذلك في المصدر نفسه، ص ٢٢٢، ترجمة أبو محمد ياسين الدغوفي.

(٢) البروض العاطر الأنفلس، م.س. ورقة ١١ ب.

(٣) ابن الزيات: م.س. ص ٢٥٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٤، ترجمة ١٠٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٦، ترجمة ١١٢.

(٦) ابن القاضي: م.س. ق ٢ ص ٥٠١.

(٧) ابن الزيات: م.س. ص ١٤٧ - الصومعي: م.س. ورقة ٤ ب.

(٨) الصومعي: م.س. ورقة ٤ ب.

(٩) الشراط: م.س. ورقة ١١٤ أ.

(١٠) ابن القاضي: م.س. ق ١ ص ١٠٥، ترجمة أبو بكر بن عثمان بن مالك الكتاني - سلوة الأنفلس ج ١ ص ٢٦٩.

(١١) ابن مريم: البستان في ذكر أولياء وعلماء تلمسان ص ٣٠٣.

(١٢) الأزموري: بهجة الناظرين... (مخ) ص ٣١.

(١٣) ابن بشكوال: م.س. ج ١ ص ١٥٢، ترجمة حماد بن عمار، ص ١٧٢ ترجمة خلف بن محمد الانتصاري.

ص ٢٨٠ ترجمة عبد الله بن سعيد، ص ٢٣٥ ترجمة ابن الجنان.

(١٤) التميمي: م.س. ص ١٤٢.

(١٥) جذوة الإقتباس ق ١ ص ١٠٥.

(١٦) ابن الزيات: م.س. ص ٢٣٠، ترجمة ٨٢.

فإن أهل تلمسان ما إن سمعوا بموت الشيخ أبي مدين حتى «اتوا كأنما ساقهم سائق لحضور جنازته»^(١)، بل إن بعض القبائل تنافست حول من تحظى بدفن أحد الأولياء بأرضها^(٢).

٤ - الثقافة الدينية: من خلال تتبع مختلف تراجم الأولياء يتبين أن السواد الأعظم منهم تمكنوا من الحصول على بعض العلوم، في حين لم تكن سوى أقلية صغيرة منهم أمية، فمن خلال ١٠٧ تراجم التي يوردها ابن الزيات، لا نجد إلا ٧ أولياء من الأميين مثل أبي يعزى^(٣). ومع ذلك، فإن المصادر نسبت إلى هذا الأخير قدرته على إدراك علم التصوف^(٤)، وفتح بصيرة بعض المريدين^(٥). بل يقال إن بعض الفقهاء كانوا يحضرون مجلسه^(٦). ورغم أن يعلى أبا جبل كان أمياً، فقد ظل يحدوده الأمل في التعلم فكان «إذا علمه أحد آية من القرآن أو مسألة من دينه أعطاه درهما»^(٧).

أما بقية الأولياء فقد امتلكوا ثقافة دينية متينة، وتعاطوا بمختلف العلوم. وحسبنا أن الشيخ أبا مدين شعيب اقتنع من خلال تجربته الصوفية أن الله لا يُعبد إلا بالعلم^(٨)، وهو ما جعله يلح على ضرورة الأخذ بكل أصناف العلوم وعلم التوحيد على الخصوص^(٩)، لذلك لم يتقاعس في التردد على مجلس أستاذه ابن حرزم^(١٠)، ويمعن في دراسة رعاية المحاسبي وكتاب السنن^(١١) وحسبما تذكره بعض النصوص، فقد دارت بينه وبين أحد أشياخ الموحدين مناظرة حول عقائد التوحيد سنة ٥٤١ هـ، وهي السنة التي أطلع فيها هؤلاء بالحكم المرابطي^(١٢) كما كان متعمقاً في شرح القرآن^(١٣) متمكناً من الحديث، وخصوصاً جامع الترمذي^(١٤) حافظاً لمذهب مالك، يجيب عن النوازل^(١٥) ويحل ما أشكل من الأحاديث النبوية^(١٦) فضلاً عن تألقه في شعر الزهد^(١٧).

إلى جانب الشيخ أبي مدين، ثمة عدد من الأولياء الذين نبغوا في مختلف العلوم الدينية.

- (١) الصومعي: م.س. ورقة ١٩٢.
- (٢) ابن الزيات: م.س. ص ٢١، ترجمة ٢١.
- (٣) Farhat et Triki, op. cit., p.43.
- (٤) ابن عبد الملك: م.س. ج ٦ ق ٢ ص ٤١٩ - ابن الزيات: م.س. ص ٣٢٣.
- (٥) الصومعي: م.س. ورقة ١٠٤ ب.
- (٦) المصدر نفسه ورقة ٢٠٣ ب.
- (٧) ابن الزيات: م.س. ص ١٠٢.
- (٨) ابن القاضي: م.س. ق ٢ ص ٥٣١.
- (٩) انظر كتاب: أنس الوحيد ونزهة المريد (مخ) ص ٣١٤، ٣١٨، ٣٢٠.
- (١٠) العبدوني: يتيمة العقود الوسطى (مخ) ص ٣٧٧.
- (١١) الصومعي: م.س. ورقة ٧٢ ب.
- (١٢) المصدر نفسه ورقة ٢٤ أ.
- (١٣) ابن الطواح: سبك المقال لفك العقال (مخ) ص ٢٨.
- (١٤) التنيكتي: م.س. ج ١، ص ١٩٠.
- (١٥) ابن مريم: م.س. ص ١٠٨.
- (١٦) انظر ما رواه الصومعي عن اختلاف فقهاء بجاية في تفسير الحديث نبوي فالتجأوا إليه فحل لهم ما أشكل من الحديث. انظر: م.س. ورقة ٨٨ ب.
- (١٧) أبو مدين: قصيدتان في التصوف (مخ) ورقة ٦٩ - مؤلف مجهول كناش يضم قصائد (مخ) ص ١٧٢ - المقرئ ازهار الرياض... ج ٢، ص ٣٠٨.

فغالب بن عطية المحاربي عد من مفاخر الأندلس «مذكوراً في أحاديث المبرزين في رئاسة العلم والدين»^(١). كما اعتبر ابن الحطينة اللخمي «رأساً في القراءات السبع»^(٢). أما ابن العريف فهو ممن جمع بين علمي الشريعة والحقيقة^(٣)، وله مشاركة في اصناف من العلوم خاصة القراءات وجمع الروايات^(٤). وكان أبو محمد عبد الجليل بن ويحلاّن «إذا قضى من تدريس الفقه يأمر أصحابه بالخوض في أمور العلم ويتكلم في أسرار العلوم والمعارف والحقائق»^(٥). بينما عرف علي بن إسماعيل بن حرزهم بتضلعه في مسائل الفقه والحديث ومعرفة التفسير^(٦).

ونستخلص ثقافة ابن برجان من خلال ترجمته كذلك، ولا غرو فقد «كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتصوف»^(٧). واشتهر محمد بن الحسين الميورقي بعلو كعبه في مختلف العلوم، لذلك تقاطر عليه طلاب العلم من كل صوب وحذب^(٨). أما أبو الفضل يوسف بن النحوي فقد شبه بالغزالي لغزارة علمه^(٩)، إلى جانب قوله الشعر^(١٠)، ناهيك عن متصوفة آخرين نبغوا في شتى مناحي المعرفة^(١١). ونستنتج من إحدى رسائل المتصوفة تقدير هؤلاء للعلم والعلماء^(١٢). وهذا ما جعل أحد الباحثين^(١٣) يخلص إلى القول بأن «معظم رجال التصوف المغربي ودعائه كانوا من أهل العلم بأصول الدين وفروعه».

٥ - الجانب الإنساني: يشكل هذا الجانب كذلك قاسماً مشتركاً بين جل الاتجاهات التصوفية. فمن خلال قراءة في تراجم متصوفة وأولياء الحقبة المرابطية، يبرز الجانب الإنساني في سلوكهم ومواقفهم. يتجل ذلك في قيم الرحمة والإحسان والإيثار التي جعلوها مبدأً، وغاية، حتى صارت من مكونات شخصيتهم. فقد جيلوا على مشاركة الفقراء إحساسهم بمرارة الفقر، وبذل ما ملكت أيديهم بسخاء، حتى أن الولي أبا العباس السبتي جعل مبدأ الصدقة والإحسان حجر الزاوية في فلسفته التصوفية^(١٤) كما أن ابن قسي باع كل ما كان يملك وتصدق به على المعوزين وذوي الحاجات^(١٥).

- (١) ابن سعد: م.س. ص ١٥٢.
- (٢) ابن القاضي: م.س. ج ١، ص ١١٦.
- (٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة... ج ٥ ص ٢٦٩.
- (٤) السيوطي: طبقات المفسرين، ص ٦٨ - التنكي: م.س. ص ١٦٢ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١، ص ١٦٩.
- (٥) العبدوني: م.س. ص ٤١٥، ٤١٦ - الصومعي: م.س. ورقة ١٥.
- (٦) ابن القاضي: م.س. ق ٢ ص ٤٦٤.
- (٧) السيوطي: م.س. ص ٦٨ - التنكي: م.س. ص ١٦٢.
- (٨) ابن الأبار: المعجم، ص ١٢٩.
- (٩) ابن مريم: م.س. ص ٣٠٠.
- (١٠) مؤلف مجهول: كنائس فيه مجموع قصائد، ص ٢٥٢.
- (١١) انظر الذهبي: معرفة القراء الكبار ج ٢ ص ٤٤٤، ترجمة أحمد بن محمد بن عبد الله البنييم - ابن بشكوال: م.س. ص ١٧٠، ١٧٢، ١٧٥، ٢٨٠.
- (١٢) ابن العريف: مفتاح السعادة وتحقيق الإرادة (مخ) ص ١٦١.
- (١٣) علاّال الفاسي: م.س. ص ٤٦.
- (١٤) هذا ما يفسر حكم ابن رشد على مذهبه بأنه يقوم على قاعدة «الوجود ينفع بالوجود، انظر ابن الزيات: أخبار أبي العباس السبتي (تحقيق أحمد التوفيق) نشر كذيل على كتاب القشوف م.س. ص ٤٥٤.
- (١٥) ابن الخطيب: أعمال الإعلام (تحقيق برونسفال) ص ٢٥٠.

ويبرز هذا الشعور الإنساني الموهف في تعاملهم مع مختلف الكائنات والحيوانات، والروايات المنقبة تكشف عن معاشرتهم وصحبتهم لمختلف الحيوانات. فأبو مدين كانت تأتيه كل يوم غزالة تتمسح به، وتبصص الكلاب أمامه^(١). وعرف ابن حزمهم بمعاشرتهم للأسد^(٢). ويذكر الهروي^(٣) أن المتصوف أبا عبد الله التاودي دخل يوماً بيته ليأخذ منه كساءه فوجد هرة قائمة لم يرد إزعاجها، وترك الكساء حتى استيقظت. وفي السياق نفسه، ورد في ترجمة أحد المتصوفة أنه كان يقطع شجر سدر، فصادف رجل قنقذ وكسرها، وألمه ذلك وحز في نفسه، فعمد إلى ربط رجل القنقذ بجبار. وأخذ يرعاه ويطعمه إلى أن انجبر^(٤). ناهيك عن روايات أخرى تصب في الاتجاه نفسه^(٥).

خلاصة القول أن العصر المرابطي عرف اتجاهات صوفية متعددة اختلفت رؤاها وقاعدة انطلاقها. غير أن بعض العناصر شكلت قواسم مشتركة بينها، لكن ما هي مواقفها من السلطة والقضايا الاجتماعية؟

يلاحظ أن مواقف المتصوفة تباينت بين التيار المعتدل الذي سعى إلى إصلاح المجتمع عن طريق التعايش مع النظام المرابطي، ثم التيار المتطرف الذي نهج أسلوب الثورة وعمل على الإطاحة به. وسنعالج في البداية موقف التيار المعتدل الذي سلك المعارضة السلبية.

ثالثاً: موقف التيار الصوفي المعتدل من المجتمع

لم يعيش هذا التيار بمعزل عن مجتمعه الذي عصفت به الأزمة، لكنه في الوقت نفسه لم تتوفر له الحرية للتعبير عن مواقفه من القضايا السياسية والاجتماعية. كما لم يملك من القوة ما يمكنه من تغيير الأوضاع، لذلك وظف الكرامة برموزها المتنوعة والهادفة، للتعبير عن رؤيته في إصلاح المجتمع وإعادة بنائه. وبما أننا لا نملك نصوصاً واضحة وصريحة عن موقفه من نظم الحكم والسياسة والمجتمع، فإننا سنحاول تفكيك رموز بعض الكرامات الصوفية لنستخرج منها بعض مواقفه تجاه هذه القضايا، لأن الكرامة ليست مجرد مشاهدات سحرية أو ظواهر خرافية، بقدر ما هي عطاء صادق للواقع، وأبنة شرعية للأزمة التي عمت المجتمع في أواخر العصر المرابطي. لذلك جاءت بمثابة تعرية لهذا الواقع، ومحاسبة للمسؤولين عن الأزمة، كما امتلكت رؤية خاصة لمعالجة قضايا المجتمع. وإذا كانت تبدو في الظاهر رواية مقتضبة أو حكاية خيالية، فإنها في العمق ظاهرة كلية متعاضدة مع النظم والمعتقدات الاجتماعية. غير أن خطابها في الغالب الأعم، خطاب غير مباشر، يعتمد على الرمز والتمويه والمناورة واللف والدوران، للإفصاح عن جملة من التطلعات والهواجس الخفية، والإعراب عن مواقف لإعادة بناء المجتمع.

وقبل تحليل مواقف هذا التيار الصوفي من خلال بعض كرامات الأولياء، نتساءل عن مفهوم الكرامة وموقف الفقهاء منها.

(١) ابن سعد: م.س. ص ١٦٢ - ابن الزيات: م.س. ص ٣٢٢.

(٢) ابن الزيات: م.س. ص ٥١، انظر رواية مشابهة في المصدر نفسه، ص ٣٤٢، ترجمة ١٧٤.

(٣) المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى م.س. ورقة ١٤٣.

(٤) ابن الزيات: م.س. ص ٨٥، ترجمة أبو زكريا يحيى بن الأذى.

(٥) انظر المصدر نفسه، ص ١٢٧، ترجمة ٢٦.

يعرف أحد الباحثين^(١) الكرامة الصوفية أنها بنية أساسية في الفكر البشري، وهي كالبنية العقلانية مرتبطة بنمط مجتمعي وبأسلوب معيشي في الوجود، وهي ممارسة لمعتقد ديني، وتأكيد لهذا المعتقد.

أما في التراث الصوفي فهي بكل بعد خارق للعادة ظهر على يد عبد ظاهر الصلاح في دينه، متمسك بطاعة الله في أحواله^(٢)، ويشترط ابن قنفذ^(٣) صحة الولاية كشرط أساسي لصحة الكرامة. واعتبرها أبو مدين^(٤) مكمل لمعجزات الرسول ﷺ.

وتتراوح الكرامة الصوفية بين رؤية الموتى والكلام معهم، إلى تسخير الحيوان والجماد والمشي على الماء والطيران في الهواء وطبي الزمان والمكان، إلى التنبؤ وخرق كل قانون طبيعي.

وقد أثير جدل حاد بين من أقروا بصحتها، ومن أنكروا ذلك، فالأشاعرة أفتوا بصحتها ووجوب التصديق بها. وعلى ابن رشد^(٥) ذلك بحجتين: الفواتر في النقل وإجماع أهل السنة والجماعة، بل ذهب إلى حد اتهام المنكرين لها بالجهل والضلالة^(٦)، وعلى منواله أقر ابن خلدون^(٧) بصحتها وانتقد كل من أنكروها، بينما وقف المعتزلة موقف الدافع لها، الرافض لصحتها^(٨).

وعلى كل حال، فإن الكرامات عرفت ذروتها خلال العقود الأخيرة من العصر المرابطي، لأن الفكر الكرامي ينشط إبان الأزمات، ووظفت من قبل التيار الصوفي كأداة للنقد والدعوة لإصلاح المجتمع وإعادة بنائه. ويخيل إلينا أن استناده على الكرامة الصوفية لتمرير خطابه يرجع إلى الأسباب التالية:

١ - إن الكرامة هي أكثر الطرق التواء وتمويهاً وتستراً لتوجيه النقد والتعبير عن المواقف، وطرح التصورات البديلة دون الخوف من التعرض لاضطهاد مباشر.

٢ - إنها أكثر الأساليب نزوعاً إلى السلم، وبما أن المتصوفة لم يكونوا يملكون القدرة على مجابهة السلطة عن طريق العنف، فإنهم وجدوا فيها المنبر الذي يوجهون منه طروحاتهم.

٣ - إن الكرامة بمالها من ارتباط وثيق بالدين، وارتكازها على نصوص مقدسة، حتمت على السلطة المرابطية احترامها ولو على مضض، ناهيك عن الاحترام العميق الذي يكنه لها الجمهور. فالدين بنصوصه ووظيفته النفسية يهيئ الذهن لتقبلها^(٩).

لهذه الأسباب، تتبين أهمية الاعتماد على الكرامة كنص يكشف موقف التيار الصوفي المسالم

(١) زيمور (علي): الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم. بيروت ١٩٧٨ ص ٨٢.

(٢) العزني: م.س. ص ٩٠.

(٣) انس الفقير وعز الحقيق. م.س. ص ٤٠٣.

(٤) ابن مريم: م.س. ص ١١٠.

(٥) نوازل ابن رشد، ص ٣٦٨ - البرزلي: جامع الأحكام في نوازل الأحكام، ص ٢٥٤.

(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٧) المقدمة ج ٣، ص ١٠٨٧ وكذلك ج ١، ص ٣٧٦.

(٨) ابن سبع: الحجة في إثبات كرامات الأولياء (مخ) ص ٦.

(٩) زيمور: م.س. ص ٢٦.

يرمز الوضوء في هذا النص إلى التطهر وإزالة النجاسة، وغسل الذنب والإعداد للحياة النقية: وبقاء الماء على حاله دون نقصان يرمز إلى استمرار فرصة التوبة، وفتح الباب لكل من يرغب في دخول المجتمع الجديد متطهراً من عيوبه وذنوبه. والماء في حد ذاته رمز للحياة الجديدة وإعداد للحياة النقية الخالية من الشوائب^(١). كما أن المشي فوق ماء البحر الذي يظهر في عدد من النصوص المنقبية^(٢) يعني الدخول في بحر هذه الحياة النقية. وماء البحر رمز لاستمرار الحياة الطاهرة، ونجاة لمن يرغب في الخلاص. في هذا الصدد ذكر التميمي أن قوماً عطشوا حتى أشرفوا على الهلاك، فدخل الولي أبو عبد الله محمد بن سالم إلى البحر حتى بلغ صدره «فأخذ يغرف بكفيه فسقاهاهم ماء عذباً حتى رويوا جميعاً»^(٣). فالماء يلعب دور المنقذ والمتصوف يؤدي دور الوسيط في عملية الخلاص.

من ناحية أخرى، يلاحظ أن النصوص المنقبية تزخر بذكر سياحة الأولياء في السواحل وكسب قوتهم عن طريق صيد الأسماك^(٤). والسمة هي كذلك رمز للتجدد، ففي الأساطير العربية والأديان، تدل السمكة على الانبعاث والتطهر من الخطيئة. وتقوم قصة النبي يونس قرينة على ذلك^(٥).

الرغبة نفسها في البعث والتجديد تتضمنها كرامة أخرى صورت قدرة أحد الأولياء على تحويل التراب إلى ذهب^(٦)، وهو تحول في اتجاه الأسمى، من المعدن الخسيس إلى المعدن النفيس، من حياة قذرة إلى حياة سامية^(٧). وهو رمز يعكس رغبة هذا الولي في بلوغ الهدف الأسمى.

ولا تقل كرامة أخرى شأنها في الإفصاح عن رغبة المتصوفة في بعث مجتمع جديد وبنائه انطلاقاً من الصفر. يخبرنا الصومعي^(٨). أن رجلاً قصد الولي أبا يعزى للدخول في طريقة المتصوفة، فتخيل للرجل كأن الولي أمسك قاذوماً كسر بها جميع أعضائه، ثم أخذ يركبه تركيباً جديداً «من قدمه إلى دماغه، حسب تعبير صاحب الرواية، وهي رواية غنية عن كل بيان، تعكس طموح المتصوفة في إعادة بناء العنصر البشري في المجتمع المنشود.

يتضح مما سبق أن الموقف الصوفي الذي يوجد في ثنايا الكرامات الصوفية سعى إلى الخروج من الأزمة عن طريق إلغاء المجتمع القائم وإعادة خلق مجتمع جديد.

وإذا كانت رؤية المتصوفة، كما استخلصناها من النصوص المنقبية تهدف إلى بناء مجتمع جديد تحت قيادتهم، فما هو موقفهم من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟

(١) زيعور: م.س. ص ١٨٢.

(٢) انظر على سبيل المثال: ابن القاضي: م.س. ص ١٨٢.

(٣) المستفاد، ص ٣٤.

(٤) المازوني: م.س. ص ٢٢٢ - ابن الزيات: م.س. ص ١٨٢، ترجمة ٥٩ - ص ٢٢٢.

(٥) انظر سورة الصافات آية رقم ١٤٤.

(٦) جاء على لسان أحد الأولياء، ويدعى أبو عمر بن ميكسوط الدغوي مخاطباً رجلاً أراد أن يمنحه غلبة معلومة بالدرهم: «أردت أن أخذ منك ما أحاسب عليه، ولو أردت أن تكون داري فضة لكنت، فنظر الرجل إلى جدرانها وقد انقلبت فضة ثم قبض في التراب الذي كان يحفره فإذا هو انقلب ذهباً. انظر: ابن الزيات: م.س. ص ٤٢.

(٧) زيعور: م.س. ص ١٩٧.

(٨) المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى م.س. ورقة ١١٣ ب، ١١٤.

تحمل الكرامات الصوفية خطاباً سياسياً واضح المعالم، إذ تتضمن دعوة لمنامضة الظلم والظغيان، وتستعمل أسلوب الاستعارة Allegorie لترشيد السلطة المرابطة، وتوظف حكاياتها للانتصار على الظلم إما بوابطة الدعاء بالهلاك، أو التهديد بالرؤيات والأحلام، أو عن طريق تسليط بعض القوى الخارقة كالجن على المستبد. وفي كل الأحوال، كان النقد موجهاً للامراء وولاة المدن أو القضاة ورؤساء النواحي.

وتفيض كتب المناقب بنماذج من هذا القبيل: جاء في إحدى الروايات الكرامية أن رجلاً قصد الولي عبد الله بن وكريس، فأخبره بتهديد عامل علي بن يوسف وعزمه على قتله، فطمأنه الولي المذكور. فما مرت سوى مدة قصيرة حتى أصيب العامل بالم قضي على حياته^(١). كما أن رئيس ناحية سجلماسة منع الولي أبا الفضل بن النحوي من التدريس في أحد المساجد، فدعا عليه حتى لقي حتفه من جراء هذا الدعاء^(٢). وبالمثل دعا علي ابن دبوس قاضي فاس «فأصابته أكلة في قرن رأسه انتهت إلى حلقه فمات»^(٣). وتذكر رواية أخرى أن أحد عمال علي بن يوسف طالب الناس بمغارم جائرة، فدعا عليه أحد الأولياء، فوصله في الحين كتاب من الأمير المرابطي يقضي بعزله^(٤).

ويبرز موقف التعاطف السياسي للمتصوفة مع العامة واضحاً في جل الكرامات، فعندما عزم والي أزموغرقتل جماعة من أهالي هذه المنطقة، جاءه الولي أبو أيوب بن سعيد الصنهاجي متشفعاً فلم تقبل شفاعته. ولم يجد هذا الأخير بداً من الدعاء عليه حتى أصابه وجع مؤلم، فلما قيل للعامل أن المتشفع ولي من الأولياء طلب حضوره من جديد، وشفع في السجناء فارتفع عنه الألم^(٥). وتنهض هذه الرواية قرينة على أن العقاب الذي ينشده الأولياء يزول بزوال الظلم. وإذا لم يزول، سيكون الهلاك مصير الظالم. في هذا الصدد ذكر التميمي أن جماعة من العلماء شكوا إلى أحد الأولياء سجن أحد إخوانهم ظلماً وعدواناً، فدعا عليه «ولم يبق سوى ثلاثة أيام حتى توفي من غير مرض ولا حدث عليه»^(٦). كما جاء في كرامة أخرى أن فرقة من عسكر علي بن يوسف عزمت على مداومة إحدى القرى، فاستغاث أهلها بأبي يعزى «فلما بقي بينهم وبين الطريق نصف ميل أصاب القائد وجع فمات»^(٧).

ولا نعدم من الدلائل ما يكشف أن الخطاب السياسي الذي تضمنته الكرامات كان موجهاً كذلك إلى الأمراء. فقد تنبأ أحد المتصوفة بهزيمة تاشفين بن علي لما عزم على مطاردة جيش الموحيدين بوهران، فنصحه بعدم ملاحقتهم. لكن الأمير المرابطي لم يسمع نصيحته، فتأكد للولي أن دولته قد انقرضت^(٨). وفي ذلك دليل على الحكمة السياسية، التي حاولت الكرامة أن تدغم بها الأولياء، وتبرز

(١) ابن الزيات: م.س. ص ١٣٠ - ١٢١ - الصومعي: م.س. ورقة ٢٥ ب.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٣) ابن مريم: م.س. ص ٣٠١.

(٤) ابن الزيات: م.س. ص ١٥١، ترجمة تنفيت اليرصجي.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٨٧ - ١٨٨.

(٦) المستفاد، ص ١٠٦.

(٧) ابن قنفذ: م.س. ص ٢٢.

(٨) ابن الزيات: م.س. ص ١٣٧ - ١٣٨.

مكانتهم السياسية التي تفوق حكمة الأمير نفسه. بل إن بعضها حاولت أن تظهر أن المتصوف ينتصر أحياناً على الأمراء. ويتجلى هذا الانتصار في انبهار هؤلاء بكراماتهم، وتحولهم من حياة البذخ والترف إلى حياة الزهد والتقشف^(١).

وتحمل كرامات المتصوفة كذلك بعداً سياسياً يعبر عن عمق الأزمة والدعوة لتجاوزها من خلال الدعوة للوحدة السياسية والقضاء على كل عوامل الفتنة والفرقة: شفيعنا في ذلك نص يشير إلى أن رجلاً من العسكر كان يؤلب المتمردين، ويثير الفتن بين القبائل، ويشعل بينهم قتيل الحروب. فشكاه الناس إلى أحد الأولياء، فدعا عليه، ولم تمض إلا مدة يسيرة حتى بعثه علي بن يوسف مكبلاً في أغلاله إلى ميورقة^(٢).

في الوقت ذاته، سعت الكرامات إلى تبديد كل تخوف يثني عزم المتصوفة عن مقاومة الظلم السياسي، فهونت عليهم السجن الذي كانت تلوح به السلطة المرابطية. فقد ورد في إحدى الحكايات المنقوية أنه سعي بأحد الأولياء إلى الأمير تاشفين بن علي فسجنه مع مجموعة من المريدن، فكان الكبل يسقط من رجليه تلقائياً كلما أراد الصلاة «وبقي كذلك إلى أن خلى الأمير المرابطي سبيله»^(٣). ومثل هذه الكرامة هدفت دون شك إلى رفع معنويات المتصوفة، وتشجيعهم على الثبات في الشدة، وتبشيرهم بالخلاص من اضطهاد السلطة.

نستنتج مما سبق أن الكرامة الصوفية حملت خطاباً سياسياً يترجم نظرة المتصوفة لأمهات القضايا السياسية، ويحاول أن يفرضهم كطرف أساسي في الحكم من خلال إبراز «حكمتهم» السياسية ودفاعهم ضد ما يلحق الرعية من جور سياسي، فكيف نظرت إلى القضايا الاقتصادية والاجتماعية؟

٤ - موقف المتصوفة من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية:

ليس من قبيل الصدفة أن يرتبط كثير من الكرامات الصوفية بمواسم الجفاف، وعمليات الاستسقاء والتجارة والكوارث الطبيعية والجاعات. ففي المنطقة الصحراوية على سبيل المثال، اشتد عطش الجيش المرابطي حتى أشرف على الهلاك، فدعا عبد الله بن ياسين، وأمر بحفر الموضع الذي كان يضع عليه قدمه، فتفجر بالماء^(٤). كما أن الولي الشيخ يخلف بن خرز الأديوبي أقام بفاس في موضع ينعدم فيه الماء، فضرب بعكازه، حتى خرجت منه عين سميت باسمه^(٥).

واشتكى تاجر لأحد الأولياء ضياع متاعه وماله، فنجح الولي في معرفة موضع المال والمتاع ودله

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٢ ترجمة، أبو زكريا بن يوغان الصنهاجي - المازوني: م.س. ص ٢٢٤.

(٢) المازوني: م.س. ص ٣١١.

(٣) ابن القاضي: م.س. ج ١، ص ٢٦٠.

(٤) ابن الخطيب: أعمال... ج ٣ ص ٢٢١ - ابن عذاري: البيان... ج ٤ ص ١٦ - ابن أبي زرع: م.س. ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٥) ابن القاضي: م.س. ق ٢، ص ٥٦١.

عليه^(١). وبالمثل لجأ سكان اغمات إلى أحد المتصوفة لإخباره بما لحق بزراعتهم من أضرار بسبب الجراد، فدعا لهم وخلصهم الله منه^(٢). فالكرامة الصوفية تعبير مستتر يعكس نظرة الأولياء والمتصوفة، ودعوتهم لإيجاد حلول للمشاكل الاقتصادية، وفي مقدمتها الجفاف والجراد والتجارة، وضرورة مساعدة المتضررين.

وإذا كنا لا نملك ما يكفي من النصوص لقراءة الخلفية الاجتماعية للكرامة، وبالتالي موقف المتصوفة من القضايا الاجتماعية، فلا مناص من وقفة متأنية عند النصوص المتاحة. فمن خلال الحكايات الكرامية المتناثرة في ثنايا كتب المناقب، يتضح أن المجتمع الذي كان ينشده المتصوفة، مجتمع يخلو من كل التناقضات، يعيش فيه الإنسان والحيوان والنبات في علاقات حميمة ينعدم فيها الاستغلال والعدوان (بين الإنسان والإنسان، والإنسان والحيوان). وتكشف بعض الكرامات مدى استئناس الإنسان بالحيوانات المفترسة: فهذا ابن حزمه يربض أمامه أسد، ويمسح عنه بيده ويفتل أذنيه دون أن يتجرا الأسد على إيذائه^(٣). وهذا الولي أبو يعزى يمسح بيده وهو طريح الفراش على ثور، ويلحس هذا الأخير جسد الولي بلسانه^(٤). بل إن الحيوانات المتنافرة نفسها تتعايش، وتذوب بينها الروح العدوانية في هذا المجتمع الذي تصوره المتصوفة. ففي رواية عن أبي يعزى الأنف الذكر، أن وفداً من مريديه عزموا على زيارته، فلما وصلوا تركوا دوابهم على بعد مسافة من منزل شيخهم. وعندما خرجوا من عنده، وجدوا سباعاً رابضة إلى جانب دوابهم. فلا السباع افترست الدواب، ولا الدواب نفرت من السباع: إنه مجتمع يحس فيه الكائن بالطمأنينة والأمن والسلام^(٥).

ولم يقتصر الاندماج في هذا المجتمع على الإنسان والحيوان أو الحيوانات فيما بينها، بل شمل كذلك النبات والطبيعة إلى درجة أن نظرة الإنسان وعاداته تتغير تجاه المالكوف والشائع. فمسلوج الكلخ والدفلى التي تحتوي على مرارة قل نظيرها، تصير حلوة المذاق لكل من أعد نفسه لهذا المجتمع الذي نادى به المتصوفة^(٦). بل إن إحدى الكرامات تذكر أن النخيلات المنتشرة ببحيرات الرقائق بمراكش شاركت في جنازة أحد الأولياء. ورغم ما تحمل هذه الكرامة من مبالغة، فإنها تعكس نظرة الأولياء وطموحهم في خلق مجتمع تتعايش فيه كل الكائنات الحية. لكن ما هي المثبطات التي تحول دون بناء هذا المجتمع في نظرهم؟

إن إلقاء نظرة على الحكايات الكرامية تثبت أنهم أرجعوا سبب ذلك إلى المال، لذلك صبوا عليه جام غضبهم، فوصفوه أحياناً «بأوساخ الناس»^(٧) وأحياناً أخرى «بالشياطين»^(٨) ورفضوا امتلاكه.

(١) التميمي: م.س. ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) ابن الزيات: م.س. ص ٢٥٣، ترجمة أبو صالح محمد بن عمر.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٢، ترجمة ٥١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٦) العزفي: م.س. ص ١١٤.

(٧) ابن الزيات: م.س. ص ٢٤٢ - ٢٤٣، ترجمة ٩٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٧، ترجمة ٩٩.

(٩) المصدر نفسه، ص ١١١، ترجمة أبو محمد عبد السلام التونسي.

بالتصوف أبو بكر يحيى بن محمد أقام مدة لم يعقد على دينار ولا درهم^(١)، ويصور ابن الزيات^(٢)، وغيره^(٣) موقف المتصوفة من المال في رواية باللغة الدلالة وردت في ترجمة الشيخ أبي مدين شعيب، فيذكر أن بعض الحيوانات الفت صحبتته في خلوته، غير أنها أنكرته في أحد الأيام بسبب ذراهم توفرت لديه. ومعلوم أن الولي ابن حزم رفض حقه من ميراث أبيه، وتنزه عنه بعد أن شغله عن الصلاة والعبادة^(٤)، وبصفة عامة، فإن المتصوفة نبذوا المادة واعتبروها أساس الصراعات الاجتماعية^(٥).

ومقابل ذلك صور الفكر الكرامي المال الخاص بعالم الأولياء فسماهما «بالدراهم الطرية».. ذكر الصومعي في هذا المعنى أن رجلاً أتى بدراهم إلى المتصوف أبي عبد الله التاودي، فرفض هذا الأخير قبولها، فلما ألح عليه رفع الولي سليخة كان يجلس عليها «فراى دراهم طرية.. وعلم أنه غني بالله لا بدراهم بني آدم»^(٦)، فالمال في المجتمع الذي تصوره المتصوفة مال الله الذي لا يفنى، وليس المال الملتصق بالحرام والابتزاز.

غير أن هذا المال يجب أن يسخر في خدمة الفقراء ومواساة المحتاجين. ذكر ابن الزيات أن رجلاً مستضعفاً جاء إلى أحد الأولياء، وشكا له عدم قدرته على شراء أضحية العيد «فعد هذا الأخير يده، وقبض في الهواء، ومده بدراهم طرية جديدة»^(٧).

وشكل هاجس الصدقة والإحسان موضوعاً جوهرياً في كرامات الأولياء. ولدينا نصوص ضافية تصب كلها في وجوب أخذ أموال الأغنياء والتصدق بها على المستضعفين، وعدم امتلاك «الفائض» أو ما يزيده عن الحاجة^(٨). مما يدل على أن المجتمع الذي كان المتصوفة يطمحون إلى بنائه، مجتمع يتعدى فيه الفقر، وتسود فيه العدالة الاجتماعية.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.

(٣) ابن صعل: م.س. ص ١٨١ - ١٨٢ - التنيكتي: م.س. ص ١٢٧.

(٤) التنيكتي: م.س. ص ١٩٨ - ابن الزيات: م.س. ص ١٧٠ ترجمة ٥١.

(٥) ورد في ترجمة المتصوف أبي عبد الله التاودي ما يلي: «حدثني أبو علي حسن بن محمد بن الفتح الفافقي الصواف قال: سمعت الشيخ أبا مدين شعيب بن الحسين الأنصاري يقول: زار أبا عبد الله التاودي رجلان فابصرا بين يديه هرين صغيرين قد جعل كل واحد منهما رأسه على الآخر، فقال هكذا ينبغي أن تكون أخوة بني آدم. فمضغ أبو عبد الله خبزاً ورواه إليهما فوثب كل واحد منهما على الآخر، فقال لهما: هكذا كانت أخوة بني آدم حتى دخلت بينهما الدنيا. فلما دخلت بينهما أفسدت أخوتهم. انظر ابن الزيات: م.س. ص ٢٧٢، ترجمة ١٢٠.

(٦) المعزى... م.س. ورقة ١١٠٢.

(٧) المتشوف... م.س. ص ١٢١، ترجمة ٢٢.

(٨) ذكر ابن الزيات أن رجلاً كان يملك درهماً، فذهب إلى السوق للإتفاق، فقابلته أحد المتسولين، فهم بإعطائه قيراطاً وإتفاق القيراط الآخر، غير أنه رده إلى جيبه فراه أحد الصالحين وعرف «بقلبه» أنه امتنع عن الصدقة، فأمره بدفع القيراط إلى المتسول. انظر: م.س. ص ٢٨٨، ترجمة ١٢٠.

وفي الوقت نفسه حاول هؤلاء التخفيف عن الفقراء بالتمنيات والرؤى والأحلام^(١)، وإبراز عدم جدوى الطعام والترف بواسطة مجموعة من الحكايات التي تمجد الفقر وتقهر النفس وتستسيغ الموت^(٢). كما وظفوا كراماتهم لانتقاد السياسة الجبائية الجائرة سواء في المدن أو البوادي والدفاع عن مصالح الفقراء الذين أثقل كاهلهم بها. وفي هذا الصدد ذكر ابن الطواج أن الولي أبا مدين شعيب «كان يخدم الجن ويسلطهم على الظلمة بالبوادي، فلا يزال الضعفاء ينتصفون ببركته»^(٣). كما وظفوها لمناهضة الجور والاعتداء على حقوق الغير، والأيتام على الخصوص، عبر أحلام ورؤيات تقنع الظالم برد الحق إلى صاحبه^(٤).

أما موقف المتصوفة من الجانب الأخلاقي فيبرز كذلك من خلال الكرامات الصوفية. وحسبنا أن هذه الأخيرة جاءت انعكاساً لحقبة تردت فيها السلوكات الأخلاقية، وانعدمت فيها القيم والمبادئ، واستشرى فيها الفساد والميوعة، فعبرت برموزها الخاصة عن إدانتها لهذا التردى، مستعملة عنصر «المكاشفات» أو «الرؤية بالقلب». فالولي له من القدرة ما يجعله قادراً على استكشاف أسرار الناس، والوقوف على فضائلهم الأخلاقية التي يصرون على كتمانها. فمن الكرامات المشهورة التي انفرد بها الولي أبو يعزى، قدرته على الاطلاع على أحوال الواقفين عليه. فقد فضح أحد مرديه بأنه زنى مع زوجة أخيه الغائب^(٥). كما كشف خيانة رجل آخر واعتدائه على إحدى الأمانات^(٦). وكشف لآخر بأنه تارك للصلاة^(٧)، إلى غير ذلك من المكاشفات التي تترجم دعوة صريحة للتخلي بالمثل العليا والشمائل الحسنة، وتقرب عن التذمر من مجتمع نخره الفساد الأخلاقي دون أن يجد سلطة حازمة تضع حداً لاستشراء الميوعة والمنكرات.

نستخلص مما سبق أن الكرامة الصوفية عبرت عن موقف التيار الصوفي المسالم، وخطته لبناء مجتمع جديد تسوده العدالة الاجتماعية، وتتغني فيه أساليب الاستقلال والعدوانية والظلم والجور، وأبانت أن الأولياء - وحدهم دون غيرهم - مؤهلون لقيادة الدولة والمجتمع. وعلى الرغم من أهمية المواقف التي تبناها هذا التيار الصوفي يمكن أن نخرج بخصوصها بالملاحظات التالية:

١ - إن البديل الذي طرحه هذا التيار الصوفي لم يرق إلى مستوى طرح حل شمولي وجذري

(١) ورد في إحدى الكرامات أن رجلاً لم يأكل اللحم مدة طويلة فرفع صوته بالدعاء، فإذا برجل يقرع باب داره ومعه شاة سمينة، انظر القشوف... م.س. ص ٣٠١. وهناك رجل آخر عسر عليه في عام مجاعة العثور على قرص شعير فرائى في المنام أنه أوتي بقصعة من ثريد، فآكل حتى شبع، وفي الصباح وجد نفسه متخماً، انظر التميمي: م.س. ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) يلاحظ في كثير من الكرامات أن المتصوفة كانوا يحبذون الموت ويستسهلون ويعتبرون أن الحياة الدنيا ما هي إلا ممر نحو الحياة الآخوية التي هي حياة الخلود الحقيقية، لذلك كان الكثير منهم يموت وهو يبتسم، بل إن بعضهم رفض تناول الدواء زهداً في الموت، انظر العبدوني: م.س. ص ٣٩٧.

(٣) سبك المقال لفك العقال (مخ) م.س. ص ٢٨.

(٤) العزى: م.س. ص ١١٣ - ابن الزيات: م.س. ص ٢٢٩.

(٥) ابن الزيات: م.س. ص ٢١٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٧) ابن القاضي: م.س. ق ٢ ص ٥٦٠، ترجمة يعلى أبو جبل - الكتاني: زهرة الاس... (مخ) م ١ ص ٥٠٤.

للأزمة، بل طرح حلولاً انفرادية ومؤقتة^(١).

٢ - تميّز هذا البديل بروحه الانهزامية، فهو يمجّد الفقر، ويقهر النفس، ويحقق الرغبات بالتمنيات، ويستسيغ الموت، وكلها حلول تبرز عجز المتصوفة عن مجابهة الأزمة بالطرق الممكنة للانتصار عليها.

٣ - هناك إرجاء لمحاكمة السلطة المرابطية المسؤولة عن الأوضاع. صحيح أن الكرامة كانت تبرز رغبة المتصوف في ترشيد السلطة أو تحريرها عن طريق استقطابها إلى عالم التصوف. لكن ذلك كان «يسكن» الوضع أكثر مما يعمل على تغييره، ويلغي مسؤولية السلطة في تكريس الأزمة.

٤ - اعتمد هذا التيار في مناهضته للجور والظلم بالدعاء والنزعة الاتكالية وإرجاع الأمر إلى الله، وهي مناهضة لا تقوم على العقل ولا على الثورة لتغيير الواقع.

٥ - تميّز البديل الذي طرحه المتصوفة عبر كراماتهم بالتطرف المثالي، فهم يريدون أن يقيموا مجتمعاً جديداً ويدمروا المجتمع القديم، ويلغوا المادة نهائياً، ويطبقوا علاقات جديدة لا تسودها العدوانية والصراع: إنه بديل يقفر فوق الواقع ويسبح في المثاليات.

٦ - في الوقت الذي دعا المتصوفة إلى بعث مجتمع جديد، فإنهم لم يلغوا السلطة، بل كرسوا وجودها بعدم تحميلها المسؤولية كاملة، فحملوها للولاة وعمال الأقاليم، مما شكل تناقضاً واضحاً في فكرهم الرامي إلى تغيير المجتمع برمته.

إن البنية الأساسية في الحلول التي طرحوها ذات طبيعة وجدانية. أما دور العقل فيكاد ينعدم، والبديل الذي قدموه ذو وظيفة تصريفية، ينفس ويفرج عن المكبوتات ولكنه لا يعطي حلاً مقنعاً وجدياً.

فحصلة القول أن التيار الصوفي الذي اعتمد على الكرامات كأسلوب للنقد، كانت له مواقف من أزمة المجتمع وقضاياه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وهي مواقف تمّ الكشف عنها من خلال الكرامات التي وظفت من قبل المتصوفة لمناهضة الأوضاع. غير أن البديل الذي طرحوه اتسم بجنوحه نحو المثالية، والتناقض والحلول الانهزامية، ولكنه مع ذلك أثر في موقف السلطة المرابطية منهم، وهو ما سنفصله الآن.

رابعاً: موقف السلطة من المتصوفة

إذا جردنا الكرامات الصوفية من عناصرها المثالية، وطقمناها بالنصوص الواردة في كتب السير والتراجم، يتضح أن المتصوفة لم يكونوا يخلقون في سماء الخيال. بل إن السلطة المرابطية وُعث - ببيعاز من الفقهاء - بخطورة ما يطرحون في كراماتهم من مواقف مناهضة لها، لذلك

(١) مما يدل على ذلك ما ورد في إحدى الكرامات من أن أحد عمال علي بن يوسف طالب الناس بما لا يستحقون من الغرام فدعا عليه أحد الأولياء فجاء كتاب الأمير المرابطي بعزله، ولم يؤد الناس الخراج في تلك السنة. ويتضح من ذلك أن العمل كان حلاً انفرادياً لا يهم سوى شخص واحد. كما أن الحل بالنسبة للضرائب لم يشمل سوى سنة واحدة دون السنوات الأخرى. انظر ابن الزيات، م.س. ص ١٥١، ترجمة ٣٦.

استأنست في التصدي لهم عن طريق المراقبة الصارمة والتشدد الذي وصل أحياناً إلى الاعتقال والسجن. لكنها حين شعرت بالفشل في مواجهتهم، نهجت سياسة التقارب معهم. وبناء على ذلك اتخذت علاقة الطرفين شكلين متناقضين:

١ - علاقة توتر: تؤكد النصوص نفور معظم المتصوفة من الأمراء المرابطين، ورفضهم سياسة التقارب معهم. فالمتصوف أبو بكر بن يحيى بن محمد «لم يمش بقدمه في مظلمة ولا إلى باب سلطان»^(١). وعرف أحمد بن يوسف بن السليم المعافري بمباعدته للأمراء والمترفين^(٢). وفي الوقت ذاته كان أبو عبيد الله المجاهد «مباعداً للملوك مع شدة رغبتهم فيه، متافراً لهم لا يقبل منهم قليلاً ولا كثيراً»^(٣). ورفض ابن العريف عروض الأمير علي بن يوسف وهبته^(٤). وفي الاتجاه نفسه نصح المتصوف أبو محمد عبد العزيز التونسي تلامذته بالابتعاد عن تقلد وظائف الدولة، حتى لا يكون بتدريسهم «كبايع السلاح من اللصوص». ومقابل ذلك دعاهم إلى الاعتناء بدراسة زعاية المحاسبي، ونحو ذلك من علوم التصوف^(٥).

وتبرز بعض الروايات ما اعترى بعض المتصوفة من ندم نتيجة تقربهم من السلطة المرابطية، فقد أثر عن المتصوف أبي محمد بن الأمان (ت ٥٤٠ هـ) قوله: «كانت لي أحوال فقدتها من يوم اجتماعي بالسلطان وحديثي معه»^(٦). كما أن متصوفاً آخر «تمنى لقاء ربه وهو لا يحاسبه على كذبة إلا كذبة أكرهه السلطان عليها»^(٧).

ولا تعوزنا النصوص التي تثبت تحدي بعض المتصوفة للأمراء المرابطين في شكل مباشر. فقد انتقد أحدهم تميم بن يوسف بن تاشفين علناً في جامع تلمسان على مال استسلفه من أحباس هذا الجامع، واستنكر أن يرده من «ماله الخبيث»^(٨). وفي السياق نفسه كتب أبو يعزى إلى وال جائر بضع كلمات يهدده فيها ويعدده بالهلاك إذا لم تجد التوبة إلى قلبه سبيلاً^(٩).

لذلك بات بديهي أن يتعرضوا للقمع والاضطهاد والملاحقة. وحسبنا أن أبا الفضل بن النحوي «مُطْلَب فخاف على نفسه فاختنى في جنة له، وبقي بها إلى أن أشرف على الموت من شدة الجوع»^(١٠). ومنع من التدريس في مسجد من مساجد سجلماسة^(١١) كما تعرض أبو لقمان بن يعقوب الأسود للضرب والتكيل^(١٢). وبالمثل أبعاد أبو يعزى عن حومة البليدة بفاس بحجة أن أهل البدع يجتمعون

(١) ابن الزيات: م.س. ص ٢٩٧.

(٢) ابن سعد: م.س. ص ٥٥ - ٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٤) العبدوني: م.س. ص ٣٩٣.

(٥) ابن الزيات: م.س. ص ٩٢ - ٩٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

(٨) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٩) الصومعي: م.س. ورقة ٦٨ ب.

(١٠) ابن الزيات: م.س. ص ١٥٤.

(١١) ابن مريم: م.س. ص ٢٠١.

(١٢) ابن الزيات: م.س. ص ٢٢٢.

يضاف إلى ذلك ما قامت به السلطة المرابطية من مراقبة صارمة على كل من اشتبه في أمره من المتصوفة، فصارت تلتقط أنفاسهم، وتمنع وصول الرسائل والخطابات إليهم أو تستدعيهم لاختبار أحوالهم. وفي هذا الصدد تجمع المصادر على استدعاء علي بن يوسف لابن العريف إلى مراكش بتدبير من قاضي المرية ابن الأسود الذي «خوفه من حاله»، فأرسل مقيداً نحو العاصمة قبل أن تبرا ساحته وهو في سبته (٢). لكنه تعرض لاغتيال شنيع عندما وصل إلى مراكش من طرف قاضي المرية المذكور (٣)، مما يعكس حدة صراع الفقهاء مع المتصوفة، وإن كانت بعض النصوص تجعل وفاته في سبته (٤).

ولم يقتصر اضطهاد السلطة المرابطية للمتصوفة على هذا الحد، بل زجت بهم في السجون، ونذكر من بين الذين تم إلقاء القبض عليهم أبا الحسن علي بن حرزهم الذي سجن في فاس (٥)، كما تم سجن أبي عبد الله محمد بن عمر الأصم وأبي عبد الله الدقاق مع مجموعة من المريدين (٦)، وكذلك أبي عبد الله أحمد بن وشون (٧).

ومن المتصوفة الذين امتحنوا بالسجن كذلك ابن برجان بسبب آرائه التصوفية وتأويلاته للنصوص القرآنية حتى لقي حتفه إثر هذه المحنة (٨) فأمر علي بن يوسف أن يطرح على المذلة ولا يصلى عليه (٩). ولا يستبعد أن تكون مطالبته بالإمامة وراء هذا المصير المشؤوم كما أكد بعض الباحثين (١٠).

وطالت عمليات الاعتقال كذلك محمد بن الحسين المعروف بالميروقي الذي يقول عنه ابن الأبار: «وامتحن بالقبض عليه مع أبي الحكم بن برجان وأبي العباس بن العريف، وتخلص دونهما، فقصد المشرق ثانية وأقام بمدينة بجاية برهة في هربه من المغرب» (١١) وبالمثل تعرض كل من محمد بن أحمد نغارة الحجري ومحمد بن خلف اللخمي للسجن. وقد صنف هذا الأخير وهو رهن الاعتقال

(١) ابن الأحمر: بيونات فاس الكبرى، م.س. ص ٦٦.

(٢) ابن بشكوال: م.س. ج ١ ص ٨٢ - ابن خلكان: م.س. ج ١ ص ١٦٩ - العبدوني: م.س. ص ٣٩٢ - ابن المؤقت: م.س. ص ٥٨.

(٣) ابن بشكوال: م.س. ج ١ ص ٨٢ - ابن خلكان: م.س. ج ١ ص ١٦٩ - ابن الزيات: م.س. ص ١١٩.

(٤) ابن الأبار: المعجم... ص ٢٠.

Agardère, La Tariqa... p.163.

(٥) الصومعي: م.س. ورقة ٦٢ (من الوجهين) - الشراط: م.س. ورقة ١١٦ - ابن الزيات: م.س. ص ١٧٢.

(٦) مؤلف مجهول: كتاب في تراجم الأولياء، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ - ابن سعد: م.س. ص ١٢٦ - ابن الزيات: م.س. ص ١٥٥.

(٧) الجزنائي: م.س. ص ٩٧.

(٨) ابن الزبير: صلة الصلة... ص ٣٢ - ٣٣.

(٩) ابن القاضي: م.س. ج ٢ ص ٤٦٩.

(١٠) Nwiya, Notes sur quelques fragments inédits de la correspondance d'ibn Al Arif avec Ibn Barrajan, p.218. Hes. 1956. TXLVI. 1e et 2e tri.

(١١) المعجم... ص ١٣٩ - التكملة... ج ١ ص ٤٤٠ - ابن إبراهيم: م.س. ج ٣ ص ٤ - ٥.

مجموعاً في التصوف فرغ من تأليفه سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م^(١).

وثمة رسالة كتبها ابن العريف إلى أبي الحسن سيد المالقي الذي زج به في السجن تضمنت خاتمتها ما ينم عن إرادة المتصوفة وصبرهم، وتحملهم أهوال السجن^(٢).

كما غرّب أبو عبد الله الشبوقي عن الأندلس واعتقل بمراكش^(٣). ولم تسلم حتى النساء من القمع والمطاردة، إذ تكشف إحدى رسائل ابن العريف أن رجال الشرطة أمعنوا في تعذيب امرأة لإجبارها على ذكر أسماء بعض المتصوفة، فلما ينسوا منها فقاؤا عينها^(٤).

وحسبما ينقل الشراط^(٥)، كاد أبو عبد الله الدقاق أن يقتل مع جماعة من أهل سجلماسة لولا أن أحد أشياخ قبائل فاس تشفع له.

ولتبريز قمعها، حاولت السلطة المرابطية وضع المتصوفة خارج الشرع عن طريق اتهامهم بالخروج عن السنّة والقول بالتأويل، فعندما أشخص ابن برجان إلى مراكش -سئل عن مسائل عيبت عليه- فأخرجها على ما تحتمل من التأويل، فانفصل عما ألزمه من النقد^(٦). كما حاولت ضرب الاتجاه الصوفي الغزالي بتفجيرها داخلياً عن طريق الادعاء أن كتاب الإحياء يحتوي على مسائل منافية للسنّة. واستعانت في ذلك بالفقهاء الذين اتخذوا موقفاً عدائياً تجاه المتصوفة. وإذا كانت العوامل المذهبية تظهر كأساس في الصراع بين الفقهاء والمتصوفة حيث اختص الفقهاء بالفتيا والأحكام العامة في العبادات والمعاملات، في الوقت الذي تميز المتصوفة بالمجاهدة ومحاسبة النفس والكلام في الآذواق^(٧)، فإن ذلك لم يكن سوى غطاء للصراع الاجتماعي بين فئة ثرية وأخرى تدعو إلى الزهد والتقصّف. وعلى كل حال، ظهر الموقف العدائي للفقهاء واضحاً في تاليف السلطة المرابطية عليهم، وتنظيم الدساتير والمؤامرات، فهم الذين ألجأوا علي بن يوسف على كل من ابن العريف والميورقي وابن برجان^(٨). كما تجمع المصادر على حسد القاضي ابن أسود لابن العريف وتدبير مؤامرة اغتياله^(٩). ورغم سياسة الود والمجاملة التي نهجها أبو يعزى تجاه الفقهاء^(١٠) فإنهم وجدوا فرصة لتطليخ سمعته حين اتهموه بأنه يلمس جسد النساء اللائي يأتين عنده قصد الاستشفاء^(١١) لذلك كان من الطبيعي أن يصف أحد المتصوفة كل الفقهاء الذين تقلدوا الخطط والعمالات

- (١) ابن عبد الملك: م.س. ج ٦ ص ١٧.
- (٢) ابن العريف: مفتاح السعادة ص ١٥٨. ومما جاء في هذه الخاتمة: «قسم الله إن كان سجناً سراحك، وتكفل لك وللحق إنك تكفل العناية، بكم صلاحك بطوله والسلام المعاذ على جميعهم ورحمة الله وبركاته».
- (٣) ابن عبد الملك: م.س. ج ٦ ص ١٨١. ترجمة ٤٩٨.
- (٤) ابن العريف: م.س. ورقة ١٥٢.
- (٥) الروض العطر الأنفاس م.س. ورقة ١٦١ ب.
- (٦) ابن الزبير: م.س. ص ٣٢ - ٣٣.
- (٧) ابن خلدون: المقدمة ج ٣ ص ١٠٦٥.
- (٨) ابن الأبار: المعجم... ص ١٩.
- (٩) التنبكي: م.س. ص ٥٨ - ٥٩ - ابن الزيات: م.س. ص ١١٩ - ١٢٠ - ابن إبراهيم: ترجمة أبي العباس بن عطاء الله الصنهاجي (مخ) ورقة ١ ب و ١٣.
- (١٠) ابن قنفذ: م.س. ص ٣٣. ويذكر أن الفقهاء كانوا يزعمون أبا يعزى، فإذا رامهم يلحس أقدامهم، ويقول لهم: «مرحباً بمواليينا، مرحباً بمصاييح الدنيا».
- (١١) الصومعي: م.س. ورقة ٥٨.

«بالصوم»^(١)، وإن يشتد الصراع بين الجانبين رغم تعاطف بعض الفقهاء التقاة مع المتصوفة^(٢).

ويبدو أن عجز السلطة المرابطية بمساعدة الفقهاء في إطفاء جمره التبار الصوفي جعلها تنتقل من أسلوب المواجهة إلى أسلوب الاحتواء، وهو الشكل الثاني من أشكال علاقة السلطة بالمتصوفة.

٢ - أسلوب الاحتواء: إن عدم قدرة السلطة المرابطية على الاستمرار في أسلوب المواجهة مع المتصوفة لما يتطلبه ذلك من طاقات كبيرة لهزم نفوذهم الروحي في الوقت الذي بدأت موارد بيت المال تشح، جعلها تلجأ إلى استراتيجية جديدة تعتمد على المهادنة والاحتواء، وذلك عن طريق التقرب إلى بعض شيوخ التصوف، ومحاولة استقطابهم لخلق فجوة بين الشيخ ومريديه.

تجلت هذه المحاولات في سياسة التقارب التي نهجها بعض الأمراء المرابطين تجاه المتصوفة. ومحاولة التودد والتزلف إليهم، أو الادعاء باقتناعهم بمبادئ التصوف. فقد ذكر أن الأمير مزدي بن تكان توجه بنفسه إلى أبي محمد عبد السلام التونسي للتبرك به^(٣)، وهو حدث حاول فور Faure^(٤) أن يفسره بغيرته الاحترام، و«حوف» الأمراء من رجال التصوف، بل رأى فيه نموذجاً مشابهاً لزيارة الإمبراطور أوطون لبعض القسيسين وإعجابه بهم. لكن الواقع يكشف أنه لم يكن سوى صورة لسياسة الاحتواء. فالنص لا يبين أن الأمير المرابطي اقتنع فعلاً بطروحات الأولياء أو دخل طريقة التصوف، وبالمثل ورد في ترجمة غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي أنه لما عاد من المشرق ونزل بفرنطة، استقبله أكابر الدولة والفقهاء والوزراء «مفتنمين بركة دعائه»^(٥).

وللغاية نفسها، اتبعت السلطة المرابطية أسلوب الإغداق والإنعام بالأموال على بعض المتصوفة، فقد زار علي بن يوسف كلاً من عبد الجليل بن ويحسان وأبي محمد عبد الله المليحي بأغماط «وبعث إلى كل واحد منهما بألف دينار»^(٦). كما أنه أكرم ابن العريف «وسأله عن حوائجه» لولا أن نفسه تنزهت عن ذلك^(٧).

بيد أن أهم نموذج لاستراتيجية الاحتواء التي تبنتها السلطة المرابطية تجاه المتصوفة تجلت في تلك التجربة التي نجحت مع آل أمغار بعين تيط بأزمور، فقد منح المرابطون شيوخ هذه الأسرة ظواهر التقدير والاحترام. ولدينا ظهير بعثه علي بن يوسف إلى أبي عبد الله محمد بن الشيخ أمغار مؤرخ بربيع الآخر سنة ٥٢٧ هـ / ١١٢٢ م يلتمس فيه دعاءه وبركته^(٨).

(١) ابن بشكوال: م.س. ج ١ ص ٢٥٨، ترجمة أبو محمد عبد العزيز التونسي.

(٢) انظر ما ذكره ابن عبد الملك عن الفقيه عتيق بن عيسى بن أحمد: م.س. ج ٥، ق ١ ص ١٢٧.

(٣) ابن قنفذ: م.س. ص ١٠٨ - ابن الزيات: م.س. ص ١١٠ - ١١١ - المازوني: م.س. ص ٢٢٣.

(٤) Le Tasawwuf et l'école ascétique Marocaine du 11è, 12è et 13è S. p. 126 - 127.

(٥) ابن سعد: م.س. ص ١٥٢.

(٦) ابن الزيات: م.س. ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٧) التنيكتي: م.س. ص ٥٨ - ٥٩.

(٨) مما جاء في هذا الظهير: «من حضرة مراکش حرسه الله عقب ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسائة، وقد علم ما أنت عليه من الخير والدين والجري في أحوالك وعلى نهج الصالح المستبين، فاعتقدناك في الأولياء ورتبتناك في أهل الذكاء، وخطبتناك ناديين لك إلى اختصاصنا بخالص الدعاء.. انظر بهجة الناظرين... (مخ) ص ٣١. وانظر النص كاملاً في الملحق رقم (٣) في آخر الكتاب. ويبدو أن صاحب مفاخر البربر قد اطلع على النسخة الأصلية من هذا الظهير، انظر: مفاخر البربر م.س. ص ٧٤ - ٧٥.

ومن خلال ملاحظة تاريخ هذا الظهير، يتبين أن هذه السنة عرفت ذروة التصوف. كما أنها شكلت بداية الانحدار الحقيقي للدولة المرابطية التي بدأت خزاينها تفرغ، ومنيت بأول هزيمة ضد الموحدين، لذلك حاول علي بن يوسف أن يتبنى بعض المتصوفة ويكسبهم إلى جانبه.

لم يكن من قبيل الصدفة إذن أن يتحول علي بن يوسف من سياسة التباعد مع آل أمغار بسبب موقفهم من كتاب الإحياء وعدم موافقتهم على إحراقه^(١) إلى سياسة التقارب معهم. ولا غرو فقد أصبح الأمير المرابطي يستشير شيخهم عبد الله أمغار في أمهات أمور الدولة، وعلى الخصوص بناء سور مراكش^(٢). بل إن هذا الأخير منحه قدراً من ماله الحلال لجعله في صندوق إنفاق البنين^(٣)، وهو موقف يعكس مساندة واضحة للدولة المرابطين. ومما يعزز هذا القول، الموقف الثابت الذي وقفه آل أمغار مع الملتزمين ضد أعدائهم الموحدين إذ كانوا من بين المجموعات الصنهاجية التي وقفت معهم في خندق واحد^(٤). لذلك حظي عبد الله بن أمغار بوزن كبير، ومكانة مرموقة لدى المرابطين^(٥). وهو ما يفسر قول الأمير علي بن يوسف «فاعلموا أن الشيخ أمغار هو شيخ كل من وصل إليه، ولم يصل من معاصريه، وشيخ المشايخ من الإسكندرية إلى سوس الأقصى»^(٦).

ومن مظاهر سياسة الاحتواء ما ذكره الأزموري^(٧) عن علي بن يوسف الذي أمر أن يجتمع عنده بمراكش صلحاء المغرب والأندلس «فاجتمع عنده في الوقت المعين كل من اشتهر فضله وصلاحه في ذلك العصر».

حسيلة القول أن موقف السلطة المرابطية تجاه المتصوفة تميّز بالتوتر واستعمال الشدة التي وصلت إلى حد الزج بهم في السجون، بينما تحولت في نهاية المرحلة المدروسة إلى محاولة احتوائهم بعد أن عجزت عن كسر شوكتهم. وتكشف محاولة الاحتواء هذه عن الوزن الكبير الذي تمتع به الأولياء والمتصوفة داخل المجتمع، وتأثيرهم القوي في مختلف شرائحه.

خامساً: دور المتصوفة في المجتمع

لا جدال في أن استناد المتصوفة على الكرامة الصوفية، مع ما لهذه الأخيرة من وظيفة نفسية على قطاع عريض من الشرائح الاجتماعية، جعلهم يلعبون أدواراً هامة داخل المجتمع، وعلى الخصوص في الميدان الاجتماعي والاقتصادي، لأن الفرد في أي مجتمع من المجتمعات تتعاقب عليه حالات يشعر فيها بالخوف من البشر (سلطة سياسية، لصوص...) أو من الطبيعة (فقر، مرض،

(١) ذلك ما يؤكد عدم حضور عبد الله أمغار في الاجتماع الذي دعا إليه علي بن يوسف لكافة صلحاء المغرب. انظر: بهجة الناظرين م.س. ورقة ١٦ ب. وانظر كذلك بحث الأستاذ المازوني لنيل دبلوم الدراسات العليا: آل أمغار في تيط وتامصلوحت (بحث مرقن) م.س ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) الأزموري: المصدر نفسه والصفحة نفسها - عباس بن إبراهيم: م.س. ج ١ ص ٩٦ - ٩٧.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) الشيعلي: «آل أمغار: دراسة في تركيب وبناء المجتمع العربي الصنهاجي» في مدينة أزموور في القرن الخامس هـ.

مجلة البحث العلمي عدد ٢٢ ص ١٨ نوفمبر ١٩٨٢ ص ١٧٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٦) الأزموري: م.س. ورقة ١٧.

(٧) المصدر نفسه، ورقة ١٦ ب.

كرارث، جفاف، مجاعات...) أو يعجز عن تحقيق رغباته (إنجاب أطفال، افتداء أسير...) فيكون اللجوء إلى الولي السبيل الأوحـد لتحقيق مسعاه^(١).

وتعكس نصوص الحقة المرابطة صحة هذه القاعدة، إذ تكشف أن الأولياء قاموا بدور اجتماعي لا يمكن إنكاره، فقد كان العوام يلجأون إليهم كلما حاق بهم مكروه، أو كارثة طبيعية كالقحط والجفاف والمجاعات. في هذا السياق، ورد في ترجمة يعلى أبي جبل أن قحطاً ضرب مدينة فاس في أحد الأعوام، فبعث أهاليها رسولاً إليه نيابة عنهم في التماس دعواتهم لهم بنزول المطر، فما رجع الرجل حتى غيمت السماء وغيث الناس^(٢). كما أن أهل تلمسان استسقوا بأبي زكريا بن يوغان الصنهاجي فسقوا^(٣). وبالمثل طلبت الرعية في مدينة داي من الولي أبي زكريا بن محمد الجراوي أن يصلي بهم صلاة الاستسقاء فسقط المطر^(٤). وشهدت فاس جفافاً آخر في بعض السنوات، فاستغاث أهلها بأبي يعزى وقصدوه في المسجد الذي كان يقيم به «فأخذ في البكاء والتضرع إلى أن غيمت السماء وهملت بالأمطار»^(٥). وثمة نصوص ضافية أخرى حول دور الأولياء في الاستسقاء^(٦).

إلى جانب ذلك، لعبوا دوراً هاماً إبان المجاعات. فخلال مجاعة اجتاحت مراكش، جمع أحد المتصوفة الفقراء بجامع علي بن يوسف «فأخرج قمحاً وسمناً كان عنده ففرقه عليهم حتى لم يبق منه شيء»^(٧). كما أن متصوفاً آخر حشد عدداً من المحتاجين في مجاعة سنة ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م «فكان يقوم بمؤنتهم، وينفق عليهم ما يصطاده من الحوت وغيره إلى أن أخصب الناس»^(٨). واضطرت امرأة لبيع منزلها إلى أحد الأولياء بثمان زهيد لتقاوم أهوال مجاعة حلت بالمنطقة التي تقيم فيها، فدفع إليها هذا الأخير الثمن. غير أنه رد إليها فيما بعد منزلها، وطمانها بأن المال الذي قبضه إنما بعته لها لتسد به رمقها في تلك المجاعة^(٩).

ولا تعوزنا الأدلة حول المحاولات التي قام بها المتصوفة للتخفيف من الضرائب التي أثقلت كاهل العوام. فقد بلغ إلى علم أحدهم أن عاملاً من عمال علي بن يوسف طالب الناس بمغارم غير شرعية، فدعا عليه. ولم تمض إلا أيام يسيرة حتى جاء كتاب الأمير بعزله «فلم يؤدوا في ذلك العام شيئاً»^(١٠).

(١) جلاب: الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب، أطروحة دكتوراه (موقعة) ج ١ ص ١٤٢ - Farhat, op. cit., p. 42.

(٢) ابن الزيات: م.س. ص ١٠٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢١٨ - ابن قنفذ: م.س. ص ٢٢ - الصومعي: م.س. ورقة ٦٣ (من الوجهين) - ابن سعد: م.س. ص ١٩٥.

(٦) انظر: م.س. ص ٢٥٥ - ابن قنفذ: م.س. ص ٨ - ابن القاضي ج ١، ص ١٨.

(٧) المازوني: م.س. ص ٢٢٧ - ابن الزيات: م.س. ص ٢٤٦، ترجمة ٩٩.

(٨) ابن الزيات: م.س. ص ١٨٣، ترجمة ٥٩.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٥٣، ترجمة ٣٨.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٥١، ترجمة ٣٥.

ولم يدخر الأولياء وسعاً في إعانة المحتاجين ومد يد العون للفقراء بواسطة الإحسان لهم، وبذل الموسرين منهم كل ما ملكت أيديهم. فابو العباس أحمد بن محمد بن يوسف من أهل سلا «كان ذا مال فتصدق بجميعه»^(١). واستغل أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي ما بعثه إليه علي بن يوسف من أموال «فلم يخرج إلى اغمات من مراکش حتى فرقه على المساكين»^(٢). وكان متصوف آخر يجمع ما يلغظه البحر من مباح الطعام فيبيعه ويشترى بثمانه خبزاً، ويمسك خبزتين، ويتصدق بالباقي على المساكين^(٣).

وأثناء اشتغاله بالرعي، كان أبو يعزى يقيض من أرباب المواشي رغيفين في كل يوم، فيمسك رغيفاً واحداً ويتصدق بالثاني على رجل منقطع في المسجد. وبعد ذلك انقطع رجل آخر، فأثره على نفسه بالرغيف الثاني فصار يأكل ما تنبت الأرض^(٤). أما أبو عمران موسى بن إسحاق المعلم «فما جاءه قط مسكين وعنده ما يعطيه إلا أعطاه، فإن لم يكن معه شيء قام معه إلى السوق يعيش على الناس ويسألهم له»^(٥). بل إن أبا إبراهيم إسحق بن محمد الهزرجي «كان يجرد أولاده من ثيابهم ويعطيها لأولاد الفقراء»^(٦). وبالمثل كان أبو عبد الله محمد بن يعلى التاودي يعلم الصبيان ويأخذ الأجرة من أغنيائهم ويردها على فقرائهم^(٧).

ومما يعكس الدور الاجتماعي العام الذي قام به المتصوفة، ما ذكرته كتب المناقب عن الشيخ أبي يعزى الذي كان يحرق الأرض ويعطي ٩ / ١٠ للمساكين، ويحتفظ بالعشر فقط لنفسه ويقول: «إنني أستحيي أن أمسك تسعة أعشار وأصرف العشر للمساكين، فإن هذا من سوء الأدب مع الله عز وجل»^(٨).

ويقدم أبو العباس السبتي^(٩) أحسن نموذج للدور الاجتماعي للمتصوفة، ومبدئهم الداعي إلى غرس قيم الرحمة والإحسان داخل المجتمع، فقد أجمعت المصادر على أن مذهبه يدور حول عدم تكديس الأموال في يد الأغنياء، وضرورة بذلها بسخاء للفقراء والمساكين. وكان يربط ذلك بشعائر العبادة، فيفسر رفع المؤمن يديه في تكبيرة الصلاة بأنها تعني تخلية عن كل شيء لله، وعدم الاحتفاظ لنفسه بالقليل أو الكثير، كما يفسر الركوع بالمشاطرة في كل شيء. أما السلام في نهاية الصلاة فتعني في نظره الخروج من كل شيء وتسليمه لله تعالى. وتحدث عن فرائض الصلاة وسننها ومستحباتها انطلاقاً من هذه الرؤية، فتحية المسجد بركعتين تعني أن المنحني يضع أعز أعضائه وهو الوجه على

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(٢) المازوني: م.س. ص ٣٢٢ - ٢٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

(٤) ابن الزيات: م.س. ص ٢١٦.

(٥) المازوني: م.س. ص ٢٦٤.

(٦) العبدوني: م.س. ص ٤١٨.

(٧) الصومعي: م.س. ورقة ١١٠ - ابن قنفذ: م.س. ص ٢٥.

(٨) ابن سعد: م.س. ص ١٩٤ - ابن قنفذ: م.س. ص ٢٥.

(٩) من المعلوم أن أبا العباس السبتي لم يعاصر المرابطين سوى في السنين الأخيرة من حكمهم، وكان يبلغ عند سقوط دولتهم ١٧ سنة. لذلك اختصرنا الحديث عنه ولم نوظف من شخصيته ومبادئه إلا ما يهم الحقبة المرابطية، فضلاً عن بعض الظواهر التي شكلت قاسماً مشتركاً بين العصرين المرابطي والموحدي.

الأرض، ويمثل الوجه ماله الذي هو أعز الأشياء^(١).

ويلسر أركان الإسلام الأخرى من صوم وزكاة وحج انطلاقاً من مبدأ التخلي عن الملك للغير، والتساوي بين الأغنياء والفقراء^(٢). فالإحسان يمثل عنصراً أساسياً في فكره ومذهبه^(٣). فبإذ اتاه أحد بني أمر أياه يأمر بالصدقة ويقول له تصدق ويتفق لك ما تريده^(٤). وكان يرى أيضاً أن سبب حدوث القحط والجفاف يعود إلى بخل الناس وعدم بذلهم وسخائهم^(٥). وأثر عنه منذ صغره أنه سأل مدرّسه عن معنى الآية «إن الله يأمر بالعدل والإحسان»، فعرف أن المعنى الذي تشير إليه الآية هو العدل والمشاركة، وأن يكون بين الناس بالإنصاف والسواء، فأعجب بهذه الآية^(٦). كما وظف آيات قرآنية أخرى لتدعيم مذهبه القائم على الصدقة والإحسان^(٧).

ولعل هذا الفكر المستنير الذي حمله أبو العباس السبتي، والمستوحى من روح الإسلام، مع ما يرمز إليه من معاني إنسانية من بذل وعطاء وإيثار يجعله بحق أحد دعاة المساواة والعدالة الاجتماعية^(٨)، خاصة أن متصوفة الفترة موضوع الدراسة فطنوا إلى أن أساس الصراع الاجتماعي أساس مادي، وكان لهم موقف واضح من الأغنياء الذين سماهم «بأهل الدنيا»^(٩).

وبرز الدور الاجتماعي للمتصوفة كذلك في الاهتمام باليتام وإعانتهم. فأبو إبراهيم إسحاق بن محمد الهزجي «كان يسأل عن اليتام وأولاد الفقراء فيكسوهم»^(١٠) أما أبو العباس السبتي المذكور آنفاً فكان «رحيماً عطوفاً على المساكين واليتامى والأرامل»^(١١) كما أن بعض الأولياء قدموا يد المساعدة للدائنين^(١٢) وكذا العاجزين عن شراء أضحيان العيد^(١٣).

وتدخلوا أيضاً لإصلاح ذات البين بين الزوجين المتخاصمين^(١٤) والحيلولة دون حدوث الطلاق

(١) ابن الزيات: أخبار أبي العباس السبتي (مخ) م.س. ورقة ٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ورقة ١٩٣ ب، ١٩٤ أ.

(٣) ابن عربي: الفتوحات المكية ج ١ ص ٥٧٧. وانظر قصيدة لأبي العباس السبتي حول الصدقة والإحسان: مؤلف مجهول: كنش يضم قصائد م.س. ص ٥.

(٤) ابن الزيات: أخبار... ص ١٩٤ ب.

(٥) التنكي: م.س. ص ٦٠.

(٦) مؤلف مجهول: مناقب الشيخ أبي العباس السبتي م.س. ص ٩٩ - ابن الزيات: أخبار... م.س. ورقة ١٩٧ ب.

(٧) مثل الآيات الكريمة: «ولما أراد الله تعالى أن يهلك فرعون وأهله دعا عليهم موسى عليه السلام باليل...» ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»، «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى»، «والذين يكنزون الذهب والفضة...» انظر ابن الزيات: أخبار... م.س. ورقة ٢٠٤ ب.

(٨) Faure عبثاً المقارنة بين مذهب أبي العباس السبتي ومذهب القديس Agape، ولم يجد أي صلة بينهما. انظر مقاله: Abu-L'Abbas As-Sabti: La justice et la charité p.453-54 ولا زالت الأوساط الفلاحية بالمغرب إلى يومنا هذا وقبلها بالأندلس تخصص من محصولها الزراعي نصيباً من الزكاة تطلق عليه مدد أبي العباس السبتي. انظر: الحفصي: «أبو العباس السبتي المثالي الذي حارب ظامرة الفقر في المجتمع الإسلامي» مجلة المجلة الإسلامية. ع ١٧ سنة ١٩٨٥، ص ١٣٢.

(٩) ابن الزيات: التشوف... ص ٢٤٩ ترجمة ١٠٢، ص ٢٩٠ ترجمة ١٣٢.

(١٠) ابن الزيات: م.س. ص ٢٤١ - العبدوني: م.س. ص ٤١٨.

(١١) ابن الزيات: أخبار... ورقة ١٩٣ ب.

(١٢) الشراط: م.س. ورقة ١٩٥ أ.

(١٣) ابن الزيات: التشوف... ص ١٣١. ترجمة أبو يعقوب تصولي، ص ٢٧٥ ترجمة أبو عبد الله التاودي.

(١٤) العزلي: م.س. ص ١١٦ - ١١٧، ترجمة أبو يعزى.

وتشتت الأسرة^(١)، وكف أذى اللصوص واهل الدعارة عن الناس^(٢)، وقضاء الحوائج والخدمات للرعية، حتى أن ابا العباس البرنسي تلميذ ابن حرزهم وصف بأنه «ممن يتوسل به في قضاء الحوائج»^(٣).

ونظراً لروح البذل والسخاء التي جبلوا عليها، فإنهم ساهموا في إطعام الناس وإيواء الغرباء. وفي هذا الصدد تذكر النصوص أن الشيخ أبا يعزى كان يطعم الزوار ويعطف دوابهم وإن «اهل القرى المجاورين له كانوا يضيفون الواصلين»^(٤). وعرف أيضاً بكرمه وبسط يده فكان يطعم الوافدين إليه العسل ولحم الضأن والدجاج^(٥). كما اعتاد أحد المتصوفة على صنع طعام كثير في يوم عاشوراء من كل سنة، فيجتمع عليه المريدين والزوار «وكان لا يتركه وإن احتاج فيه إلى الدين»^(٦).

ولا نعدم من اخبار المتصوفة ما يكشف عن دورهم في بناء بعض المرافق الاجتماعية كالفناطر، وتأسيس المساجد وعمارتها^(٧).

أما دورهم في التعليم فمسألة لا يرقى إليها الشك. وحسبنا أن المتصوف أبا محمد بن عبد الجليل بن ويحلان درّس الفقه بأغمات وريكة ثلاثين سنة محتسباً لله «لا يأخذ على ذلك شيئاً ولا يسأل أحداً»^(٨)، مع شدة فقره^(٩). وكان أبو عبد الله التاودي الزاهد يدّرس الصبيان^(١٠). كما أن ابن حرزهم درّس الأمراء بمراكش^(١١) وعنه أخذ أبو مدين وغيره من أقطاب التصوف بفاس^(١٢). وأقرأ متصوف آخر القرآن بتلمسان محتسباً لله دون أجر^(١٣). أما الدور العلمي الذي قامت به أسرة آل أمغار بعين الفطر قرب أزموغ فهو غني عن كل بيان^(١٤).

وبرز دور المتصوفة كذلك في علاج المرضى بشكل مثير للانتباه. ولا غرو فإنهم تجشّموا عناء معالجة الأمراض التي عجز عنها الأطباء. وهذا ما يفسر قول ابن المؤقت عن ميمون الصحراوي اللمتوني بأنه «كان من أهل الصلاح والطب الروحاني»^(١٥) وفي المعنى نفسه ذكر الشراط^(١٦) أن طفلاً

(١) ابن مريم: م.س. ص ١١٢، ترجمة أبو يعزى.

(٢) ابن الزيات: م.س. ص ١١١ - ١١٢، ترجمة أبو محمد عبد السلام التونسي. ويذكر أنه حدث عنه أنه كان يتلمسان رجل من أهل الدعارة يؤذي الناس، فشكوا به إليه فكف أذاه عنهم وتاب إلى الله وأقبل على العبادة.

(٣) الكتاني: م.س. م ١، ص ٣٢٥.

(٤) الصومعي: م.س. ورقة ١٦٨.

(٥) ابن سعد: م.س. ص ١٩٣ - ١٩٤ - ابن الزيات: م.س. ص ٢١٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٧١.

(٧) ابن القاضي: م.س. ق ١ ص ١٨٠، ترجمة الحسن بن ست الأفاق.

(٨) الصومعي: م.س. ورقة ٢٦.

(٩) ابن الزيات: م.س. ص ١٤٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٧٣ - ابن قنفذ: م.س. ص ٣٠ - الشراط: م.س. ص ١٦٢ ب.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(١٢) الشراط: م.س. ورقة ١٥ ب - ابن القاضي: م.س. ق ٢ ص ٤٦٤.

(١٣) ابن الزيات: م.س. ص ٢٩٤، ترجمة ١٣٩.

(١٤) انظر التفاصيل في رسالة الأستاذ المازوني: م.س. ص ١٢٦ وما بعدها.

(١٥) السعادة الأبدية... ص ١٥٥.

(١٦) الروض العاطر الانفاس م.س. ورقة ١٨١ أ.

صغيراً أصابته في راسه قروح لم ينفع معها علاج، فزار أهل الطفل الولي يعلى أبو جبل الذي نجح في علاجه. وينقل المؤرخ نفسه عن راو وصفه بالثقة أن طفلاً أضر بلغ أربعة أعوام ولم يقدر على الكلام، فاشير على أبيه بزيارة ابن حزمهم، فزاره، ودعا الولي للابن بالشفاء، فرجع الأب إلى أهله مقتلاً الناس يهنئونه بكلام ابنه،^(١) كما تمكن الولي نفسه من إبراء امرأة مقعدة^(٢)، ونجح متصوف آخر - إذا ما صدقنا الرواية المنقوبة - من إشفاء صبية من برص عجز أطباء فاس عن علاجه، وذلك بواسطة مسح ريقه على موضع البرص^(٣).

وغني عن القول أن المتصوف أبا يعزى اشتهر بعلاج الأمراض المستعصية، وحسبنا أنه تمكن من إبراء جارية من مرض العمى عن طريق مسح عينيها بيده^(٤)، واكتفى بعلاج رجل أعمى كذلك برقعة من برنوسه أمره أن يحرقها بالنار ويكتحل برماها^(٥)، كما اعتاد على معالجة كل من يقصده عن طريق التقل عليه^(٦)، أو بواسطة مضغ الدفلى وإعطائها للمريض^(٧)، وعرف بمهارته في علاج أمراض الصرع^(٨) والمقعدين^(٩)، وكان الكثير من العوام يحجون إليه فيأتيه بعضهم ببناء زيت أو بوقية طعام ليليله بريقه، أو يعطونه خيطاً يعقده أملاً في الشفاء^(١٠).

وبالمثل، لعب المتصوفة دوراً أخلاقياً قل نظيره حتى خيل لبعض الباحثين^(١١) أن دورهم اقتصر على الجانب الأخلاقي فحسب. ولا جرم فإن كتاب أنس الوحيد ونزهة المرید الذي ألفه الولي أبو مدين شعيب يفيض بالموعظة، والحكم المعبرة عن السلوك الأخلاقي المثالي، الداعية إلى الزهد في الحياة، والتمسك بالدين، وتجنب الطمع، والابتعاد عن صحبة المبتدعة والأحداث، والبذل والسخاء والإخلاص في العمل^(١٢)، ومجالسة العلماء وأهل المعرفة^(١٣)، ويتأمل كتب المناقب والتصوف، يلاحظ أن جلها يصب في الاتجاه ذاته. فقد تضمنت دعوة صريحة للابتعاد عن المنكر وتجنب الزنا^(١٤) وبهذا الخصوص ورد في ترجمة أحد المتصوفة أن رجلاً من الخاصة جاء إليه قصد العلاج من داء الصرع، فبين له أن سبب مرضه يرجع إلى كثرة تعاطيه للزنا والفحشاء^(١٥)، كما دعا المتصوفة إلى

(١) المصدر نفسه، ورقة ١٢ ب، ١١٣.

(٢) المصدر نفسه، ورقة ١٢ ب، ١١٤.

(٣) ابن قنفذ: م.س. ص ٣٦، ٣٢ - ابن الزيات: م.س. ص ٢٦٩، ترجمة ١١٧ - العبدوني: م.س. ص ٤٢٤.

(٤) ابن الزيات: م.س. ص ٢١٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٣، ترجمة ١٢٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٢، ترجمة ٨٥.

(٧) العزني: م.س. ص ١١٥.

(٨) المصدر نفسه، ص ١١٢، ١١٥، ١٢٧.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٣٠ - ١٣١.

(١٠) التميمي: م.س. ص ١٤٢.

(١١) Bel, Coup d'œil sur l'Islam en Berberie, op. cit., p.13.

(١٢) انظر ما ورد في هذا الكتاب الذي اعتمدنا نسخته المخطوطة ص ٣١٤ - ٣١٩.

(١٣) ابن سعد: م.س. ص ١٨٧.

(١٤) البادسي: المقصد الشريف... ص ٥٢، ترجمة أبو داود مزاحم (ت ٥٧٨ هـ)، وجاء في ترجمته: «كان أبو داود لا يرى أحداً يفعل معصية كبيرة أو صغيرة إلا هلك الفاعل».

(١٥) العزني: م.س. ص ١١٥.

سلوك سبيل العبادة، وإقامة فرائض الصلاة. فأبو يعزى كان يعلم «بقلبه، تاركى الصلاة فيفضحهم ويؤنبهم»^(١).

ونظراً لانتشار الخمر، دعا المتصوفة إلى تجنبها^(٢) كما تعكس بعض الكرامات حرصهم على محاربة ظاهرة اللصوصية^(٣). وفي هذا الصدد ذكر التميمي^(٤) أن لصاً حاول اغتصاب ملابس أحد الصالحاء، لكن هذا الأخير نجح في وعظه وهدايته فتحول من قاطع طريق إلى متصوف زاهد. كما تمكن بعض الأولياء من هداية المنحرفين، وأهل الدعارة والفساد^(٥)، وتهذيب أخلاق المرأة^(٦). بل إن كثيراً ممن كانوا مغنين وراقصين في الأعراس أصبحوا في عداد الأولياء والأقطاب^(٧).

ولا يخامرنا شك في أن المتصوفة نجحوا في التأثير على شرائح اجتماعية هامة، وتركوا بصماتهم واضحة في أخلاق المجتمع. فقد استطاع الولي أبو يعزى أن يستقطب حوله «الوفاء مؤلفة» من الناس الذين دخلوا طريقته، وصاروا يحجون إليه دون انقطاع^(٨). كما أن صالح بن حرزم «هدى به الله خلقاً كثيراً»^(٩). وبالمثل، تخرج على يد أبي مدين ألف تلميذ حسبما يذكر ابن الزيات^(١٠) أما علي بن خلف الأنصاري، فبمجرد ما استقر في قصر كتامة «صار إمام الصوفية وقُدوتهم يقصدون إليه ويهتدون بآثاره ويقتبسون من أنواره»^(١١).

إلا أن هذا الدور برز بشكل أوضح في الأثر الذي خلفه هؤلاء المتصوفة على الأمراء انفسهم. فأبو زكريا بن يوغان أحد أمراء المثلثين يتلمسان تأثر بالتيار الصوفي على يد الولي عبد السلام التونسي، فأزال عنه كل مظاهر الأبهة والكبرياء، وانتقل من تلمسان إلى الصحراء ليخلو إلى نفسه ويدخل حياة الزهد^(١٢). ويصف ابن الزيات^(١٣) المتصوف أبا محمد صالح بن عمر أنه «كان من أرباب الدولة فزهد في الدنيا». كما ذكر في تراجمه لأعلام التصوف أبا إسحاق بن يحيى المسوني الذي «أزال اللثام على فمه» رمزاً على تخليه عن كبريائه، وتعلقه «بأهل الطريق»^(١٤).

وبالمثل تمكن ابن حرزم من التأثير في أحد أمراء المرابطين حين جاء لتدريسه، فجعله يسلك طريقه حتى «بلغ ببركته النهاية في مقام الورع»^(١٥) فلم يعد يأكل غير خبز الشعير رمزاً لزهده

(١) انظر ما يؤكد ذلك في إحدى الروايات الواردة في المصدر نفسه ص ١١١ - ١١٢.

(٢) انظر ابن الزيات: م.س. ص ٤٢٢، ترجمة ٢٤٩.

(٣) ابن الزيات: م.س. ص ٢٢٨ - ٢٢٩، ترجمة ٩٢ - ص ٢٠٩، ترجمة ١٥٣.

(٤) المستفاد... ص ٦٠ - ٦١.

(٥) ابن الزيات: م.س. ص ١١١ - ١١٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٨، ترجمة ريجان الأسود. وقد جاء في ترجمة هذا الولي أن امرأة ذهبت لتشكوله فقدا زوجها في الأسر لعله يدعو معها، فأدخلته إلى المنزل وانفردت به فغضب لذلك.

(٧) انظر نماذج لذلك: ابن الزيات: م.س. ص ٢٦٥، ترجمة ١٩١ - ص ٢١١، ترجمة ١٥٥.

(٨) العبدوني: م.س. ص ٤٢٦.

(٩) الشراط: م.س. ورقة ٩ ب - ابن القاضي: م.س. ق ١ ص ٢٥٨.

(١٠) المتشوف... ص ٢٢٤.

(١١) ابن عبد الملك: م.س. ج ٥ ق ١ ص ٢٠٩.

(١٢) ابن الزيات: م.س. ص ١٢٢ - ١٢٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

(١٥) الشراط: م.س. ورقة ١١٥.

واقترعاً بالتيار الصوفي^(١). ويذكر أحد مؤلفي السير والتراجم^(٢) أن أحد المرابطين استدعى إلى مراكز لتولي خطة الحسبة، فلما وصل رأى أحد الأولياء تحفه جموع غفيرة من الخلق، يزدحمون عليه ويقبلون رأسه ويده، فتعجب كيف أن هذا الولي يقابل بهذا التعظيم والإجلال رغم أميته، بينما هو لم ينفعه أي شيء مما تعلم، فأقسم أن ينقطع إلى الله ويدخل عالم التصوف.

أما عن الدور الديني للأولياء والمتصوفة، فرغم أن بل Bel^(٣) حصر أثرهم في الجانب الأخلاقي، فإنه لم ينكر في بحث آخر ما قام به هؤلاء، من دور ديني في البوادي على الخصوص^(٤)، وهو ما أكده لوبينيك Loubignac^(٥) حين أشار إلى مساهماتهم في نشر الإسلام بين البربر.

وإذا كانت المادة التاريخية لا تسعف في تكوين فكرة متكاملة عن هذا الجانب، فإن النصوص المتاحة - على قلتها - تسمح بهذا الظن. وحسبنا أن الولي أبا يعزى نجح في إدخال أحد المسيحيين في الإسلام^(٦). وكان أبو مدين شعيب من الأقطاب الذين يلجأ إليهم لحل المعضلات العقائدية. ذكر ابن قنفذ^(٧) أن جدالاً وقع بين طلبة العلم في بجاية حول حديث نبوي، فاستطاع هذا الولي أن يحل ما أشكل عليهم. وتحن في غنى عن ذكر ما ساهمت به مؤلفات المتصوفة من تفاسير وشروح للقرآن والعقيدة، وتنظيم حلقات المريدين من دور في فتح بصيرة العامة حول قضايا دينهم، وتقريبه من أذهانهم^(٨).

يضاف إلى ذلك مساهمتهم في بناء المساجد خدمة للمسلمين، وسعيًا وراء توعيتهم بأركان العبادات، وكل ما يتعلق بالشؤون الدينية^(٩). واجتهد بعضهم في تحديد قبلتها. وفي هذا الصدد ذكر المتيجي أنه رأى للمتصوف أبي الفضل بن النحوي كراسة في كيفية استخراج القبلة بالمغرب الأقصى^(١٠).

وداخل هذه المساجد نفسها، أسهم المتصوفة بدور فعال في دروس الوعظ الديني، فقد كان علي بن حسين بن محمد «يعظ الناس في المساجد»^(١١) كما أن محمد بن أحمد بن عيسى بن هشام انتقل من فاس إلى جيان، «فجلس فيها بمسجده المنسوب إليه للوعظ والقصص وإيراد حكايات

(١) ابن الزيات: م.س. ص ١٦٩.

(٢) ابن القاضي: م.س. ج ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥، ترجمة مروان بن عبد الملك اللمتوني (ت ٥٧٢ هـ) - ابن الزيات: م.س. ص ٢٣٨.

(٣) Coup d'œil... op. cit. p.13.

(٤) Le sufisme en occident Musulman... op. cit., p.161.

(٥) Un Saint Berbere: Moulay Bouazza... op. cit., p.34.

(٦) الصومعي: م.س. ٢٧.

(٧) انس الفقير... ص ١٧.

(٨) ألف المتصوفة العديد من الكتب المتعلقة بالعقيدة مثل ابن برجان الذي ألف كتابين تفسير القرآن وشرح الأسماء الحسنى. انظر: السيوطي: طبقات المفسرين ص ٦٨. ويذكر القاضي عياض كتاباً لأبي عبد الله الصوفي تحت عنوان المختلّى من كلام أهل التقى. انظر الغنية... ص ٩١ - ٩٢. ويذكر ابن الأبار مصنفاً آخر لأحمد بن سعد بن عيسى تحت عنوان كتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم. انظر التكملة م.س. ج ١ ص ٦١.

(٩) انظر التشوف... م.س. ص ١٢٧ ترجمة ٢٦. وكذلك ص ٢٦٩ ترجمة ١١٧ ثم ص ٢٦٩ ترجمة ١٢٢.

(١٠) رسالة في تحقيق اتجاه قبلة الصلاة بالمغرب، م.س. ورقة ٦٩ ب.

(١١) ابن عبد الملك. م.س. ج ٥ ق ١ ص ٢٠٥.

الصالحين، ونحا منحى الزهد^(١).

ولا تعوزنا الأدلة كذلك للكشف عن دور المتصوفة في تسهيل مأمورية الحجاج، ومساعدته الفقراء الذين عجزوا عن أداء فريضتهم الدينية. فابن الميلي - كما تذكر رواية منقوبة - رغب إليه رؤساء المراكب المتجهة إلى الحج أن يرافقهم لفضله وورعه وتبركاً به، فاشتراط عليهم أن يصحبوا معه «كل من يريد أن يركب» من المساكين ممن يتوجه إلى مكة، دون أن يقبضوا منهم درهماً^(٢).

قصارى القول أن الأولياء والمتصوفة قاموا بأدوار مؤثرة في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وتمكنوا من التأثير في شرائح هامة من المجتمع. غير أن دورهم يبرز أكثر في الثورات التي قادوها ضد الحكم المرابطي وهو ما سنعالجه الآن.

سادساً: ثورات المتصوفة

سيتم التركيز على ثورة ابن قسي باعتبارها تمثل أهم مرحلة في ثورة المريدين، ولأنها جسدت الموقف المتطرف الذي لم يعتمد على الكرامات الصوفية أو الرمزية لتبليغ خطابه قدر اعتماده على أسلوب الثورة والعنف، وهو الموقف الذي لم نتعرض لدراسته بعد، فضلاً عن كونها تمثل حركة سياسية قامت بها الطبقة الوسطى التي انتقلت من موقف الاعتدال إلى موقف التطرف في أواخر عصر المرابطين، ناهيك عما يكتنفها من غموض وتشويه يستلزم قراءة نقدية لأحداثها.

يعد أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي أحد الأعلام البارزين في تاريخ التصوف بالغرب الإسلامي، وزعيم أول ثورة ضد المرابطين. وللأسف، فإننا لا نملك من المادة التاريخية ما يكفي لكشف النقاب عن ثورته وإزالة ما يلفها من غموض وتزييف. ولا غرو فإنها تعرضت للطمس والتشويه بحيث يمكن القول أنه لا توجد في التاريخ المرابطي حركة تحامل عليها المؤرخون أكثر من حركة ابن قسي، إذ دمغوا زعيمها بأبشع الصفات، وتعاملوا معه بنوع من السخرية والازدراء^(٣). فقد اعتبره المراكشي من دعاة الفتنة ورؤوس الضلالات «وصاحب حيل ورب شعبذة»^(٤) واتهمه «بالجراة على الله سبحانه والتهاون بأمر الولاية»^(٥). بل ثمة من المؤرخين من عزفوا عن التأريخ لثورته احتقاراً لها، وانتقاصاً من شأنها^(٦). وحتى الذين أوردوا أخبارها باقتضاب، أمعنوا في تشويهها، فذكروا الانتصارات التي حققتها بنصف الكلمات، وبمرارة تبدو واضحة في كتاباتهم، بينما تلذذوا بذكر أخبار الهزائم التي منيت بها، والفشل الذي آلت إليه في نهاية المطاف.

(١) المصدر نفسه ق ٢ ص ٥٨٢ - ٥٨٤.

(٢) ابن الزيات: م.س. ص ٣٧٠.

(٣) انظر النادرة التي ذكرها ابن الخطيب متهماً على ابن قسي: إذ ذكر أن رجلاً من البادية قال لأصحابه بخصوص المال الذي كان يزعم أنه يأتيه من عند الله: «عجباً لهذا المال الذي يصل الإمام من السماء كيف عليه طابع المرابطين: ولم يكن عليه طابع غير ذلك». انظر: أعمال الأعلام تحقيق برونسفال ص ٢٥٠ - ٢٥١. انظر كذلك، زمامة، محررة خطيرة على عهد المرابطين: حركة ابن قسي، مجلة البنية، ج ٦ سنة ١٩٦٢، ص ٧٥.

(٤) المعجب.... ص ٣١٠.

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها. وقد ذكر بهذا الخصوص أن لابن قسي أخباراً قبيحة «منعني من ذكرها صرف العناية إلى ما هو أهم منها».

ولا يسع الباحث المنصف إلا أن يتحفظ من هذه الأحكام الصادرة من مؤرخين سنيين تجاه حركة اعتمدت على فكرة المهدوية عصب الحركات الشيعية، أو من أقلام المؤرخين الموحدين الذين عايشوا دولة جامت على انقاضها، ونافستها الزعامة في مسألة المهدوية والإمامة، بل أيدت الثوار الخارجين عليها^(١).

ومما يزيد الأمر تعقيداً وغموضاً، أن المصادر الموالية لحركة ابن قسي تكاد تنعدم بالمرّة، باستثناء نصوص هزيلة نرّخت زعيمها عن التهم التي كبلت له جزافاً. فابن عربي في شرح كتاب خلع النعلين أكد أنه «مؤمن مسلم»^(٢). ورغم ما يمكن أن يشتم في هذا الموقف من رائحة التعاطف لالتقاء الرجلين في تيار الفلسفة الإشراقية، فإن مثل هذا الضّن يصعب بعيد الاحتمال إذا علمنا أن ابن عربي انتقد ابن قسي وأبرز قصوره ومثالبه التي شملها كتابه المذكور^(٣).

وللاسف فإن ابن قسي لم يخلف أثراً نستعين به على فهم حقيقة ثورته ومذهبه، باستثناء كتاب خلع النعلين الذي يعد في حكم المفقود^(٤). ولا يمكن أن نستجلي معالم ثورته إلا إذا حالف الحظ الباحثين في العثور على مصنفين عبث بهما أيادي القدر، أولهما الفه ابن عميرة المخزومي^(٥)، بينما صنف الثاني ابن صاحب الصلاة^(٦)، وكلاهما تناول أحداث ثورة المريدين. غير أن الشيء المؤكد هو أن ثورة ابن قسي تركت بصمات واضحة في التاريخ الصوفي للمغرب والأندلس في عصر المرابطين.

ومما يدهش له المرء أن بعض الباحثين المعاصرين نقلوا عن المصادر المعادية لحركة ابن قسي دون روية ولا تمحيص، ودون محاولة فهم الواقع الاجتماعي الذي أفرزها، فعالجوها من زاوية عنصرية قحة. وحسبنا دليلاً على ذلك ما توصلوا إليه من أحكام متضاربة. فقد اعتبرها فيلار Villar^(٧) حركة قومية دينية حركها الشعور بالانتماء للجنس الإسباني وكره الأجنبي. بينما رأى فيها لاغاردير Lagardère^(٨)، وبالنثيا^(٩) استمراراً للحركة السرية التي شهدتها الأندلس في نهاية القرن الثالث. وبداية الرابع، في حين اختزل كوديرا Godera^(١٠) أسبابها في رفض المتصوفة وعلى رأسهم ابن قسي مبادرة علي بن يوسف باستخدام النصاري في الجيش والبلات.

(١) تذكر بعض المصادر أن ابن قسي ساند ثورة الماسي القائم على الموحدين بالسوس. انظر: ابن الخطيب: م.س. ص ٢٥١.

(٢) شرح كتاب خلع النعلين م.س. ورقة ١٢ أ.

(٣) انظر ما ذكرناه سابقاً عن انتقاد ابن عربي لما تضمنه كتاب خلع النعلين واعتبار ابن قسي مجرد مقلد لذي النون المصري.

(٤) النسخة الموجودة في دار الكتب المصرية ليست كتاب ابن قسي وإنما هي شرح لهذا الكتاب من طرف ابن عربي. انظر: عفيفي: م.س. ص ٦١.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة... ج ١ ص ١٨٩.

(٦) ابن الأيبار: الحلة السيرة... ج ١ ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٧) Les Touaregs au pays du cid... op. cit., p. 252.

(٨) La Tariqa des muridun... op. cit., p. 157, 161.

(٩) تاريخ الفكر الأندلسي، م.س. ص ٢٣٦.

(١٠) Decadencia y desaparición de los Almoravides En España, Zaragoza 1899, p. 30.

وانظر رد مؤنس عليه: نصوص سياسية... م.س. ص ١٠٠ - ١٠٢.

أما الباحثون العرب، فمنهم من عدّها حركة سياسية، نافياً عنها أي صيغة صوفية قحة^(١)، بينما ظنّها البعض «فتنة من أجل الفتنة والتغيير»^(٢). بل ثمة من اعتبر ابن قسي رجلاً مشعوذاً، وعدّ اتباعه مجرد غوغاء طمعوا في الأموال والغنائم^(٣). في حين حاول البعض إعطاء الدليل على طابعها الزهدي التصوفي، ليصل إلى القول أن ابن قسي كان مقتنعاً بالرسالة التي يقوم بها^(٤).

ويخيل إلينا أن هذا التخطي في التفسيرات والأحكام جاء نتيجة عزل الحركة عن خلفيتها الاقتصادية والاجتماعية. وتحري الحقيقة يحفزنا أن نتحفظ بخصوص ما أورده المؤرخون، ونعمل العقل في فهم هذه الحركة، ونضعها في إطارها الصحيح عن طريق الاسترشاد بالظرفية العامة التي أفرزها اقتصاد المغازي في الحقبة المرابطية الأخيرة، وما تمخض عن ذلك من نتائج سلبية. فقد سبق القول أن نضوب المداخل التي اعتمد عليها اقتصاد الدولة المرابطية من جزية وخراج وغنائم ومصادرات أضعف البنية الاقتصادية، وأسفر عن أزمة شاملة طالت كل المجالات، فكثر المجاعات والأمراض وانعدم الأمن، وانتشرت حركة اللصوصية، وتدهورت الطرق التجارية. وزادت الوضعية تازماً قبيل سنة ٥٣٩ هـ التي اندلعت فيها ثورة ابن قسي، فلم يعد التصوف تعبيراً سلوكياً فحسب، بل أصبح يكتسي طابعاً سياسياً يحاول الإدلاء بدلوه للخروج من الأزمة. لذلك نعتقد أنه من الخطأ إخراج ابن قسي من دائرة التيار الصوفي كما فعلت بعض الدراسات، علماً أنه مؤلف كتاب خلع النملين، وهو كتاب ذو منحنى تصوفي رغم أنه لم يكن فيه - كما يصرح بذلك ابن عربي - أكثر من مقلد ناقل للمعاني التي تتكشف لصوفي أمي من أهل العرفان^(٥). ومع قصوره هذا، ورغم أن مصنفه لا يتضمن مذهباً فلسفياً متسقاً، فإنه استطاع أن ينتقل بالتصوف من طوره الساذج إلى مرحلته الثيو - صوفية^(٦). واستغل القرآن والحديث ليتخذ منهما مادته ثم يخرج منهما ما شاء من المعاني الفلسفية^(٧).

ونعتقد أنه من باب التجني كذلك اعتبار حركة ابن قسي مجرد شعوزة. وخير دليل ندفع به هذا الزعم نعت ابن الخطيب^(٨) لابن قسي - رغم تحامله - أنه «كان شيخاً من مشايخ الصوفية، وقدره في تلك الطريقة معروف». كما لا نشاطر رأي باحثة^(٩) اعتبرت حركة المريدين بما فيها ثورة ابن قسي «فتنة من أجل الفتنة، اعتماداً على نص عام يشمل كل الإمارات الثائرة على المرابطين. ففضلاً عن عمومية هذا النص لا أحد يجادل في أن التصوف أصبح في هذه المرحلة مرتبطاً بالسياسة وتأسيس الدول، لا مجرد فتنة فقط، وهو ما يؤكد النص الذي استندت عليه. ويبدو أن اتهام مؤسس لأنصاره

(١) عفيفي: م.س. ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) دندش: م.س. ص ٤٩.

(٣) مؤنس: م.س. ص ١٠٤.

(٤) الغنای: قیام دولة الموحدين (الطروحة دكتوراه مرقونة) ص ٦٦.

(٥) عفيفي: م.س. ص ٦١.

(٦) المرجع نفسه، ص ٧٥ - زمامة: م.س. ص ٧٦.

(٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٨) أعمال الإعلام، م.س. القسم الأندلسي ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٩) دندش: م.س. ص ٤٩.

بانهم مجرد طامعين في الاموال والغنائم حكم زاغ عن الصواب والموضوعية التاريخية. فشعار التهليل والتكبير الذي كانوا يرفعونه، يدل على أنهم كانوا مؤطرين ومنظمين في هذا التيار الصوفي^(١). وأنهم سعوا إلى تأسيس دولة^(٢). ولعل أحد الباحثين قد أصاب الحقيقة حين ذكر أن الحركة كانت تهدف إلى «تحرير الدين من التزمّت والرجعية، وتحرير الحكم من استبداد المرابطين»^(٣)، دون إنكار الطامع الشخصية لزعيمها.

وعلى كل حال، فالجديد في حركة ابن قسي يتجلى في استنادها على فكرة المهدوية^(٤)، وهو ميدا شكل حجر الزاوية في الفكر الشيعي. لذلك لقب نفسه «بالإمام» ليكسب حركته صبغة دينية سيكون لها وقع مؤثر على نفسية أتباعه. ومن هذا المنطلق يغلب على ظننا أن ثورة ابن قسي لم تكن سوى وجه من أوجه الصراع السني - الشيعي الذي احتدم في تلك الحقبة حين أصبح المذهب الباطني يشكل معارضة قوية للهيمنة السنية في كافة انحاء العالم الإسلامي آنذاك، واند المالكى في المغرب والأندلس على الخصوص. وعلى كل حال كيف بدأت هذه الثورة؟

لا يتأتى الوقوف على بداية ثورة ابن قسي إلا بالرجوع للمراحل الأولى من ثورة المريدين حين كانت هذه الأخيرة لا تزال تنهج الأسلوب السليمي. لذلك يمكن التمييز بين مرحلتين متباينتين في مسارها: المرحلة السرية السلمية، ثم المرحلة العلنية التي اتسمت بطابع الثورة والعنف.

من المعلوم أن المراكز الصوفية كانت قد انتشرت في طول بلاد الأندلس وعرضها نتيجة الأسباب التي أتينا على ذكرها. غير أن أهم المدن التي اكتسحتها التيار الصوفي هي المرية، وهو أمر بالغ الدلالة خاصة إذا علمنا أن هذه المدينة كانت قبلة التجار والمراكب الوافدة من مختلف اصقاع العالم آنذاك. لذلك لم يكن صدفة أن تنتشر فيها مختلف التيارات الفكرية بما فيها التصوف. ويمكن إرجاع سبب سرعة انتشاره إلى تشدد الفقهاء واستماتتهم في قمع كتب الإمام الغزالي^(٥). وإذا كانت المرية قد عرفت عدداً من أقطاب التصوف^(٦)، وفي مقدمتهم ابن العريف، فإن هذا التيار شمل كذلك مدناً أخرى مثل مالقة ومرسية وجيان وقرطبة وجزيرة شقر وبلنسية، وكلها مدن تقع في خطوط تجارة العبور.

غير أن القاسم المشترك الذي ميّز التيار الصوفي في جل هذه المناطق، اعتداله والتزامه بقاعدة الكتاب والسنة وتجنب العنف وعدم الثورة على السلطان، مما يؤكد ما توصلنا إليه سابقاً من جنوح الطبقة الوسطى المكونة من التجار إلى مهادنة السلطة من أجل توفير شروط السلم لتنشيط عملياتها التجارية، في حين تميز التيار الصوفي في غرب الأندلس بتطرفه ودعوته إلى العنف والثورة، وهو أمر يرجع في تقديرنا إلى الضرر الذي أصاب التجارة في هذه المنطقة بسبب تحكم واحتكار منطقة الشرق

(١) ابن الأبار: الحلة... م.س. ج ٢ ص ١٩٨.

(٢) الغنای: م.س. ص ٦٦.

(٣) عفيفي: م.س. ص ٥٨.

(٤) المراكشي: م.س. ص ٣٠٩ - ابن الأبار: م.س. ج ٢ ص ١٩٨.

(٥) دندش: م.س. ص ٥٦.

(٦) منهم ابن الإفيلش وأبي بكر بن نمارة وأبو القاسم عبد الجبار البجاني.

بزعامة المرية لشرابين الحركة التجارية في الأندلس. ويبدو أن عدم رضى الجناح المتطرف من المريدين في هذه المنطقة عن زعامة الشيخ أبي محمد عبد الغفور يرجع إلى تعاطفه مع التيار المعتدل^(١).

وللمزيد من إجلاء ما غمض من ثورة ابن قسي، والوقوف على بدايتها، لا بد من استقصاء معالم الصراع القائم بين الأجنحة المتصارعة في ثورة المريدين، وهو ما يستلزم البحث عن علاقة زعيم التيار المتطرف في غرب الأندلس مع زعيم التيار المعتدل في شرقها وهو ابن العريف.

ظل الاعتقاد السائد لدى معظم الدارسين^(٢) أن ابن قسي يعتبر تلميذاً لابن العريف، لكن الرسائل المنسوبة إلى هذا الأخير، والتي تضمنها مخطوط مفتاح السعادة وتحقيق الإرادة تكشف - لأول مرة - أن الأول لم يكن تلميذاً للثاني. وثبت أن ابن قسي كان شيخاً متضلعاً في شتى أصناف العلوم وفنونها، ذائع الصيت إلى درجة أن ابن العريف نفسه يستغرب في إحدى رسائله كيف أن هذا العالم الكبير سمع باسمه وعرفه^(٣). وإذا علمنا أن هذه الرسالة كتبت بين سنتي ٥٢١ و ٥٢٩ هـ / ١١٢٧ و ١١٢٤ م حسبما يظهر من التواريخ التي يذكرها ابن العريف في رسائله، نستطيع أن نستنتج أنه لسبع سنين قبل وفاته لم يكن قد تعرف بعد إلى ابن قسي، وأن هذا الأخير كان آنذاك قد بدأ في جمع أنصاره، مما ينهض قرينة على أن ابن العريف لم يكن شيخه بالمرة كما ساد الاعتقاد. ومما يعزز هذا الرأي نص ورد عند ابن عربي يقول فيه عند حديثه عن ابن قسي: «وكان شيخه الذي كشف له على يديه من أكبر شيوخ المغرب يقال له ابن خليل من أهل لبلة»^(٤) في حين لا يذكر ابن العريف ضمن شيوخه.

وفي الرسالة الثانية يعبر ابن العريف عن إعجابه بابن قسي ويشني على مؤلفاته^(٥). ونستنتج من هذه الرسالة أن شخصية ابن قسي العلمية والصوفية تكونت قبل أن يلتقي بابن العريف^(٦)، مما يجعلنا نخرج بنتيجة قد تخالف ما توصل إليه بعض الباحثين حول صلة الرجلين. فحسب ما يستشف من هذه الرسائل، وكذا بعض النصوص التاريخية، واسترشاداً بتطور نسق الأحداث، يمكن القول أن صلة ابن العريف بابن قسي لم تكن علاقة شيخ يتلميذه بل كانت صلة «إخوانية» أساسها روح التصوف فحسب. وحسبنا دليلاً على ذلك أنه إلى حدود الأعوام الممتدة ما بين ٥٢١ و ٥٢٩ هـ وهي السنوات التي رجحنا أن يكون فيها ابن العريف قد بعث فيها رسائله إلى ابن قسي،

(١) مما يؤكد ذلك الصداقة التي جمعتها مع ابن العريف الذي بعث له رسالة تدل على ذلك، ومما جاء فيها: «وإخوانك ما أجمل بهم أن يعرفوا لك حقاً بالسن والعلم والإسلام السابق، وما أجمل بك إن قصروا أن تودهم بالرفق بهم».

انظر رسالة ابن العريف إلى أبي محمد عبد الغفور. (مخ) ورقة ٩٠ وكذلك الملحق رقم ٧ في آخر الكتاب.

(٢) انظر: عنان، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، م.س. ص ٤٦٦. وكذلك الدراسة التي قام بها أسين بلاثيوس عن ابن العريف في تحقيقه لكتاب مجلسين المجالس، ويرجع الفضل إلى بولس نوييا في التنبيه إلى رسائل ابن العريف التي يضمها مخطوط مفتاح السعادة... انظر: رسائل ابن العريف إلى ثورة المريدين في الأندلس، مجلة الأبحاث سنة ١٩٧٨، ١٩٧٩.

(٣) مفتاح السعادة... م.س. ص ١١٢ - بولس نوييا: م.س. ص ٤٥ و Lagardère, op. cit., p. 163.

(٤) الفتوحات الحكيمة ج ١ ص ١٧٦ - عفيفي: م.س. ص ٦٠.

(٥) مفتاح السعادة... م.س. ص ١١٢ - ١١٤.

(٦) بولس نوييا: م.س. ص ٤٥.

لطلع الأول لأول مرة على بعض الكنائش التي كتبها الثاني في فنون العلم، وأبدى إعجابه بها^(١)، فلو كان تلميذه لكان عارفاً به ويعلمه قبل هذا التاريخ. وإذا كان ابن الأبار^(٢) قد أكد لقاء الرجلين، فإنه لم يذكر تاريخ هذا اللقاء، كما لم يذكر أنه أخذ عنه علماً من العلوم.

ويمكن الظن أن زيارة ابن قسي لابن العريف في المرية كانت محاولة منه لإقناع شيخ التصوف في المرية بضرورة العدل عن النهج السلمي واتخاذ المبادرة لإعلان الثورة، لأن العادة جرت أن التلميذ هو الذي يقصد شيخه إذا رغب في الأخذ عنه. فمنطق الأحداث يفرض أن يتجه ابن العريف إلى ابن قسي لإشباع رغبته وإعجابه بعلومه. لكن الحالة العكسية التي حدثت تؤكد أن موضوع اللقاء دار حول الدعوة للثورة. لذلك لم يجد ابن قسي غضاضة في التوجه بنفسه متجسماً عناء الرحلة في سبيل إقناع ابن العريف بضرورة وضع استراتيجية للتنسيق حول خطة إعلان الثورة ضد المرابطين، وهذا ما يفسر صمت ابن الأبار عن ذكر أي صلة علمية في هذا اللقاء.

على أن موقع ابن برجان في هذه العلاقة يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، إذ كان يمثل حسب بعض الدارسين^(٣) التيار الذي يوازي بين أجنحة المريدن، ويكبح جماح المتطرفين. ولم يكن له اختيار آخر غير القيام بهذا الدور باعتباره «إماماً ومرشداً»^(٤) لحركة المريدن. ويبدو أنه نجح في لجم التيار المتطرف إلى حين.

غير أن الظروف المستجدة أدت إلى بروز هذا التيار الذي يتزعمه ابن قسي، خاصة بعد استدعاء كل من ابن العريف وابن برجان إلى مراکش واغتيالهما في ظروف غامضة حوالى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م^(٥).

فباختفاء زعمي التيار المعتدل، صفا الجو نهائياً للتيار المتطرف الذي أعلن الثورة سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م. وقد شهدت الفترة الممتدة بين موت هذين الزعيمين وإعلان الثورة أحداثاً خطيرة جعلت ثورة المريدن تغير من نهجها السلمي السري وتتحول إلى أسلوب العنف الثوري. فالدولة المرابطية عبر هذه السنوات الثلاث صارت تترنح تحت ضربات الموحدين^(٦)، وأصبح الضعف يدب في جسدها، واشتد الغلاء، وكثرت المجاعات والجفاف. كما تعاظم الخطر النصراني، وتفاقت تحرشات المجوس^(٧)، وبدأت أعناق الفقهاء ورؤساء الجند تشرّب نحو الانفصال عن الحكم المركزي. ومن ثم يمكن القول أن التيار المتطرف الذي حمل لواءه ابن قسي جاء في هذا السياق العام. فما هي مراحل هذه الثورة، وما هو المصير الذي آلت إليه؟

(١) مفتاح السعادة م.س. ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) الحلة السيرة م.س. ج ٢ ص ١٩٧.

(٣) دندش: م.س. ص ٥٨.

(٤) الشعرائي: الطبقات الكبرى ج ١، القاهرة ١٢٩٩ هـ، ص ١٥.

(٥) Nwiya, op. cit., p.221

(٦) ابن عذاري: م.س. ص ٩٩ - ١٠٠، ١٠٣ - ١٠٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٠٣. المجوس، كما تسميهم المصادر العربية، أو النورمان هم الشعوب الاسكندنافية التي كانت تقوم بهجمات حوالى كل سبع سنوات على شواطئ المغرب والاندلس: وقد قاموا بهجوم على سبتة سنة ٥٢٨ هـ كما يذكر ابن عذاري في الفترة مدار البحث.

تعد ثورة ابن قسي أول ثورة أفضت مضجع المرابطين^(١). والظاهر أن ابن قسي لم يكن من أصل عربي - إسلامي، بل ينحدر - حسب ما أجمعت عليه كتب التراجم - من أصل مسيحي من مدينة شلب^(٢). ولعل هذا النسب الرومي ما جعل المؤرخين يتعاملون عليه. تقلد في بداية حياته بعض وظائف الدولة^(٣). وللأمر مغزاه في الدلالة على تدمير الطبقة الوسطى من الأوضاع، ومشاركتهم في الثورات. وقد اتخذ حياة النبي نموذجاً، فتشبه به في بعض أحواله، ثم باع جميع أملاكه وتصدق بها^(٤). وبعد لقائه بابن العريف في المرية، وعدم نجاحه في إقناعه بضرورة إعلان الثورة، فضل أن يواصل معارضته مستقلاً بنفسه. وهذا ما يفسر عودته إلى شلب وبناء رابطة بإحدى قرأها. وفيها انكب على مطالعة كتب أبي حامد الغزالي وإخوان الصفا المحظورة من قبل السلطة المرابطية. ولم يمض سوى وقت يسير حتى استقطب مجموعة كبيرة من الاتباع من العوام وعناصر الأرستقراطية «من أهل البيوتات والأجناد»^(٥) فادعى الإمامة، وهو أمر لم يترك فرصة الانتظار للسلطة المرابطية التي لم تتقاعس عن مطالبته ومطاردته، غير أنه أخفى نفسه عن الانظار^(٦).

وفي سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م، طالب أنصاره من المريدين بالخروج مع محمد بن يحيى الشلطي المعروف بابن القابلة^(٧)، «فجعله سيف ثورته»^(٨)، وسماه بالمصطفى لاطلاعه على ما دق من أموره وجل. لكنه بطش به لأسباب غامضة لا تفصح عنها المصادر. ولعل قتل حليف من بني جلده يسقط مزاعم من وصموا الحركة بالشعبوية وفسروها تفسيراً إثنياً حقاً.

وفي سرعة مذهلة، تمكن من اكتساح حصن مرتيلة من أعمال غرب الأندلس. ونرجح أن دعاية مكثفة نظمت لصالحه من طرف أنصاره في هذه الأنحاء لقبول إمامته^(٩)، فاتخذ الحصن قاعدة لحشد قواه وتنفيذ مشاريعه «وتسمى إماماً وكتب إلى البلاد يندب الناس إلى الثورة على المرابطين»^(١٠). وأمدّه أحد أنصاره - أبو الوليد محمد بن عمر بن المنذر - بمساعدات كبيرة، كما حالفه محمد بن سيدراي. وبذل الزعيمان معاً جهوداً مضنية لشد أزده حتى تمكن من الاستيلاء على شلب وباجة^(١١) وفي الحال أقيمت حكومة جديدة يرأسها ابن قسي، بينما ولي على شلب ابن المنذر، وعلى يابرة وباجة ابن سيدراي^(١٢) ونجح بعد ذلك في الاستيلاء على لبلة «فاتسع على المرابطين

(١) ابن الخطيب: م.س. ص ٢٤٨.

(٢) ابن الأبار: م.س. ج ٢، ص ١٩٨ - أشباخ: م.س. ص ٢٠٦ - عفيفي: م.س. ص ٥٦.

(٣) ابن الخطيب: م.س. ص ٢٥٠.

(٤) ابن الأبار: الحلة... م.س. ج ٢، ص ١٩٧.

(٥) ابن الخطيب: م.س. ص ٢٥٠.

(٦) الفناي: م.س. ص ٦٤.

(٧) ابن الأبار: م.س. ج ٢، ص ١٩٨.

(٨) ابن الخطيب: م.س. ص ٢٥٠.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(١١) السامرائي: علاقات المرابطين بالملك الإسباني وبالذول الإسلامية، م.س. ٢٧١ - ٢٧٢.

(١٢) أشباخ: م.س. ص ٢٠٧.

خرق لم يرقعوه، وهجم عليهم حادث طالما توقعوه^(١)، ثم ضرب بعد ذلك عملته الخاصة على شكل مربع^(٢).

بعد هذا النجاح، اشتد ساعد الثوار، فزحفوا لاكتساح باقي المناطق إلى أن تمكنوا من الاستيلاء على غرب الأندلس برمتها^(٣)، مما أوقع الفزع والرعب في صفوف الجيش المرابطي الذي جند كل قواه لكبح جماح ابن قسي وردع جموعه، واتجه نحو المريدن. وما كادت أنباء مقدم هذا الجيش تتسرب إلى مسامعهم حتى ولوا الأديار. لكن ابن غانية الذي ترأس عسكر المرابطين لاحقهم، وحصد رؤوسهم في معركة ضروس لم ينج منها إلا بعض المريدن الذين التجأوا إلى حصن من حصون لبلبة^(٤).

بيد أن هذه الهزيمة لم تفت في عضد ابن قسي، ولم تثنه عن عزمه، فقد غير استراتيجيته الحربية، وتحالف مع الموحدن تحت حجة أنه يؤمن بالعقائد نفسها التي جاء بها ابن تومرت^(٥). فعينه عبد المومن والياً على غرب الأندلس^(٦). غير أن رواية أخرى تذكر أن الموحدن القوا عليه القبض وأجازوه إلى العدو^(٧). وعلى أي، فإن هذا التحالف ألب عليه أنصاره الذين تحولوا عنه وانضموا إلى المرابطين.

ولما قامت ثورة الماسي بالسوس الأقصى، أمدّه ابن قسي بالمساعدات، مما أوغر عليه صدر الموحدن^(٨)، فأصبح في عزلة حتمت عليه التحالف مع ملك البرتغال هنريكز^(٩)، وهو ما أثار حفيظة من بقي معه من الأنصار في شلب إذ ثاروا عليه^(١٠)، مما أدى إلى إضعاف موقفه. وفي الوقت ذاته خلع سيدراي دعوته ودعا للقاضي ابن حمدين متزعم ثورة قرطبة^(١١) واتفق أنصاره على اغتياله سنة

(١) ابن الأبار: م.س. ج ٢، ص ١٩٩.

(٢) عثر على نصف قيراط مضروب باسم ابن قسي وكتب في وجهه «الله ربنا ومحمد نبينا والمهدي إمامنا داخل المربع، ولم يقتصر التبريع على الدراهم، بل تعداه إلى الدنانير، انظر: ابن يوسف الحكيم: ضوابط السكة ص ٤٩.

(٣) ابن الأبار، م.س. ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ - أشباح: م.س. ص ٢٠٨ - السامرائي: م.س. ص ٢٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

(٥) يذكر ابن خلدون أن عبد المومن بن علي لم يجب ابن قسي على رسالته الأولى التي طلب فيها منه الانضمام إليه لأنها تضمنت بعض العبارات المترفة كلقب المهدي: انظر: العبير... ج ٦، ص ٣١٢.

(٦) ابن الأبار: م.س. ج ٢، ص ٢٠٠ - زمامة: م.س. ص ٧٦.

(٧) المراكشي: م.س. ص ٣٠٩.

(٨) ابن الخطيب: م.س. ص ٣٥١.

(٩) ابن الأبار: م.س. ج ٢ ص ٢٠٠ - حركات: المغرب عبر التاريخ م.س. ج ١، ص ٢٧٢. وقد تولى هنريكز Alphonse Ier Henriques حكم البرتغال منذ سنة ١١٢٨ م وهو يبلغ من العمر ١٨ سنة، وذلك بعد أن دبر الاشراف والاحبار مؤامرة ضد أمه المستبدة، واستطاعوا إزاحتها عن الحكم. لكنه نصب نفسه اميراً مستقلاً دون تبعية. وقد خاض معارك متواصلة نتيجة هذا الانفصال مع ملك قشتالة ألفونسو ريموندنيس الذي أعلن نفسه قيصراً سنة ١١٢٥ م. واستطاع الأمير الشاب أن يهزم القشتاليين، وبقي كذلك حتى تاجزه المرابطون الحرب، فاستغل خصومه ذلك لمحاربته، وتمكنوا من مزقه وأصيب بجروح، واضطر في الأخير إلى عقد صلح مع القيصر ريموندنيس سنة ١١٢٨ م لكن في السنة الموالية (١١٢٩ م)، وبعد أن هزم المرابطون ثقب باللقب الملوكية، فعاد النزاع بينه وبين القيصر. وقد اهتم هذا الأمير بأمر جماعات الفرسان الدينية لما لها من أهمية في محاربة المسلمين.

(١٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١١) النباهي الموقبة العليا... ص ١٠٣.

٥٤٦ هـ / ١١٥١ م^(١)، ويذكر البيهقي^(٢) اسم الشخص الذي قتله ويدعى عبد الله بن سليمان.

لكن الروايات تختلف حول نهاية ابن قسي، فالمراكشي^(٣) يذكر أن الموحدین قبضوا عليه وهو بخصن مرتيلة، ثم عفوا عنه بعد أن تخلى عن إمامته، وبقي بالمغرب طيلة حياته إلى أن اغتاله أحد أصحابه. لكن روايات أخرى تؤكد أنه عبر إلى المغرب بمحض إرادته، وقابل عبد المؤمن بن علي وحته على إرسال جيش موحدي^(٤) ويضيف مؤرخ آخر^(٥) أن جل الوفود الأندلسية وفدت على الخليفة الموحد في سلا سنة ٥٤٥ هـ للتهنئة وتقدير فروض الولاء، ولم يتخلف منهم إلا ابن قسي الذي خاف على سلطانه فتحالف مع ملك البرتغال. وكان هذا التحالف آخر مسمار دق في نعش حركته، إذ تم اغتياله من طرف أنصاره كما سبق الذكر.

باستقصاء العوامل التي أدت إلى فشل ثورة ابن قسي، يتبين أنها ترجع لافتقاره إلى عصبية قوية تحميه وتشدد أزره «فلم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شانه»^(٦). كما أن أنصاره كانوا من مشارب مختلفة وعصبية متباينة^(٧) تمخض عنها مجموعة من الخلافات التي دبّت بين قادتها^(٨). وبالمثل فإن تأثير ابن العريف ومبذئه الداعي إلى تجنب العنف ظل عنصراً يشوش رؤية الثوار. وحسبنا أنه كان قد اتصل بابن المنذر وألح عليه بعدم الانسياق وراء الدعاوي المضلّة، وعدم الثورة العلنية على الأمراء المرابطين^(٩).

ولا يخامرنا شك أن هشاشة مبادئ ابن قسي^(١٠) وافتقاره إلى تنظيم دقيق، وإلى قاعدة مادية، فضلاً عن قوة الجيش المرابطي الذي حاصره، وتحالفه مع «دار الحرب»، كلها عوامل ساهمت في القضاء على هذه الثورة.

ورغم الفشل الذي مني به ابن قسي، فإنه ساهم في زعزعة أركان النظام المرابطي، وعبرت ثورته بجلاء عن طموحات الطبقة الوسطى والعامّة في غرب الأندلس على تحريك رياح التغيير، وتمهيد الطريق للأندلس ومعها كل أقطار الغرب الإسلامي ليدخل عصر جديد مع الموحدین.

صفوة القول أن ظاهرة الأولياء والمتصوفة شكلت معلمة هامة في التاريخ الاجتماعي للمغرب

(١) Lagardère, op. cit., p.161. - عباس بن إبراهيم: الأعلام... ج ١ ص ٢٢٤.

(٢) أخبار المهدي م.س. ص ٨٧.

(٣) المعجب... م.س. ص ٢٠٩.

(٤) ابن الأبار: م.س. ص ١٩٩.

(٥) الناصري: الاستقصاء... م.س. ج ٢ ص ١٢٠.

(٦) ابن خلدون: المقدمة ج ٢ ص ٤٦٨ - ٤٦٩.

(٧) الفناي: م.س. ص ٦٨.

(٨) ابن الأبار: م.س. ج ٢ ص ٢٠٣. ويتحدث فيه عن الحسد والتشاحن بين ابن المنذر وابن وزير. انظر كذلك:

Lagardère, op. cit., p.16.

(٩) هذا ما يتضح من قول ابن العريف في إحدى رسائله: «لا تكونوا ممن إذا وعظ علف، وإذا وعظ انف، وتزينوا بالرفق ولا تشينوا أعمالكم بالعنف». انظر: مفتاح السعادة م.س. ورقة ١٧٩.

(١٠) مما يدل على هشاشة مبادئه ما ذكرته المصادر عن الحوار الذي دار بينه وبين عبد المؤمن بن علي لما أجازته هذا الأخير إلى الدولة «فقال له: بلغني أنك ادعيت الهداية فكان من جوابه أن قال: اليس الفجر فجران كاذب وصادق فأننا كنت الفجر الكاذب». انظر المراكشي: م.س. ص ٣٠٩.

والاندلس إبان الحقبة المرابطية. وقد جاء ظهورها إفرازاً للآزمة التي طالت المجتمع في المرحلة الأخيرة من العصر المرابطي بسبب نزوب موارد اقتصاد المغازي وكثرة المجاعات، واشتداد الفلاء والفتن. لذلك بات بديهياً أن يقوم المتصوفة بمحاولة لإعادة التوازن الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فلعّبوا أدواراً متنوعة في كل المجالات كما تبينوا معارضة تراوحت بين المعارضة الصامتة، التي اعتمدت خطاباً غير مباشر يستند على توظيف الكرامة الصوفية للتعبير عن موقفها ورؤيتها لإعادة بناء المجتمع وفق معايير مثالية في الغالب الأعم، ثم المعارضة التي نهجت أسلوب العنف والثورة، لكنها آلت إلى الفشل. ورغم ذلك فإن التيارين معاً نجحا في التأثير على شرائح هامة من المجتمع، فأسسا الجذور الأولى للتصوف المغربي، وتركيا بصمات واضحة في تطور مسار المجتمع، كما ساهما في خلخلة النظام المرابطي وإضعافه ودخول المغرب والاندلس منعطفاً جديداً مع حكم الموحدين.

خاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تحيط ببعض الجوانب من تاريخ المجتمع المغربي - الأندلسي، ورصد الذهنيات السائدة فيه خلال الحقبة المرابطية.

وفي هذا الإطار، تمت معالجة الحياة العائلية، فتبين أن ما سادها من سلطة وتبعية وعدم تكافؤ بين الرجل والمرأة، وما ترتب عن ذلك من علاقات سلطوية واستغلالية لم تكن سوى انعكاس لمجتمع قام على مبدأ التفاوت في الثروات والنفوذ، وثقافة متحجرة كرسها بعض الفقهاء الذين لم يتجاوبوا مع الواقع المتطور.

وقد اتضح من خلال النتائج التي تم التوصل إليها أن الحياة العائلية قامت على بنية هرمية اختل فيها الأب مركز القرار والسلطة، بينما ظلت الزوجة والأبناء مجرد وجود تابع له يمارس عليهم كل أشكال التسلط، وإن كانت الزوجة في بعض الأسر الصنهاجية وعائلات الوجهاء والأعيان تمتعت بقسط وافر من الحرية والنفوذ بفضل مركزها الاقتصادي الذي مكّنها من لعب أدوار طلائعية.

وتم كشف النقاب عن نفقات الزواج الباهظة، والعقليات التي حددت معايير اختيار الزوجة واختلاف قيمة المهر حسب البيئات وموقع العائلات في الهرم الاجتماعي وطرق الاحتفال بالاعراس والأعياد والمناسبات العائلية.

وبفضل ما توفر من نصوص دفيئة، أمكن الوقوف على العلاقات الزوجية، فاتضح أنها عرفت أطواراً من الانسجام والتفاهم، إلى جانب التناحر والنزاع، وأن ذلك غالباً ما حدث لأسباب مادية ونفسية - اجتماعية، وتم عرض الحالات التي نتج عنها الطلاق.

كما تم تسليط الضوء على وضعية المرأة داخل الأسرة، فثبت أنها لم تكن سوى صورة مصفرة من وضعيتها داخل المجتمع، فتم إبراز دونيتها، وما تعرضت له من أشكال العنف والقهر من قبل الزوج، وانحصار دورها في الشؤون المنزلية، باستثناء المرأة في الوسط الأرسقراطي التي تمكنت بفضل مكانتها الاقتصادية من أن تلعب أدواراً هامة داخل المجتمع.

وتمكن البحث كذلك من إلقاء الضوء على مظاهر التربية داخل الأسرة، فأكد أنها خضعت لتأثير ثلاثة عوامل: الأسرة والمؤدب أو المدرس ثم البيئة، وأنها اختلفت حسب المستوى المادي للعائلات. كما تم الكشف عن المشاكل والنزاعات التي قامت بين الأخوة داخل الأسرة الواحدة، فتبين أن معظمها حدث لأسباب مادية صرفة كالمراث.

وملجت الدراسة ما سناد هذه الحقبة من معتقدات غيبية كالاعتقاد في أرواح الجن وبعض مظاهر السحر والشعوذة والكهانة والتنجيم، فتبين من خلال التحليل أن هذه الظواهر لم تكن سوى تعبير مقنع عن مواقف ووسائل لتجاوز المشاكل والأزمات التي زخر بها المجتمع المرابطي، وأن انغلاق أبواب الرنق أمام العامة جعلها تلجأ إلى الفكر الغيبي لتعبر عن طموحاتها وأمانيتها وتؤسس عالماً خيالياً تختزن فيه كل توجهاتها.

وبالمثل تمت معالجة التقاليد والعادات السائدة داخل المجتمع، فتم إبراز بعضها وخاصة طرق الاحتفالات بالأعياد، وزيارة القبور والتقاليد الجنائزية وغيرها من العادات التي اختلفت من منطقة لأخرى. كما أزيح الستار عن بعض الأمراض والأوبئة التي شاعت خلال الحقبة موضوع الدراسة. وأمكن في ضوء بعض النصوص المنشورة والمخطوطة الوقوف على أنواع الأطعمة السائدة والأزياء المستعملة، فاتضح أنها اختلفت حسب الوضعية المادية للأفراد وحسب بيئتهم الحضرية والبدوية. كما أبرزت الدراسة ولع الناس بالمتنزهات ووسائل الترفيه، وكشفت عن جملة من الألعاب التي يكثر الإقبال عليها.

وتصدى البحث أخيراً لمعالجة ظاهرة الأولياء والمتصوفة، فبينت ما انطوت عليه رؤية بعض الكتابات الأجنبية من مزالق في تفسير أسباب ظهورها. وتم رصد التيارات الصوفية السائدة، فاتضح أن التصوف انتقل خلال هذه الحقبة من التصوف الساذج إلى التصوف الفلسفي. كما تم إبراز الأصول الاجتماعية للمتصوفة، فتبين أن معظمهم يرجعون إلى أصول فقيرة. وفي الوقت ذاته جرى تحليل موقف المتصوفة من المجتمع، فاتضح أنه اختلف من التيار المعتدل المسالم إلى التيار المتطرف.

وبفضل ما تجمع من مادة جديدة، أمكن الوقوف على دور المتصوفة في المجتمع، فتبين أنهم لعبوا دوراً هاماً كلما حل قحط أو مجاعات. كما حاولوا التخفيف على الفقراء من عبء الضرائب ومساعدة اليتامى والأرامل وإطعام الغرباء ومعاونة الدائنين، فضلاً عن دورهم الأخلاقي والدعوة إلى القيم الدينية، إلى جانب الثورات المسلحة التي قام بها التيار الصوفي المتطرف.

ومع أن الدراسة حاولت الإحاطة بالعديد من القضايا القمينة بتفسير التطور البطيء للمجتمع بالمغرب والاندلس خلال الحقبة المرابطية، فثمة إشكاليات ملغزة لا زالت في حاجة إلى المزيد من التنقيب والحفر، وتلك مسؤولية كل باحث.

الملاحق

١٧١

ملحق رقم (١)

رسالة من الأمير علي بن يوسف إلى المستظهر بالله العباسي^(١)

مخص الله حضرة الإمام المستظهر بالله أبي العباس أمير المؤمنين بأفكار الحسنات، وانوار
المساعي الصالحات، وحشر إليها وفود الخيرات وصرف^(٢) دونها عيون الحادثات، كتب ولي الدولة
العباسية المقتدر بسيرتها الفاضلة المرضية وهو بحمد الله جلت أسماؤه حمداً موصول الأسباب،
معدود الأطناب، ونسأله^(٣) الصلاة على محمد رسوله المنتخب للباب من أكرم الأنساب، وأن يختص
حضرة أمير المؤمنين سليل الخلائف بصفايا العوارق والموالف اللطائف ويجمع على الأقران بحقها،
والاعتراف بفضلها كلمة المخالف والمخالف، وعقيدة المناجف والموالف عن أوفى عهد وأقوى عقد في
التمسك بعلائق طاعتها، والتقليد بقلائد^(٤) إمامتها بعد أن وصل إليه كتابها العزيز مضمناً من
متراسمها العالية ومواكبها الزاكية عهد الزموها رسوماً وحداداً، وأقامها في عضد أمره جنوداً،
ونشر منها ألوية للفخر وبنوداً، على أنه ما زال يحمل مشايعتها ومبايعتها معتصماً وبعلامة إمامتها
وخلافتها معلماً ولأحكام ملتها^(٥) العادلة متقلداً ملتزماً وفي مجاهدة أعداء الدين وحماية أرجاء
المسلمين مجتهداً معتزلاً ما يشيد بالدعاء لها على منابر بلاده ويعظم أمرها ويفخم فوزها وذكرها في
أوقات انفراده واحتشاده ويجعل تقوى الله تعالى نصب اعتقاده وعرض اعتماده، ويتخذ من كتابه
المبين، وسنة رسوله الأمين دليل هدايته وإرشاده ويستقرغ في قطع المظالم ومنع المحارم وسع قدرته
واجتهاده، وعلى هذه البصيرة والوتيرة درج من درج من أبائه وأجداده والأحوال بحمد الله بجنابات
مستقيمة، والأعمال في جميع جهاته سليمة، والأحكام بمراعاته على مركز الحق ومقر العدل مقيمة،

(١) هو الخليفة العباسي المستظهر بالله الخليفة ٢٨ من الخلفاء العباسيين تولى الحكم فيما بين ٤٨٧ و ٥١٢ هـ وهو الذي قلد يوسف بن تاشفين وابنه علي الإمارة على المغرب والاندلس .

(٢) في الأصل: وطرف لكننا استحسننا مصطلح حرف تمشياً مع المعنى .

(٣) كتبت في الأصل هكذا: نسأله .

(٤) في الأصل: لقلائد .

(٥) في الأصل: منتها .

والأجناد موفورة في سبيل الجهاد معمورة، وأحزاب الكفر فيما جاور أقطاره موطرة مدحورة، وثغور المسلمين محفوظة مضبوطة، وأمور الدين مشدودة مربوطة، وأيدي الجور والخوف في جميع عمله مقبوضة محطوطة، وبسط العدل والأمن معدودة مبسوطة، وولي الدولة المجدة وصل الله علوها وكبت عدوها نرى أن انتظام أموره ودوام ظهوره بما يعتقده ويتقلده من القيام بدعوتها والاعتصام بعصمتها، والانتظام في سلك طاعتها والله يكتبه في الرعيل الأول من جملة أوليائها وحمله إليها المستظلين بظل رايتها ولوائها، ولا يعدمه التشرف بما يرد عليه من عهودها السامية، وإنأختها^(٦) بغرته، وسلام الله الموصول على حضرة الإمامة، ومحل الكرامة ورحمة الله وبركاته،^(٧).

المصدر: المواعيني: ريعان الالباب وريعان الشباب في مراتب الآداب.
مخطوط: خ. ح. رقم ٢٦٤٧ ص ٩٨.

(٦) في الأصل: إنأختها.

(٧) الرسالة من إنشاء أبي القاسم بن الجدي.

ملحق رقم (٢)

رسالة تعزية موجهة للأمير يوسف بن تاشفين في وفاة الأمير مزديلي^(١)

«أطال الله بقاء أمير المسلمين، وناصر الدين الشائع عدله، السابغ فضله، العظيم سلطانه العلي شأنه في سعد تطرف عنه أعين النواصب، وجد يصرف عنه أوجه المصائب كل رزء أدام الله تأييده وإن عظم وجل حتى استول على النفس منه الوجل إذا عدا بابيه وتخطى جنبابه، وقد أخطأ بحمد الله المقتل، وصعد عن سواء الغرض فجزل وإذا كانت أقدار الله تعالى لا تطاول^(٢)، وأحكامه لا تزاول، فالصبر لمواقعه أولى، والتسليم أذهب لرضى المولى. وكتبته أدام الله تأييده والنفس بنار زفرائها محترقة، والعين بماء عبرتها شرقة مغرورة لما نفذ به قدر الله المقدور، وقضاؤه المسطور من وفاة الأمير الأجل أبي محمد مزديلي قدس الله روحه، وسقا ضريحه، فيا له رزء قصم الظهر، ووسم النجوم الزهر، وأذكى الأحزان، وأبكى الأجفان بمكانته من الدولة المنيفة، ومنزلته من الأسرة الرفيعة الشريفة، وعند الله تحتسبه ذخيرة عظمى وتسأله^(٣) المغفرة والرحمى، فإنه كان نور الله وجهه متوفر المهمة على الجهاد من أجل الجد في ذلك والاجتهاد. وحسبه أنه لم يقض نحبه إلا وهو مجتهد في عسكره فأدركه الموت مجاهداً، ومع الله تاجراً، وأرجو أن يكون قد قرن له فاتحة السعادة بخاتمة الشهادة. وأمير المسلمين أورى في الرياسة زنداً من أن تضعطه الخطوب وإن أهمت، وتوجعه الحوادث وإن ادلهمت والله يحسن عزاءه على فجعه ولا يدني كارتاً بعده من ربه».

المصدر: البلوي: العطاء الجزيل مخطوط الخزانة الحسنية رقم ٦١٤٨

ص ٦٤.

(١) هو الأمير أبو محمد مزديلي. من أكابر المرابطين. وهو ابن عم يوسف بن تاشفين، لعب دوراً هاماً في الميدان العسكري. توفي سنة ٥٠٨ هـ ويذكر ابن عذاري جملة من أخباره انظر البيان المغرب ج ٤ ص ٢٦، ٢٩، ٤١.

١٤٨، ٦١، ٦٠، ٥٧، ٥٦، ٦٨، ٤٢.

(٢) في الأصل: تمارل.

(٣) كتبت هكذا في الأصل: وتسئله.

ظهر توقير واحترام بعثه الأمير علي بن
يوسف إلى المتصوف الشيخ أبي عبد الله
محمد أمغار مؤرخ سنة ٥٢٧ هـ

«من أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين إلى أبي عبد الله محمد بن الشيخ
الشريف أمغار^(١) وليه في الله أكرمك الله بتقواه.

بسم الله الرحمن الرحيم، أبقاك الله وإيانا بتقواه، ويسرك للعمل بما يوافق رضاه.

من حضرة مزاكش حرسها الله عقب ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة وقد علمنا^(٢)
ما أنت عليه من الخير والدين والجري في أحوالك على نهج الصالح المستبين، فاعتقدناك في الأولياء،
ورتبناك في أهل الذكاء، وخاطبتناك ناديين لك إلى اختصاصنا بخالص الدعاء، فأقسم لنا في ذلك حظاً
من ابتهاك في الأوقات المرجوة، واعتمد فيه رسم المواظبة والصفاء، والله سبحانه يجعلنا ممن الهم ما
يرضاه واشتغل فيما يوجب زلفاه ورحمة بقدرته لا إله سواه، وتبلغ سلاماً جزيلاً كثيراً لأهل حزبك
وأهل بيتك الشرفاء الفضلاء ورحمة الله وبركاته.

المصدر: ابن عبد العظيم الأزموري: بهجة الناظرين وأنس العارفين.

(مخطوط): خ.ع.م. رقم ج ٢٧٧٧ ص ٢١.

(١) هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن أمغار أحد مشايخ أسرة آل أمغار الشريفة بعين الفطر بأزمور. ومعلوم أن بعض
النسابة يطلعون في شرفها المزعوم وقد ناقشنا هذه المسألة في هذه الدراسة.

(٢) في الأصل: علم. ونعتقد أن السياق الصحيح هو كما أثبتناه في المتن.

عقد يتضمن شهادة ضرب الزوج زوجته وإصابتها بجروح

«أشهدت فاطمة بنت القاسم على نفسها، وهي مضطجعة الفراش في صحة من عقلها، وثبات من ذهنها تشكو ألم جراحات في جسدها إحداها بمؤخر رأسها، واشتتان منها بجنبها الأيسر تحت مرجع كتفها من الجهة المذكورة، والرابعة بظهرها مائلة إلى الجنب الأيسر، والخامسة برأس منكبها الأيمن، والسادسة تحت إبطها من الجهة اليسرى تجد منها ألم الموت. وذكرت لهم أن جانبيها عليها والمصيب لها بجميعها زوجها عبد السلام على وجه الاعتداء منه والعمد والظلم الموجب للقتل^(١). فمتى حدث بها حدث الموت قبل ظهور برئها^(٢) وإفاقتها من جراحاتها هذه، فإن المطلوب بدمها، زوجها المذكور إذ كان هو الجاني لذلك كله عليها على أوجه العمد كما ذكر. شهد على إ شهادة فاطمة بجميع ما فيه عنها من أشهدته به وهي بالحالة الموصوفة وعاین جراحاتها وإن ذلك مما لا يفعل المرء بنفسه في كذا....»

المصدر: ابن الحاج: نوازل ابن الحاج (مخطوط) خ.ع.وم. رقم ج ٥٥
ص ٢٩٩.

(١) كلمة غير واضحة واستحسننا قراءتها كما ورد في المتن.

صيغة عقد كراء منزل

«اكتري فلان بن فلان بن فلان جميع الدار التي بموضع كذا، حدودها كذا، بحقوقها ومنافعها ومرافقها ومدخلها ومخرجها وبثراها لمدة عام كامل أوله شهر كذا بكذا وكذا ديناراً مقسطة بالسوية على شهور العام المذكور. يدفع المكتري عقب كل شهر ما ينوبه من العدد المذكور وذلك كذا وفلان مصدق في الاقتضاء منه دون يمين تلزمه في دعوى القضاء اكترأء صحيحاً عرفاً قدره ومبلغه بلا شرط ولا منتوية ولا خيار. ونزل المكتري في الدار المذكورة في أول الشهر المذكور ليستوي في أمر اكترأءه وإبراء المكري من درك الإنزال على سنة المسلمين في اكريتهم ومرجع دركهم».

المصدر: المقصد المحمود للجزيري (مخطوط) ح. ح رقم ٥٢٢١ ص ١٠٦.

تعقيب الجزيري على هذا العقد:

«وإن دفع المكتري، واجب آخر كل شهر موضع يدفع، دفع المكتري إلى المكري واجب آخر شهر من شهور العام المذكور وذلك كذا ويدفع عقب كل شهر من سائر الشهور ما ينوبه من ذلك وأقر فلان بقبض واجب آخر الشهور المذكورة وازناً طيباً ثم تكمل العقد. وإن وقع الكراء بالنقد اسقطت ذكر التقسيط وقيدت قبض جميع الكراء على رب الدار. وإن لم ينزل المكتري في الدار اسقطت من العقد ذكر النزول. وإن وقع الكراء في فندق افتتحت الكراء على ما تقدم. فإن كان توزيع الكراء على الشهور يختلف بحسب النفاق والكساد قلت بكذا وكذا ديناراً».

المصدر: نفسه

ملحق رقم (٦)

رسالة من ابن العريف إلى أحد مريديه حول الاتصالات ومعرفة الأخبار بين المتصوفة

«إلى الفقيه أبي الحسن بن غالب المودود، أحسن الله ذكراه، من أخيه الضعيف أحمد بن محمد عفا^(١) الله عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم صل الله على محمد سيد رسلك وعلى آله وسلم تسليماً. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أقام الله لسانك بالصدق وغمس قلبك في نعيم الرفق غمسة تجعلك لكافة الخلق. وتوجب لك الزلفى في مراقبة الحق لا فرق بين الشكوى إليه والشكوى إلى من أمر به وحض عليه وإن أخاك لم تارك^(٢) في السفلى متردد حول السؤال^(٣) أجهل الناس بقدره وامقتهم بطوية صدره لامع الباكين في مواقف الأحزان، ولامع اللاهين في مراتع الأنس. بعدت أنباؤك عنه فوحشته بك طويلة ولم يدركيف حالك وحال إخوانك فمسرته قليلة قليلة ما أشبه الليلة عنده بالبارحة وأقرب اليوم من غد فيا للذي لك أسأله وله أسألك لا يمنعك من المخاطبة إلا مانع ضرورة، واجعل من هما معنى كتابي في السالف الذي لم يكن لي عليه جواب وكنت في عام تسعة وعشرين لم يصل إلينا في جهة المشرق مخبور يأنس ولا مخبور بطييه نفس، فترادف الكرب حتى فتح الله سبحانه بأبي موسى أخينا وابن أبي موسى فكان بسط نفعه الله ونفع به أخوك اليوم تلف وتساروى عنده ما جهل وما عرف وعقد لسانه عقدة من ورائها تقف الحكمة ومن دونها تطرد ينابيع عين العصمة وأعجز الناس من اشتكاك أخوه فرقدا وأعجز منه من استكبر وقعد ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا عذر لمن ولى عن الذكر وجفاه، وزد في حب إخوانك عني وأقراهم^(٤) سلامي عميماً على كل باسمه والسلام المعاد عليكم ورحمة الله..

المصدر: مفتاح السعادة وتحقيق الإرادة لابن العريف، مخطوط خ. ح.

رقم ١٥٦٢ ص ٦٠ - ٦١.

(١) في الأصل عفا.

(٢) ما تقرأ لتكبر.

(٣) في الأصل السزاي.

(٤) في الأصل واقترهم.

رسالة من ابن العريف إلى ابن قسي زعيم الثورة في غرب الأندلس ضد المرابطين

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد نبيه الكريم. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كتبت عن صلاح ظاهر، وعافية شاملة لي ولأهلي وإخواني والحمد لله رب العالمين. ووقفت من قبل قريبي أحمد سلمه الله عند منصرفه من تلك الجهة على عدة كراريس في فنون من العلم كتب فيها بعض كلامك وأجوبتك، فسرني تمام فهمك ونفوذ عزمك وإشرافاً من علم الحقيقة على أنها كتاب متشابه بصدق بعض لبعض. فالحمد لله الذي أبلغني عن أهل وقتي ما كنت أؤمله وإني منذ ست وعشرين سنة سألت رجلاً من أهل القرآن والحفظ للموطأ^(١) والسياسة كيف بأهل الانقطاع في العلم قال غلب عليهم الاجتهاد والعمل، وقل عندهم العلم والبحث، فقلت واحسرتي، ثم هأنا يبلغني عن أناس بالشرق والمغرب في وقتنا من نكت العلم ما يسرني من كان في حقائق العلم همه وغمه ومن أشد ما يمسني بعد معرفتي بحالها وحال إخواني لما في رؤية أحوالكم ومعرفتي بها من يقظة قلبي وحياة ليلي فأعلمه والسلام عليكم وعلى كل واحد ممن تحبه ويحبك مردداً ورحمة الله وبركاته».

المصدر: ابن العريف: مفتاح السعادة وتحقيق الإرادة. (مخطوط)

خ ج رقم ١٥٦٢ ص ١٩٣ - ١٩٤.

(١) في الأصل كتبت مكذا الموطأ.

جانب من أفكار ابن قسي في التصوف

«الحمد لله اعلم ان التعيين، وقبول ما ظهر من الحق بطريقة الرسالة، وهو ما جاءت به الرسل من الإيمان والإسلام والأحكام، وقبول ما غاب من الدار الآخرة وأحوال القيامة والجنة والنار وغيرهما. فإذا صدق المالك، وقبل المذكورات بالعلم. يقال علم علم اليقين. وأما المرتبة الثانية وهي عين اليقين، وهو الغناء عن الاستدلال والاستدراك والخبر وهو شهد الأشياء بالكشف، وإدراك الحقائق في علم القدس، فلا مدخل فيه للنقل والاستدلال. وهو أعلى من المرتبة الأولى لأنه أسرارها وأبكار معانيها. وانطبعت فيه معاني جميع البطون وحقائقها فهو سر الوجود وقبلة الواجد والموجود، يعرف الأمور في مراتبها، ويشاهد المعاني في مواطنها. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. سبحانه اللهم أنت الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنت بكل شيء عليم وأنت على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والحمد لله رب العالمين».

المصدر: ابن عربي: شرح خلع النعلين (مخطوط) دار الكتب القومية بالقاهرة رقم ٦٣٩.

فتوى تتضمن عقاب القتل بالصلب لمن خالف تأويل النصوص القرآنية

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد. كتب إلي أبو عبد الله بن فرج الجواب رضي الله عنك في رجل سمع قارئاً يقرأ ﴿ثم سواء ونفخ فيه من روحه﴾ فقال لمن حضره لا تعتقدوا. إن آدم فيه من روح الله شيئاً، إنما الروح ملك أمر الله فنفخ فيه من روحه. وسمع أيضاً قارئاً يقرأ: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ فقال الله أرفع وأعظم من أن يكلم موسى، وثبت عليه هذا القول. بين لنا الواجب في ذلك. فاجاب: هذا رجل لا شك في حمقه ورداءة دينه وجهله لأن العلماء كثيراً ما كانوا يمسكون عن الجواب فيما سئلوا عنه. وقد قال ابن عباس: من أجاب الناس في كل ما سألوه عنه فهو مجنون... فالواجب أن يؤخذ هذا الفاسق لعنه الله ويسجن بعد أن يكبل في الحديد ويستتاب بحضرة أمير البلد والقاضي والفقهاء وجماعة الناس، فإن تاب أطلق ومنع أن يجالسه أحد، ويجتمع إليه، وإن تمادى على كفره، قتل ويكون قتله بالصلب على ما مضى عليه العمل في الزنادقة بقرطبة من أيام الحكم^(١) إلى اليوم».

المصدر: ابن الحاج: نوازل ابن الحاج (مخطوط) خ.ع. وم. رقم ج ٥٥
ص ٣٠٩.

(١) المقصود هو الأمير الأنديلي الحكم الربضي.

بعض العائلات المغربية والأندلسية
الارستقراطية في العصر المرابطي

| العائلة | مكان
إقامتها | أسباب
شهرةها | المصدر |
|-----------------------|----------------------|--------------------------|---|
| بيت بني عشرة | سلا | العقار، الثروة
القضاء | رايات المبرزين
ص ٩٣ الاستبصار
ص ١٤٠ |
| بيت بني أمغار | عين الفطر
(أزمود) | الولاية والصلاح | بهجة الناظرين
ورقة ٢١ |
| بيت التميمي | سبتة | الحسب والنسب | التكملة ج ٢ ص ٩١٥، ٩١٤ |
| بيت بن الشيخ | مكناسة | العلم والصلاح | زهرة الآس م ١ ص ٨٢ |
| بيت بني حمدين | قرطبة | القضاء | المغرب في حل
المغرب ج ١ ص ١٦٢ |
| بيت بني سعيد | قلعة بني
سعيد | القيادة | فقهاء مالقة ص ١٢٣ |
| بيت بني المعافري | شاطبة | الفقه | المعجم لابن الأبار ص ٩١ |
| بيت بني بشتغير | لورقة | غير محدد | المصدر نفسه ص ٣٠٥ |
| بيت بني أبي
العباس | مالقة | العلم والأدب | المغرب في حل
المغرب ج ١ ص ٤٢٦ |
| بيت المرواني | غير محدد | الفقه والأدب | الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٨٢٠ |
| بيت العذري | دلاية | الفقه | المعجم ص ١٢١ |
| بيت الحضرمي | غير محدد | العلم والقضاء | الذيل والتكملة
س ١ ق ١ ص ٣٤١ |

| العائلة | مكان
إقامتها | اسباب شهرتها | المصدر |
|------------------|-----------------|--|---------------------------------------|
| بيت بني مغيث | قرطبة | الشورى والقضاء | بنية الملتبس ص ٤٥٥ |
| بيت بني برطلة | غير محدد | العلم والأصالة | الذيل والتكملة س ٦ ص ٢٨٧ |
| بنو الفرغ | بلنسية | الادب والثروة
(الارث) | المغرب في حل
المغرب ج ٢ ص ٢٠٤ |
| بنو واجب | بلنسية | الوزارة والقضاء | المصدر نفسه ص ٢١٥ |
| بيت بني لب | شلب | العلم والنسب | التكملة ج ١ ص ٣٦ |
| بيت بني حجاج | إشبيلية | وراثه الخطط | اختصار القدر
المعل ص ١٤٠ |
| بيت بني زهر | إشبيلية | الطب والخطط | المدارك ج ٨ ص ٢٩ |
| بيت اليحصيين | قرطبة | القضاء والخطط | أخبار وتراجم
أندلسية ص ١٢٣ |
| بيت بني المخزومي | جزيرة شقر | غير محدد | المصدر نفسه ص ٢٤٢ |
| بيت الغساني | غرناطة | العلم والفضل | المصدر نفسه ص ٤١٢ |
| بيت ابن أبي حبيب | شلب | الوجاهة والثروة | المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٥ |
| بيت بني حسون | مالقة | رأسة الإمارة في
أواخر الحكم
المزابطي | أعمال الاعلام القسم
الأندلسي ص ٢٥٥ |
| بيت أبي جعفر | مرسية | إمارة مرسية | المصدر نفسه ص ٢٥٨ |
| بيت ابن عاصم | أوريولة | إمارة أوريولة | المصدر نفسه ص ٢٥٩ |
| بيت بن ملحان | وادي أش | إمارة
وادي أش | المصدر نفسه ص ٢٦٤ |
| بيت بني المرخي | بلنسية | العلم والادب | الذخيرة ق ٢ م ٢ |

ملحق رقم (١١)

العائلات الفاسية النبيهة في
العصر المرابطي

| العائلة | الزقاق
الذي
تقيم به | اسباب نباهتها | المصدر |
|-------------------|---------------------------|--------------------------|-----------------------------------|
| عائلة بني دبوس | عقبة ابن
دبوس | العلم والثروة | بيوتات فاس الكبرى ص ٢٦ |
| عائلة بني حمد | مدشر منصور | العلم والثروة | الموضع نفسه |
| عائلة بني اللواتي | حارة لواته | العلم والفقه | المصدر نفسه ص ٣٦ |
| عائلة بني شلوش | درب ابن
شلوش | الفقه والثروة | المصدر نفسه ص ٣٦ |
| عائلة بني حنين | زقاق ابن
حنين | الفقه والثروة | المصدر نفسه ص ٣٩ |
| عائلة بني خنوسة | غير محدد | العلم والصلاح | المصدر نفسه ص ٤٠ |
| عائلة بني العجوز | غير محدد | العلم والفقه | المصدر نفسه ص ٤١ |
| عائلة بني بكار | غير محدد | العلم والفقه | المصدر نفسه ص ٤١ |
| بيت بني بسيل | أحواز فاس | الصلاح والولاية | المستفاد ص ١٠٢ |
| بيت بني المجوم | غير محدد | ايعان المدينة
وقضاتها | جذورة الاقتباس
ق ٢ ص ٥٠٠ - ٥٠١ |
| بيت بني المغيلي | وطا
المغيلي | العلم والثروة | المصدر نفسه ص ٥٣٧ |
| بيت بني يسكر | غير محدد | الثروة | بيوتات فاس
الكبرى ص ٤١ |

| العائلة | الزقاق
الذي تقيم به | اسباب نبأهتها | المصدر |
|-----------------------------|---------------------------------------|-------------------------|----------------------------------|
| بيت بني وشون | غير محدد | القضاء | الموضع نفسه |
| بيت الأوروبيين | غير محدد | فقه وصلاح | المصدر نفسه ص ٤٢ |
| بيت بني أبي الحاج | درب أبي
حاج | الحسب والثروة
والعلم | المصدر نفسه ص ٤٤ |
| بيت بني الغماري | درب الغماري
(قرب جامع
القرويين) | الثروة والعقار | |
| بيت ابن الأمين | غير محدد | التجارة | إزالة الالتباس ص ٤١ |
| بيت ابن عبود | قرب باب
بني مسافر | أمولاك وعقارات | الروض العاطر
الانتفاص ورقة ١٢ |
| بيت بني الأزدي | غير محدد | القضاء | زهرة الأس م ١ ص ٩٢ |
| بيت بني البان | غير محدد | العلم | المصدر نفسه ص ٩٥ |
| بيت بني البيري | غير محدد | العلم والفقه | المصدر نفسه ص ١٨٦ |
| بيت بني عشرين | غير محدد | العلم والأصالة | الإعلام ج ١٠ ص ٢٥٦ |
| بيت بني طویل | غير محدد | الحسب والنسب | صلة الصلة ق
الغرياء، ص ٥٥٢ |
| بيت بني حزب
الله الخزرجي | غير محدد | العلم والنسب | جذوة الاقتباس
ق ١ ص ١١٩ |
| بيت بني المكودي | غير محدد | الكتابة والقضاء | المصدر نفسه ص ٢٢٩ |

ملحق رقم (١٢)

بعض المعتقدات الشعبية
حول ما يحدث إبان السنة

| الشهر | علاماته | المعتقدات التي تناسب هذه العلامات |
|-------------------------|--|--|
| اكتوبر/
تشرين الاول | دوي الرعد في اول يوم منه | يرفع الله فيه كبير الناس
في تلك السنة |
| | دوي الرعد في اليوم الثالث منه | غلاء الاسعار |
| | دوي الرعد في النصف الاخير منه | كثرة الخصب |
| نوفمبر/
تشرين الثاني | دوي الرعد في اول يوم منه | بركة وخير في تلك السنة |
| | دوي الرعد في اليوم
الثالث إلى عشرين | ارتفاع الضر عن الناس |
| ديسمبر/
كانون الاول | دوي الرعد في اول يوم | موت شخصية كبيرة |
| | دوي الرعد مرتان | موت شخصيتين إلى خمسة |
| | أكثر من ذلك | سنة خير |
| يناير/
كانون الثاني | دوي الرعد من اوله إلى نصفه | سنة لا خير فيها |
| | دوي الرعد في النصفين معاً | يحدث قتال في سواحل البحر - ينتشر
مرض الرمد - سنة باردة - موت
الابقاء - حدوث زلازل في المشرق. |
| فبراير/
شباط | دوي الرعد من اوله إلى نصفه | غلاء الاسعار - فتنة وقتال |
| | رعد في نقصانه | خصب - موت في الماشية -
زلازل في اراضي العجم |
| مارس/
اذار | رعد | خير |
| | هلال مستوي | بركة |

| | | |
|---------------|-------------------------------------|-----------------------------------|
| إبريل - مايو/ | رعد | فتنة وهرج وفساد في الطعام |
| نيسان - أيار | هلال مستوي | صلاح الزرع - سيادة الامن والخيرات |
| | هلال مائل | كثرة الموتان |
| يونيه/ | رعد | هلاك الكبراء |
| حزيران | هلال مستوي | كثرة الزرع والامن والدعة |
| | هلال مائل | كثرة الموتان |
| يوليوز/ | رعد | موت رجل ذي شأن |
| تموز | هلال مستوي | نزول البرد - رعد يعم الناس |
| غشت/ | رعد | فرح الناس |
| أب | هلال مستوي | صلاح الزرع وكثرة الخير والامن |
| سنتنبر/ | الرعد في الايام الثمانية الأولى منه | كثرة الامطار وصلاح القلة |
| أيلول | الرعد في العشرين منه | حدوث الجراد - قلة القلة |

• الجدول مأخوذ من خلال نصوص الطقنري: زهرة البستان ونزهة الأذهان (مخ) ص ٢٧ - ٢٩. وانظر ما ورد من أمثال العامة حول المعتقدات التي تصب في هذا الاتجاه: الزجاجي: ري الاوام ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

رموز المجلات الأجنبية

A.M= Archives Marocaines.

B.E.S.M.= Bulletin Economique et sociale du Maroc.

F.O= Folia Orientalia.

Hes= Hesperis.

J.A= Journal Asiatique.

J.E.S.H.O= Journal of the Economic and Social History of the Orient.

O.H= Orientalia Hispanica.

R.E.I= Revue d'Etudes Islamiques.

F.F.H.O.M= Revue Française d'Histoire d'Outre Mer.

R.H.C.M= Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb.

R.H.E.S= Revue d'Histoire Economique et Sociale.

R.I.E.I.M= Revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid.

R.O.M.M= Revue d'Occident Musulman et de la Méditerranée.

S.I = Studia Islamica.

الاختزالات المستعملة في الهوامش

ا = وجه الورقة في المخطوط.

ب = ظهر الورقة في المخطوط.

ت. ع = الترجمة العربية.

ت. ص = تحقيق حاج صادق.

د. ت = دون تاريخ.

د. ت. م = دون ذكر تاريخ ولا مكان الطبع.

ز = زجل.

ع = عدد.

ط = طبعة.

ق = القسم.

قص = قصيدة.

مج = مجلد.

مخ = مخطوط.

م. س. = مرجع سبق ذكره.

م. م. د. إ. م = مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديره.

م. م. ع = مجلة المؤرخ العربي.

ن. م. = نفس المرجع.

Ed= Edition.

Fas= Fascicule.

S.D.E= Sans date d'édition

T= Tome.

TR= Trimestre.

الرموز الخاصة بأسماء خزانات المخطوطات

| | | |
|--|---|---------------|
| الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط. | = | خ. ع. و. م. ر |
| الخزانة الحسنية. | = | خ. ح |
| خزانة دار الكتب بالقاهرة. | = | خ. د. ك. ق |
| خزانة الاسكوريال. | = | خ. إ |
| الخزانة الوطنية بمديره. | = | خ. و. م |
| خزانة تمكروت. | = | خ. ت |

المصادر المخطوطة المستعملة في البحث

- ابن أبي الخصال، عبد الله بن محمد بن عبد الملك مسعود ابن فرج الغافقي (ت ٥٢٩ هـ): رسائل ابن أبي الخصال: ميكروفيلم خ. ع. و. م. ر. رقم ١٥.
- ابن الحاج، أبو عبد الله بن الحاج الشهيد (توفي بقرطبة في ٢٦ رمضان عام ٥٢٩ هـ): نوازل ابن الحاج خ. ع. و. م. ر. رقم ج ٥٥.
- ابن حجر التميمي (ت ٩٧٤ هـ): منتهى الاعلام بوفاة الصحابة وملوك الإسلام. خ. ح. رقم ١٥٠٧.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي الفقيه (توفي بقرطبة في ١١ ذي القعدة عام ٥٢٠ هـ) نوازل ابن رشد. خ. ع. و. م. ر. رقم ك ٧٢١.
- ابن زكوى، حسن إبراهيم بن عبد الله بن أبي سهل أبو علي (ت ٥٥٣ هـ) اعتماد الحكام في مسائل الأحكام خ. ع. و. م. ر. رقم ق ٤١٣.
- ابن زهر، أبو العلاء زهر بن عبد الملك الأشبيلي (ت ٥٢٥ هـ) جامع أسرار الطب. خ. ع. و. م. ر. ضمن مجموع د ٥٢٢.
- ابن زهر، أبو مروان عبد الملك الأيادي (ت ٥٥٧ هـ) كتاب مختصر في الأغذية. خ. ح. رقم ٢٤٣٠.
- ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت ٦٢٧ هـ): أخبار أبي العباس السبتي. خ. ع. و. م. ر. رقم د ٧٦٧.
- ابن سلمون، أبو القاسم سلمون بن علي سلمون الكتاني (قاضي الجماعة بفرناطة): العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام. خ. ع. و. م. ر. ضمن مجموع د ٦٧٠.
- ابن سهل، عيسى بن أصبغ عبد الله الأسدي (ت ٤٨٦ هـ): نوازل الأحكام في مذاهب الحكام. خ. ع. و. م. ر. رقم ق ٢٧٠.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي الفضل التلمساني الأنصاري (ت ٩٠١ هـ): النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب خ. ح. رقم ٢٤٩١.
- ابن الطواغ، عبد الواحد بن محمد التونسي (كان على قيد الحياة سنة ٧١٧ هـ): سبك المقال لفك العقال. خ. ح. رقم ١٠٥.
- ابن عبد العظيم، أبو عبد الله محمد الأزموري (ت سنة ٧٢١ هـ): بهجة الناظرين وانس العارفين. خ. ع. و. م. ر. رقم ج ٢٧٧. نسخة أخرى رقم د ١٢٤٣.
- ابن العريف، أبو العباس أحمد بن موسى الصنهاجي (توفي بمراكش سنة ٥٢٦ هـ): مفتاح السعادة وتحقيق الإرادة. خ. ح. رقم ١٥٦٢.

- ابن عسكر، محمد بن علي بن خضر بن هارون الفساني (ت ٦٢٦ هـ): **فقهاء مالقة وأدبؤها**. (م. خ).
- ابن ليون، أبو عثمان سعد بن الشيخ أبي جعفر أحمد ابن إبراهيم التجيبي (ت ٦٦٤ هـ): **لمح السحر من روح الشعر وروح الشجر**. خ. ع. و. م. ر. رقم د ١٠٢٢.
- ابن المناصف، محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي (ت ٦٢٠ هـ): **تنبيه الحكام** (م. خ).
- أبو عمران، موسى المازوني: **صلحاء وادي شلف**. خ. ع. و. م. ر. رقم ك ٢٢٤٢.
- أبو مدين، الشيخ شعيب الانصاري الأندلسي نزيل فاس (ت ٥٩٢ هـ): **انس الوحيد ونزعة المريد**. خ. ع. و. م. ر. رقم د ١٩٩١ ضمن مجموع.
- أبو مدين: **قصيدتان في التصوف**. خ. ع. و. م. ر. رقم د ٧٧٤.
- أبو الوليد هشام بن عبد الله بن هشام الأزدي (ت ٦٠٦ هـ): **مفيد الحكام في نوازل الأحكام**. خ. ع. و. م. ر. رقم ق ٨٠٥.
- البرزلي، أبو القاسم بن أحمد بن محمد البلوي القيرواني (توفي بتونس عام ٨٤١ هـ): **جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام**. خ. ع. و. م. ر. رقم د ٤٥٠.
- البلوي، أبو القاسم أحمد بن محمد بن عبد الرحمن القضاعي الأشبيلي (توفي بمراكش عام ٦٥٧ هـ): **العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل**. خ. ح. رقم ٦١٤٨.
- التميمي، أبو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الكريم الفاسي (ت ٦٠٤ هـ): **كتاب المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**. (م. خ).
- الجزيري، أبو الحسن علي بن القاسم (توفي في ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ): **المقصد المحمود في تلخيص الوثائق والعقود**. خ. ح. رقم ٥٢٢١ وكذلك النسخة رقم ١٢٦٦١.
- الحلبي، أبو حفص عمر بن الوردي بن المظفر الكندي (ت ٧٤٩ هـ): **كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب**. خ. ع. و. م. ر. رقم ك ٢٤٢٩.
- الزياتي، عبد العزيز بن الحسن مهدي (عاش في القرن ١٠ م): **الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجمال غمارة**. السفر ١. خ. ع. و. م. ر. رقم ١٦٩٨.
- الزياتي، أبو القاسم بن أحمد (ت ١٢٤٩ هـ): **يغية الناظر والهيكل الجامع بما في التواريخ من الجوامع**. خ. ح. رقم ١٢٥٠.
- الزياتي: **تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب**. خ. ح. رقم ٢٤٧١.
- الزياتي، الترجمان المغرب في دول المشرق والمغرب، خ. ع. و. م. ر. رقم د ٦٥٨.
- الصومعي، أحمد بن أبي القاسم بن محمد الشعبي الهروي القادي (توفي بتادلة عام ١٠١٢ هـ): **المفزي في مناقب الشيخ أبي يعزى**. خ. ح. رقم ٢٤٦٧.
- الطروش، أبو بكر محمد بن الوليد (ت ٥٢٠ هـ): **رسالة في تحريم الغناء واللهو على الصوفية في رقصهم وسماهم**. خ. ع. و. م. ر. ضمن مجموع رقم ٥٢٤١.
- الظفري، أبو عبد الله محمد بن مالك (كان على قيد الحياة سنة ٤٨٠ هـ): **زهرة البستان ونزعة الأذهان**. خ. ح. رقم ١٥٣٤.

- عبد الودود بن عمر التازي الاندلسي (كان على قيد الحياة سنة ١٢٣٠ هـ): نزهة الاخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين البكرين. خ. ع. و. م. ر. - رقم ك ١٢٦٤ ضمن مجموع.
- العبدوني، محمد بن عبد الكريم (دفن أبي الجعد سنة ١١٨٩ هـ): يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ سيدي المعطي خ. ع. و. م. ر. - رقم ك ٣٠٥.
- العزني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن أحمد اللخمي السبتي (٥٥٧ - ٦٣٣ هـ). كتاب دعامة اليقين في زعامة المتقين. خ. ع. و. م. ر. - رقم ق ٢٤١ ضمن مجموع.
- العمري، ابن فضل الله أحمد بن يحيى بن مجلي بن دعجان (٧٠٠ - دمشق ٧٤٩ هـ): كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار. ج ٣ القسم الأول خ. د. ك. ق. - معارف عامة رقم ٥٥٩ وكذلك نسخة خ. ع. و. م. ر. - رقم ٢٦٤٢.
- العيني، محمود بدر الدين (ت ٨٥٥ هـ): عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان او تاريخ العيني ج ٢٠ - ٤ - ج ٢١ خ. د. ك. ق. ميكروفيلم رقم ٣٥٥٢٤.
- الكتاني، أبو محمد عبد العزيز الحسني الإدريسي (بداية القرن ١٤ هـ): زهرة الآس في بيوتات فلس. المجلد الأول خ. ع. و. م. ر. - رقم ك ١٢٨١.
- المتيجي، أبو علي (عاش في عصر المرابطين): رسالة في تحقيق اتجاه قبلة الصلاة بالمغرب (م. خ).
- محمد بن رأس الناصر العسكري الجزائري (عاش في القرن ١٢ هـ): الخبر المغرب عن الامر بالمغرب. خ. ع. و. م. ر. - رقم ك ٢٢٦٣.
- محمد بن عياض بن موسى بن عياض اليحصبي بن القاضي عياض (ت ٥٧٥ هـ): مذاهب الحكماء في نوازل الاحكام. خ. ح. رقم ٤٠٤٢.
- المواعيني، إبراهيم الاشبيلي (عاش في القرن ٦ هـ): ريحان الالباب وريعان الشباب في مراتب الآداب خ. ح. رقم ٢٦٤٧.
- مؤلف مجهول: التقيد الابي في علم الوثائق خ. ع. و. م. ر. - رقم د ٧٥٦.
- مؤلف مجهول: حكاية أبي العباس السبتي مع الطلبة خ. ع. و. م. ر. - رقم د ٢١٥٠. ضمن مجموع.
- مؤلف مجهول (عاش في العصر الغرناطي): ذكر بلاد الاندلس وصفاتها وفضائلها واصقاعها. خ. ح. رقم ج ٨٥.
- مؤلف مجهول، (منتصف القرن ١١ هـ): كتاب طبقات المالكية خ. ع. و. م. ر. - رقم د ٣٩٢٨.
- مؤلف مجهول، (بداية القرن ٨ هـ): كتاب في الفقه المالكي. خ. ع. و. م. ر. - رقم ٢١٩٨.
- مؤلف مجهول: (عاش في القرن ٧ هـ): كتاب في تراجم الاولياء. خ. ع. و. م. ر. - رقم ج ١٢٧١.
- مؤلف مجهول: كنش فيه مجموع قصائد. خ. ع. و. م. ر. - رقم د ١٥٨.
- مؤلف مجهول: مناقب الشيخ أبي العباس السبتي خ. ع. و. م. ر. - رقم د ٨٩٦.
- مؤلف مجهول: (عاش في العصر الوطاسي) نبذة من تاريخ المغرب الأقصى. خ. ع. و. م. ر. - رقم د ٢١٥٢ ضمن مجموع.

ملحوظة: اكتفينا بذكر لائحة المصادر المخطوطة لتعريف القارئ، بمكان وجودها وارقامها، ولم نذكر المصادر المنشورة لتداولها بين الباحثين، واقتصرنا عليها في الهوامش فقط.

المراجع الأجنبية المستعملة في البحث

- BEL (A): «Coup d'œil sur l'Islam en Berberie». Extrait de la revue des religions.
Janv. Fév. 1917. Paris. Ernest le Roux 1917.
- BEL(A): «Le sufisme en Occident Musulman au 12 et 13 siècle de J. C». Annales
de la Faculté des lettres d'Alger. Paris 1935.
- BOSH VILA (j): Los Almoravides. Tetuan 1956.
- CALMETTE (Joseph): Histoire d'Espagne. Paris. Flammarion. 1947.
- COISSAC de CHAUREBIERE: Histoire du Maroc. Paris. Payot 1931.
- DELAFOSSE (M): «Les relations du Maroc avec le Soudan a travers les âges».
Hesperis 1942. Tom IV, 2è tr: pp: 153- 74.
- DEVERDUN (Gaston): Marrakech des origines à 1912. Tom. I Rabat. Editions
Techniques Nord- Africaines. 1959.
- DUFOURCQ (Charles Emannuel): La vie quotidienne dans l'Europe Medieval
sous la domination Arabe. Paris. Hachette. 1978.
- FAURE (adolphe): Le Tasawwuf et l'ècole Ascetique Marocaine des 11- 12- 13ème
siècles de l'ère Chretienne. Melanges. L. Massignon. T2. 1957.
- FOSSIER (Robert): Enfance de l'Europe. Aspects économiques et Sociaux. Tome
1: L'homme et son espace. Ed. P.U.F. Paris 1982.
- FAURE: «Abu l'Abbas A- Sabti 'I (524- 601) 1130- 1204): la justice et la charité».
Hesperis. 1956. T. XLII, 3è et 4ème tr. pp: 448- 456.
- GUICHARD (Pierre): Structure sociales «Orientales» et «Occidentales» dans
l'Espagne Musulmane. Paris- Lahaye Ed. Mouton. 1977.
- FARHAT (Halima) et TRIKI (Hamid): Hagiographie et religion au Maroc
Medieval. H.T 1986, PP: 17- 51.

- LAGARDERE (V): La Tarique et la revolte des Muridun en 539H/ 1144 en Al Andalus. R.O.M.M. N°35, 1983 1^{er} sem. pp: 157 - 70.
- LAROUÏ (Abdellah): Histoire du Maghreb: Essai de synthèse T.1 Paris. Maspero. 1975.
- LEWICKI (Tadeusz): «Profètes, devins et Magiciens chez les berbères Medievaux». F.O. Tom. VII, 1965, pp: 3- 27.
- - LOUBIGNAC (Victorien): «Un Saint berbère: Moulay Bouazza- Histoire et Legende». Hesperis. 1944. T. XXVI, Fas, unique pp: 15- 34.
- MARCAIS (Georges): La berberie Musulmane et l'Orient au moyen âge. Paris- Aubier. Ed Montagne. 1946.
- MIEGE: «Origine et developpement de la consommation du thé au Maroc». B.E.S.M Vol XX. n°72 Jan. 1957.
- NWIYA (P): «Notes sur quelques fragments inedits de la correspondance d'Ibn Al Arif avec Ibn Barrajan». Hesperis 1959 T: XLIII 1er et 2ème tr. pp: 217- 21.
- PALENCIA (Gonzalez): Aspectos sociales de la Espagna Arabe. Madrid. Escuela Social. 1964.
- TERRASSE: Conséquences d'une invasion Berbère: Le rôle des Almoravides dans l'histoire de l'Occident. Malange Louis Halphen (Hommage) Paris 1951.
- VILLARD (G): Les Touaregs au pays du cid: Les invasions Almoravides en Espagne du 11ème au 12ème siècle. Paris 1946.

فهرست الموضوعات

| | |
|----------|--|
| ٥..... | مقدمة: حول الإشكالية التي تطرحها الدراسة..... |
| ٧..... | فصل تمهيدي: لمحة تاريخية عن دولة المرابطين في التشكل إلى الانهيار..... |
| ٢١..... | الفصل الأول: الحياة العائلية..... |
| ٢١..... | * تكوين الأسرة: الزواج، المهر، بيت الزوجية..... |
| ٣٧..... | * العلاقات الزوجية..... |
| ٤٣..... | * وضعية المرأة..... |
| ٥٥..... | * تربية الطفل..... |
| ٦٦..... | * النزاعات العائلية..... |
| ٦٩..... | الفصل الثاني: العادات والمعتقدات الشعبية..... |
| ٦٩..... | ٨ * الأطعمة..... |
| ٧٥..... | ٩ * الأزياء..... |
| ٨٦..... | ١٠ * الاحتفالات والمواسم..... |
| ٩٤..... | * وسائل الترفيه وبعض العادات الاجتماعية الشاذة..... |
| ١٠١..... | * الشؤون الصحية: الأمراض ووسائل العلاج التقليدية..... |
| ١٠٥..... | * الموت والتقاليد الجنائزية..... |
| ١١٠..... | * السحر والكهانة والتنجيم..... |
| ١٢٠..... | * القيم الاجتماعية السائدة..... |
| ١٢٥..... | الفصل الثالث: الأولياء والمتصوفة..... |
| ١٢٥..... | * أثر الأزمة في ظهور التصوف..... |
| ١٣٠..... | * التيارات الصوفية السائدة..... |
| ١٤٠..... | * موقف التيار الصوفي المعتدل من المجتمع..... |
| ١٥٠..... | * موقف السلطة من المتصوفة..... |
| ١٥٥..... | * دور المتصوفة في المجتمع..... |
| ١٦٣..... | * ثورات المتصوفة..... |
| ١٧٣..... | خاتمة..... |

الملاحق ١٧٥

- رقم (١): رسالة من الأمير علي بن يوسف إلى الخليفة المستظهر بالله العباسي ١٧٦
 رقم (٢): رسالة تعزية موجبة ليوسف بن تاشفين في وفاة الأمير مزدي ١٧٨
 رقم (٣): ظهر توقيع واحترام بعث الأمير علي بن يوسف إلى المتصوف أبي عبد الله أمغار ١٧٩
 رقم (٤): عقد يتضمن شهادة ضرب الزوج زوجته وإصابته بجروح ١٨٠
 رقم (٥): صيغة عقد كراء منزل ١٨١
 رقم (٦): رسالة من ابن العريف إلى أحد مريديه حول الاتصالات ومعرفة الأخبار بين المتصوفة ١٨٢
 رقم (٧): رسالة من ابن العريف إلى ابن قسي زعيم الثورة في غرب الأندلس ضد المرابطين ١٨٣
 رقم (٨): جانب من أفكار ابن قسي في التصوف ١٨٤
 رقم (٩): فتوى تتضمن عقاب القتل بالصلب لمن خالف تأويل النصوص القرآنية ١٨٥
 رقم (١٠): بعض العائلات المغربية والأندلسية الأرستقراطية في العصر المرابطي ١٨٦
 رقم (١١): العائلات الفاسية النخبية في العصر المرابطي ١٨٨
 رقم (١٢): بعض المعتقدات الشعبية حول ما يحدث إبان السنة ١٩٠

الرموز والاختزالات المستعملة في الكتاب ١٩٢

المصادر المخطوطة المستعملة في الكتاب ١٩٤

قائمة المراجع الأجنبية ١٩٦

الخرائط:

(١) حدود الدولة المرابطية في أقصى توسعها ١١

(٢) أهم المدن والمناطق في عصر المرابطين ١٥

الجدول: عينة لتوزيع المتصوفة حسب وضيعتهم الاجتماعية ومنهم ١٣٥

